المعهد الدولي للبنوك والاقتصاد الإسلامي
القسم الشرعي
مواقف السيرة النبوية

التهيئة والإعداد

لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم وأصحابه)

تأليف
د. كوثر حسن صالح العثماني
أستاذ الدراسات الإسلامية بالمعهد الدولي للبنوك والاقتصاد الإسلامي

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمعهد الدولي للبنوك والاقتصاد الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ
تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ
فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ
بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سورة الفتح ٢٩

صدق الله العظيم

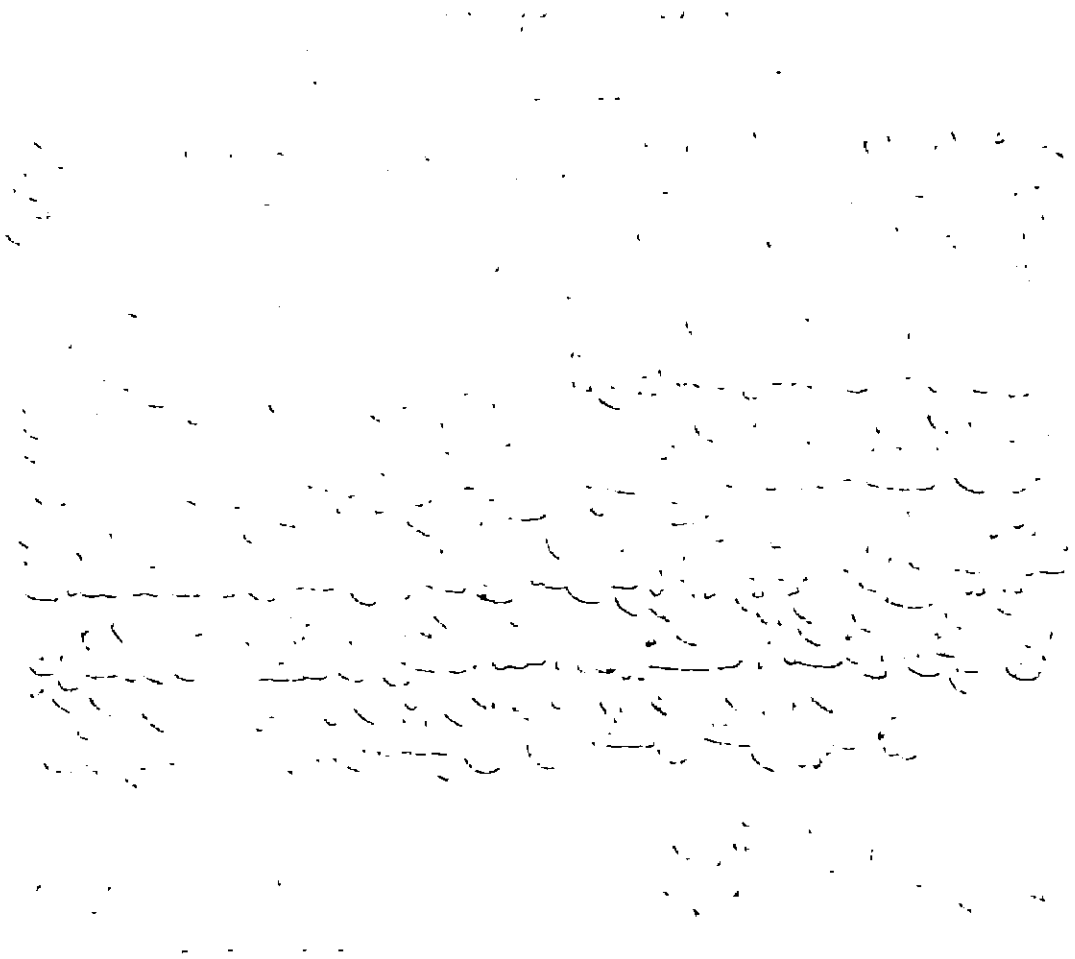

بسم الله الرحمن الرحيم

" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا "

صدق الله العظيم

سورة الأحزاب (٢١)

من السنـــة النبوية :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان خلقه ــ صلى الله عليه وسلم ــ القرآن » أخرجه أحمد في مسنده ومسلم وأبو داود .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الأستاذ الدكتور عميد المعهد الدولى
للبنـــوك والاقتصاد الاسلامى

الحمد لله ، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين ، الذى جمله ربه وكملـه بمكارم الأخلاق وخاطبه بقوله :

« وانك لعلى خلق عظيم » (١) وقال هو صلى الله عليه وسلم عن نفسه :

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢) .

وبعـــد :

فكيف يفهم رجل المصرف الاسلامى دينه ، وكيف يدعو غيره له ؟ لقـد وصفت أم المؤمنـين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ الأخلاق العملية للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت :

« كان خلقه القرآن (٣) » والحق أن هذا الوصف يعتبر من أبلغ الأوصاف لسيدنا رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أدقها وأكثرها تطابقا مع قول الله سبحانه :

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (٤) اذ لا يخفى أن القرآن الكريم فيه من الآيات . المحكم والمتشابه ، والمجمل والمفصـل ، والعام والخاص ، مما قد يجعـل المسلم بحاجة الى معرفة مقاصده ، وهنا يأتى عمل الرسول صلى الله عليه وسلم ليكون التفسـير والبيان والتطبيق لهذه المقاصد .

واذن فعن طريق مواقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحياة نستطيع أن ندرك عـلى

---

(١) سورة القلم : ٤
(٢) اخرجه البخارى فى الأدب والحـاكم فى المسـتدرك وهو حديث صحيح « السراج المنير شرح الجامع الصغير للعزيزى ج ٢ ص ٤٤ »
(٣) رواه احمد فى مسنده ومسلم وابو داود عن عائشة رضى الله عنها « السراج المنير شرح الجامع الصغير للعزيزى ص٣٣ج١٤٦
(٤) سورة النحل : ٤٤ .

وجه دقيق المنهاج الاسلامى الذى يعطى للحياة نضارتها بنفس الضمان لنجاح الانجاز الذى تم على يد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه من حيث توافق المنهاج مع أوامر الله وتعاليمه ، فهو — سبحانه — وحده العليم بما يصلح من خلق وما خلق .

والرسول — صلى الله عليه وسلم — هو النسخة البشرية الوحيدة المعصومة بفضل الله من الخطأ ، لأن الله وهبها من الصواب والكمال أوفى حظ يصل اليه بشر ، ثم أمرنا بالتأسى بها ومتابعتها وطاعتها .

ومن ذلك كله ندرك خطورة الأثر الذى تعرضنا له وتعرض له شباب أمتنا بسبب تقصيرنا فى معايشة الاقتداء بالمواقف النبوية الخالدة باعتبارها المصدر القرآنى التفصيلى والعملى لمعرفة الكيفية التطبيقية الصحيحة لعبادة لله ، والتعاون فيما بين المسلمين على التذكير بهذه العبادة كما كان يؤديها سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — كى تعطينا وتعطى الأمة آثارها الايجابية الدنيوية والأخروية .

لذا فقد كانت خطوة أكثر من ضرورية حين خطط (المعهد الدولى للبنوك والاقتصاد الاسلامى) مناهجه لاعداد متخصصين أكفاء قادرين على حمل أمانة المصارف الاسلامية أن يضع مواقف السيرة النبوية العطرة فى مركزها الصحيح من قضية صياغة البشر ، واعداد الكوادر اعدادا يتفق مع طبيعة المهمة التى سوف يندبون اليها .

على أن الفائدة لهذه المحاولة لن تقتصر على الدارسين بالمعهد وانما نرجو أن تتجاوزهم الى شباب الأمة الاسلامية أينما كانت مواقعهم حتى يسلكوا الى مرضاة الله طريقا صحيحا يأمنون فيه من العثرات والزلل .

هذا وقد كان من توفيق الله — سبحانه — أن يتولى مسئولية اعداد هذه المواقف الأستاذ الدكتور حسن صالح العنانى الأستاذ بالمعهد وجامعة الأزهر الذى عايش التجربة وعركته أحداثها ، فأضاف الى ما نعرفه عنه من دواعى الثقة والطمأنينة واقعية التشخيص والتطبيق فى استلهام المواقف النبوية ما نستشعر بعمق شديد حاجتنا له ، لمعالجة الأدواء والعلل التى كانت سببا فى قصور التصور عند الكثيرين لحقائق العبادات ومقاصدها ، مما أدى الى الانحراف فى تطبيقها ، فخسرت الأمة آثارها النافعة فضلا عن الفتن والمضاعفات التى تعرض لها شبابها ومجتمعاتها .

لا بأس اذن — بل من الواجب — ونحن بصدد تصحيح الأخطاء بتغيير أنفسنا أن نجعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قدوتنا فى كل عبادة وقد أشار النبى — صلى الله عليه وسلم — لهذه الحقيقة بقوله :

« صلوا كما رأيتمونى أصـــلى » (١) وقوله : «خذوا عنى مناسككم» (٢) ، وكما أخذنا عـن النبى صلاتنا وحجنا فلماذا لا نأخذ عنه أسلوبه فى الدعوة الى الله ؟ بل فى سائر أنشطة الحياة ؟

وقد جاءت هذه الدراسة ــ بفضل الله ــ لتثبت عطاء السيرة المتجدد ، ولتركـز فى نظرتهـا الجديدة لمواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدروس العمليـة الكثيرة وفى مقـدمة هذه الدروس :

مناهج التهيئة المبدئية والاعداد المستمر والمتطور للمسلم وما يتبع ذلك من قدوة متخصصة فى مجال العمل المصرفى والاقتصادى .

مناهج البلاغ والاقناع والاتصال .

مناهج ضوابط المواجهة بين الأطراف عند الاختلاف .

مناهج تنظيم العلاقات فى جميع الاتجاهات والمستويات .

الى غير ذلك من الدروس العملية المستفادة التى استطاع الأستاذ الدكتور المؤلف أن يضعها فى أطار الأسباب المتاحة لقدوة البشر ، مع وضع ذلك كله فى اطار المشيئة الربانية التى لا تنفك عنها مشيئة ما ، ولا يستقل عنها أى سبب ، بأسلوب مريح مقنع غاية فى السهولة والامتناع ، تدعمـه الحجة ، ويؤيده البرهان ، فكان هذا الكتاب بحق فتحا جديدا فى تفسير معنى القدوة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نفعنا الله والمسلمين به ، وتقبل منا ومنه . ورزقنا جميعا حسن القـدوة والتأسى بسـيدنا رسول الله ، وصلى الله على خاتم النبيين فى الأولين والآخـــرين ، وعلى آله وأصـــحابه أجمعين : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » (٣) .

د. احمد عبد العزيز النجار
عميد المعهد الدولى للبنوك والاقتصاد الاسلامى

---

(١) رواه احمد والبخارى عن مالك بن الحويرث ــ نيل الاوطار للشوكانى جـ٢ ص ١٧٥ .
(٢) جزء من حديث رواه احمد ومسلم والنسائى عن جابر رضى الله عنه « نيل الأوطار ــ للشوكانى جـ٥ ص ٦٥ »
(٣) سورة الصافات الآيات : ١٨٠ ــ ١٨٢

مقـــدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى يصطفى من يشاء من عباده لحمل رسالته وتبليغ أمانته ويهيئهم بما يشـاء من وسائل الاعداد الالهى ، ليكونوا لمن وراءهم من الاتباع أحسن قدوة ، وأصلح نموذج ، وأعلى مثل • قال الله ــ تعالى ــ « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » (١) •

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، الانســان الكامل • والمثل الأعلى ، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهيأه لحمل رسالته أحسن تهيئة ، ليكون ــ كما شـــاء الله وأراد ــ التطبيق العملى للدعوة الاسلامية •

وبعد فهذه بعض المواقف من السيرة النبوية العطرة ، قصدنا من تحليلها وتقديمها الكشف عن جانب هام من جوانب حياة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسيرته ــ وهو فقه الاقتداء بخاتم الأنبياء ، لأن الاقتداء به ــ صلى الله عليه وسلم ــ عبادة أمرنا الله بها ، ولكن غفل عنها كثير من الناس ، مما كان له أوخم العواقب فى حياتهم ، ولاغرو فقد كانت حياة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى جميع صورها اخلاصا كاملا فى العبودية لله والتقرب اليه ــ « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٢) •

وقــد بدأنا هــذه المواقف بتنــاول كيفية اعــداد الله لنبيــه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالتهيئة المبدئية بما فى مقدور البشر أن يتخذوا من هذا المنهج الربانى فى الاعداد طريقا لتنشـئة الأجيال الاسلامية أحسن تنشئة • وقد لاحظنا ان أهم هذه العوامل المؤثرة فى كيفية هذا الاعداد وهذه التهيئة عاملان ، كان لهما مردود واضح فى مســتقبل الرسالة والرســول : عامل الوراثة ، وعامل البيئة ، لذلك جعلناهما محورا لهذه التهيئه •

وقد ذكر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ عامل الوراثة فى مجال شكر الله على عظيم ما امتن به عليه فى حديث الاصطفاء الصحيح •

وذكر الله ــ سبحانه وتعالى ــ أثر البيئة فقـــال : « والبلد الطيب يخـــرج نباته باذن ربه ، والذى خبث لايخرج الا نكدا • كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » (٣) •

---

(١) الانعام : ٩٠
(٢) الانعام : ١٦٢ ــ ١٦٣ .
(٣) سورة الاعراف : ٥٨

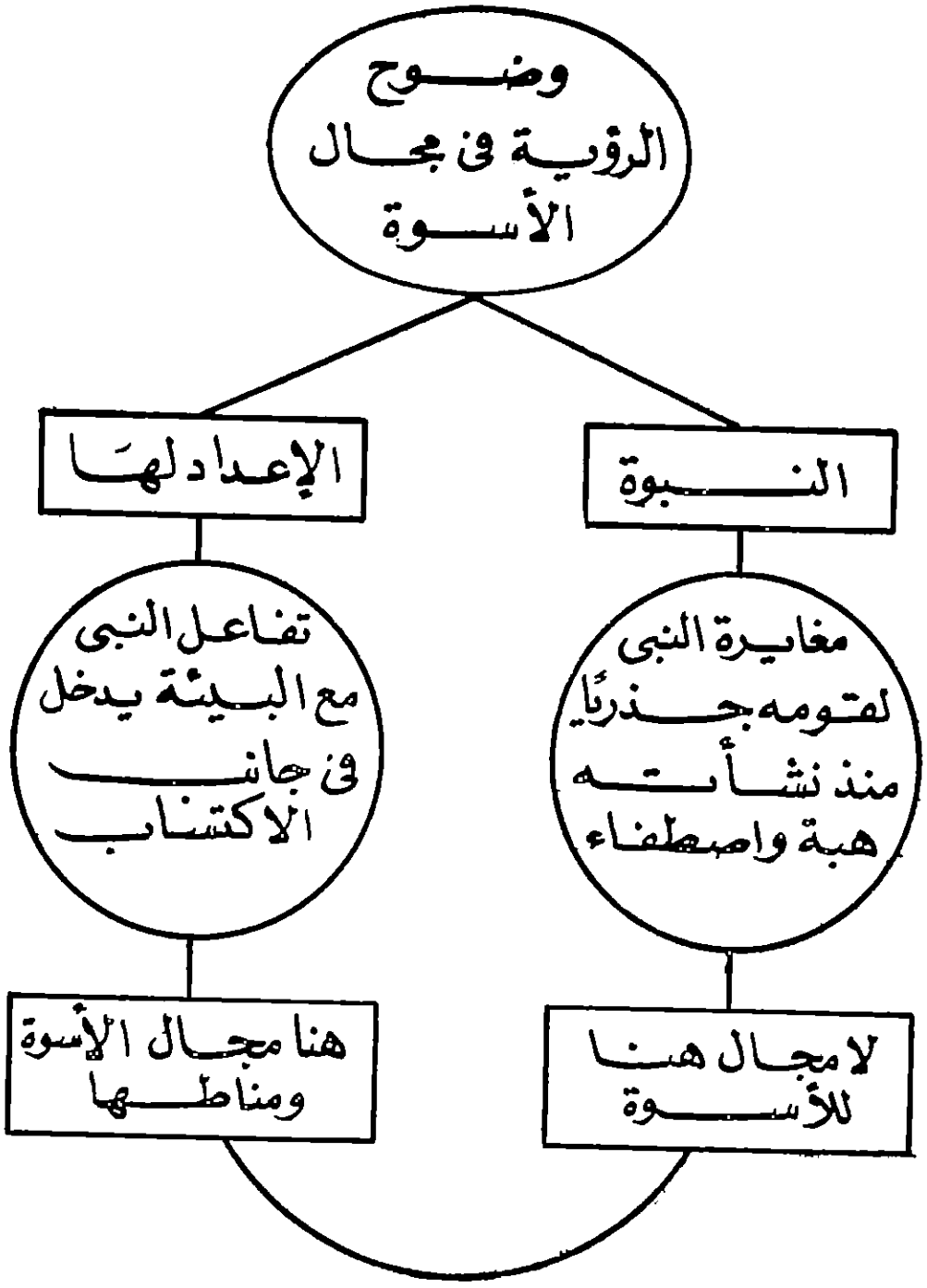
وضوح الرؤية فى مجال الأسوة
النبوة
الإعداد لها
مغايرة النبى لقومه جذريًا منذ نشأته هبة واصطفاء
تفاعل النبى مع البيئة يدخل فى جانب الاكتساب
لا مجال هنا للأسوة
هنا مجال الأسوة ومناطها

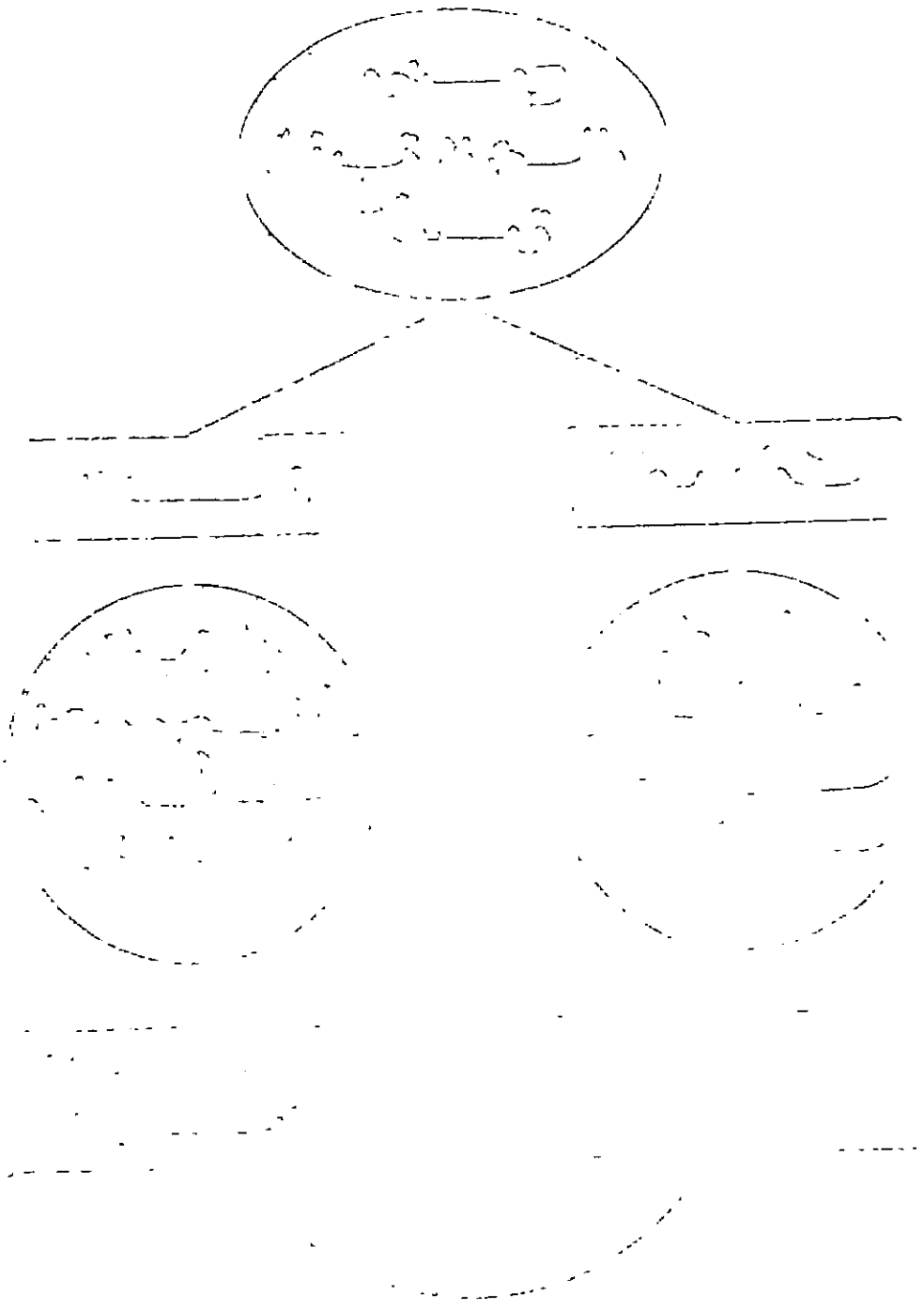

وضـــوح الرؤية فى اعـــداد الأنبيـــاء

يمنح الاسلام أبناءه قدرة فائقة على الرؤية الواضحة لأدق الفروق مهما تشابكت علاقاتهـــا ، واختلفت أبعادها • ومن سمات المؤمنين الصادقين ، صفاء النظرة ، ونقاء الفكرة وسعة الأفق •

ومن ظواهر وضوح الرؤية عند المسلم أن يدرك — فى مجال اعداد الأنبياء — أنه لا يوجد أى تعارض بين حقيقتين يوهم النظر السطحى لهما أنهما متعارضتان •

الحقيقـــة الأولى :

تغاير الأنبياء عليهم صلوات الله تغايرا جذريا عن أقوامهم ، وأعرافهم ، وتقاليدهم •

والحقيقـــة الثانيـــة :

تأثر الأنبياء ببعض عوامل البيئة التى هيأها الله تدريبا ، واعدادا لهم ، وخير مثل لذلك نجده فى خاتم النبيين وتفاعله مع البيئة بأحيائها وأمكنتها ، فالصـــحراء ، والرعى ، وحليمة ، وأمه ، وجده ، وغار حراء •• كل ذلك ، وغيره من عناصر البيئة جند من جنود الله ، وما يعلم جنود ربك الا هو ، وأى تأثير لها فى اعداد النبى صلى الله عليه وسلم هو من فعل الله أولا وآخرا •

ويلحق بما سبق من ظواهر الوضوح فى الرؤية عند المسلم أن يكون قادرا على الاستيعاب ، والاقتناع بأن النبوة شىء ، وأن الاعداد لها شىء آخر ، والكلام هنا عن الاعداد ، والتهيئة للنبوة ، وليس عن النبوة ذاتها • واذا كانت الحقيقة المسلمة عن تغاير الأنبياء عن أقوامهم تقتضى بأن يتولى الله اعداد أنبيائه ، فمعنى ذلك أن الاعداد أشمل من أن يقتصر على الجانب المرتبط بنظام الأسباب والمسببات الذى يتفاعل فيه الأنبياء مع عناصر البيئة ويكون مجالا ميسرا للمتابعة والقدوة •

ومن أوضح النصوص دلالة على تعدد جوانب الاعداد للأنبياء وتكاملها دون تزاحم أو تعارض قوله تعالى لسيدتنا موسى عليه السلام وأمه : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لى ، وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى ، اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ، ولا تحزن ، وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ، وفتناك فتونا ، فلبثت سنين فى أهل مدين ، ثم جئت على قدر ياموسى ، واصطنعتك لنفسى » (١) •

---

(١) طه : ٣٩ — ٤١ •

فقد ذكرت الآيات أبرز ما عرض لموسى وأمه من بلاء واختبار « بدءا من القائه فى اليـم ، ووصوله لعدو الله وعدوه ، ورجوعه لأمه ، وقتله من غير قصد للمصرى ، وهجرته لأهل مدين ثـم عودته لمصر » كل ذلك وغيره من البلاء والفتنة جمعته كلمتان معجزتان فى سياق الآيات هما قوله تعالى : « وفتناك فتونا » وشاهدنا من الآيات أن هذه المواقف البيئية المؤثرة هى من صناعة الله فى أنبيائه ، فقد جاء ذكرها فى الآيات تحت سلطان الله ومشيئته بمثل قوله تعالى : «ولتصنع على عينى» وقوله تعالى : «ثم جئت على قدر يا موسى» وقوله تعالى : «واصطنعتك لنفسى» .

الأسـوة الحسـنة

اعـداد الأنبيـاء بين الهبـة والاكتسـاب

وفى مقدمة ما يتصل بالأسوة الحسنة — فى مجال الاعداد ، والتدريب والتهيئة للأنبياء — وجوب المعرفة للهبة ، والكسب ، وادراك ما بينهما من فروق .

والهبة المقصودة هنا هى ماخلصت للعبد من عطاء الله وفضله بلا دخل من مشيئة الانسان . أما الكسب أو الاكتساب فهو ماخلص للعبد من عطاء الله عن طريق مامنحه من الحرية ، والمشيئة ، والاختيار ، والقدرة على العمـل .

ومن أبرز الفروق التى يجب ادراكها بوضوح بين الهبة والكسب ، أن الهبة تتعلق بالنبوة باعتبارها رسالة الله لعباده ، وهى بهذا الاعتبار لا مجال للكسب فيها ، وبالتالى ليس فيها للأسوة أو القدوة مجال ، وكانت الآيات صريحة فى تقرير ذلك بقول الله :

« وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسـل الله الله أعلم حيث يجعل رسالتـه» (١) .

وأما الاكتساب فانه يتعلق بالجانب المرتبط بنظام الأسباب ، والمسببات من جوانب الاعداد والتهيئة للنبوة ، وهو بالتالى يرتبط ارتباطا مباشرا بمجال الأسوة والقدوة باعتبار هـذ الجـانب أمرا من الأمور المطلوبة التى تدخل فى نطاق المكنات المتاحة لقدرة الانسان واكتسابه ، فى ضـوء الآية الكريمة : «لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت » (٢) .

---

(١) الانعام : ١٢٤ .
(٢) البقرة : ٢٨٦ .

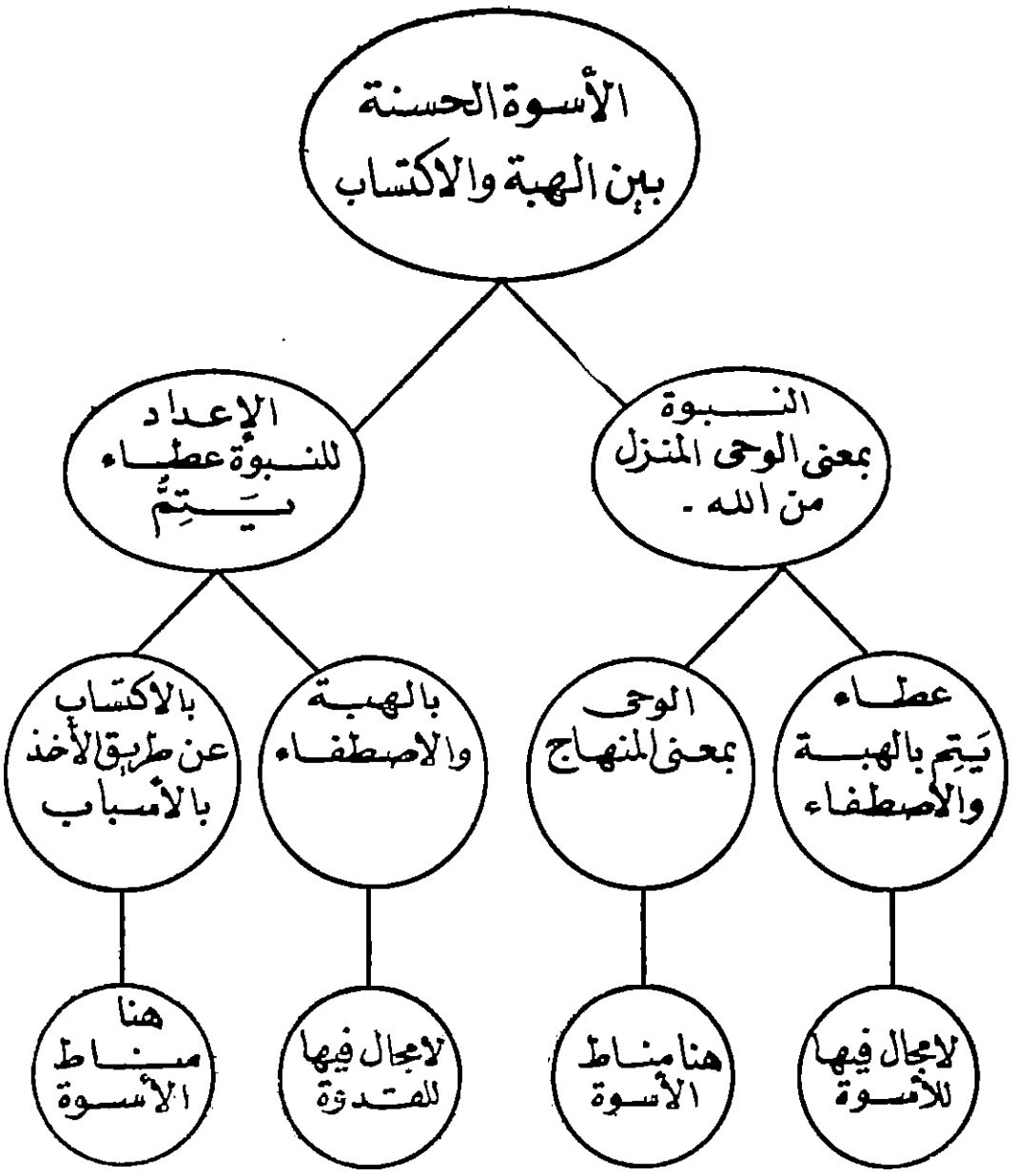
الأسوة الحسنة
بين الهبة والاكتساب
النبوة
بمعنى الوحي المنزل
من الله .
الإعداد
للنبوة عطاء
يتم
عطاء
يتم بالهبة
والاصطفاء
الوحي
بمعنى المنهاج
بالهبة
والاصطفاء
بالاكتساب
عن طريق الأخذ
بالأسباب
لا مجال فيها
للأسوة
هنا مناط
الأسوة
لا مجال فيها
للقدوة
هنا
مناط
الأسوة

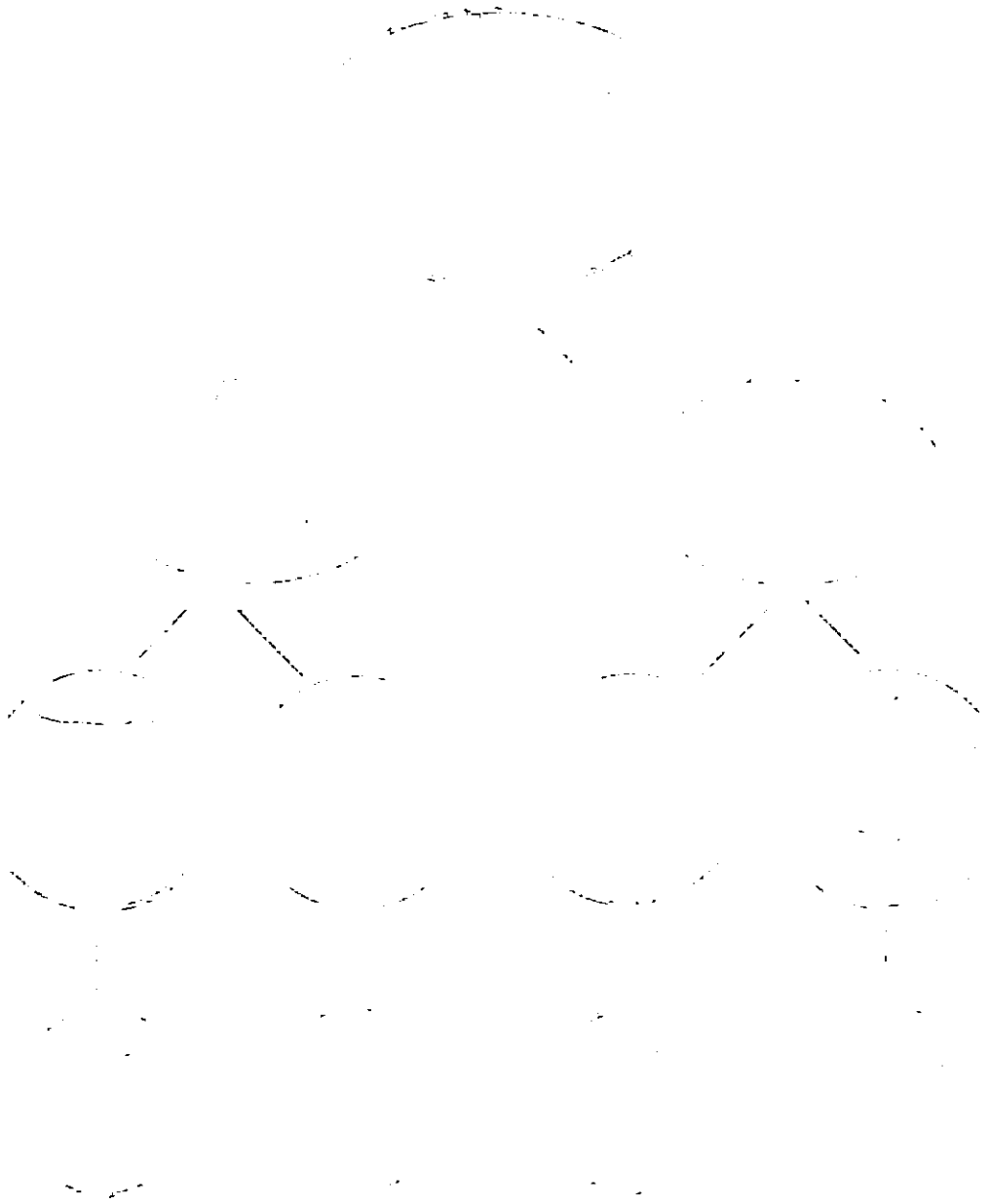

ومع أن النبوة توهب ولاتكتسب فقد كان من رحمة الله أن يتيح جانبا من وسائل الاعداد لقدوة البشر ونحن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى — اصطفى النبى محمدا — صلى الله عليه وسلم — وهبأ له الأصلاب الطاهرة والأرحام الزاكية ، وأتاح له من عوامل البيئة — رغم فسادها — المواقف الصحيحة ليكتسب من وسائل الصفاء والنقاء ما يؤهله لتحمل أمانة البلاغ الى الناس — وهـذا لا يتنافى مع ما ذكرناه من أن النبوة توهب ولا تكتسب ، ولكن الاعداد لها والتهيئة لصاحبها أمور يكتسبها النبى — صلى الله عليه وسلم — بتوفيق الله تعالى ومشيئته ونحن اذا استخدمنا الجانب المتاح من هذه المؤثرات التى ربى الله عليها أنبياءه ورسله ، فاننا نصبح فى النهاية مع توفيق الله أتباعا صـالحين لهؤلاء الرسل • وهذا ما نقصد اليه من حسن الاقتداء •

وقد وضعنا هذه المؤثرات ونتائجها فى أشـكال توضيحية ليكون ذلك أسهل وأسرع وأوكد فى التعبير عما نريد أن نصل اليه فى مجال هذه الدراسة ، التى نرجو أن يكون لها أثرها الفعال فى نفوس المسلمين جميعا ، وبخاصة الشباب الذين هم أملنا فى تصحيح المسار ، وتصويب الأخطاء بحسـن الاقتداء •

وقد كان وراء هذا الكتاب جهود مباركة من الواجب أن يرد الفضل فيها لأهلها :

فالأستاذ الدكتور أحمد النجار ، هو صاحب الفكرة الملهمة التى تـؤكد أن المدخل الصحيح والوحيد لاعداد الأفراد وتطبيق المنهاج يتمثل فى القدوة بالمواقف العملية النبوية فى تناوله صلى الله عليه وسلم لسائر أنشطة الحياة كما نقتدى به فى الصلاة سواء بسواء •

والأستاذ الدكتور أحمد يوسف سليمان ، وفضيلة الأستاذ اسماعيل جاد الرب، وفضيلة الأستاذ الشيخ عصام دعبس •

واصلوا الليل بالنهار تحقيقا وتدقيقا حتى خرج هذا الجزء من المواقف ميسـورا لمن يطلب الانتفاع بحياة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — •

ولا يفوتنى أن أشكر لقسم الحديث بجامعة الأزهر ومجلس كلية أصول الدين وعمادتها ورئاسة الجامعة حيث يسروا لنا التفرغ لهذه المهمة العلمية الشاقة ، كما أشكر لادارة التدريب فى المعهـد الدولى للبنوك والاقتصاد الاسلامى على تسخيرها كافة أجهزتها الحديثة لاخـراج الكتاب بهـذا التنسيق والتنظيم •

وأخيرا أشكر للأستاذ أحمد الشريف والحاج عبد اللطيف مصطفى وسائر مساعديه فى المطبعة لتفانيهم واخلاصهم فى انجاز أعمالهم تقبل الله من الجميع ، وله الثناء أولا وآخرا ، ونصلى ونسلم على خاتم النبيين ، وعلى آله وأصحابه ، ومن أحسن القدوة به فى الأولين والآخرين ،،،

د • حسن العنانى

الباب الأول

"أ"

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

الباب الأول

التهيئة المبدئية

مراحل التربية الأولى وتأثيرها في المستقبل

الاعداد الإلهي للأنبياء
بالأسباب المتاحة لقدوة البشر

عوامل الوراثة والبيئة

من محتويات الدروس المستفادة

أولا : دروس الوراثة :

١ ــ ابعاد الناشئة عن المؤثرات السلبية بأساليب غير تقليدية لو اقتضى الأمر •

٢ ــ مبدأ اختيار الزوجة الصالحة والاهتمام به •

٣ ــ العمل على استمرار وبقاء قيم الايمان والأخلاق فى الأجيال القادمة •

ثانيا : دروس البيئة :

١ ــ التهيئة البدنية واللغوية والاعتماد على النفس •

٢ ــ التهيئة لاحتمال الصدمات والمشقات •

٣ ــ الاعداد لمسئولية القيادة وصقل ملكتها •

٤ ــ كفاءة الاتصالات والخبرات الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية •

٥ ــ تكوين القيم والضوابط التى تحكم وتنظم العلاقات المتناقضة •

٦ ــ الاستقلال فى التفكير والاستنتاج واتخـــاذ القرار بعيدا عن التأثر بالغير أو التبعية للتقاليد والأعراف •

٧ ــ المراجعة الموضوعية بالتركيز فى التأمل مع طلب العون من الله •

وفى الرسم التالى شكل توضيحى لهذه المحتويات يعقبه تفصيل لها •

شكل توضيحي لنتائج بعض مواقف الوراثة والبيئة في التهيئة المبدئية

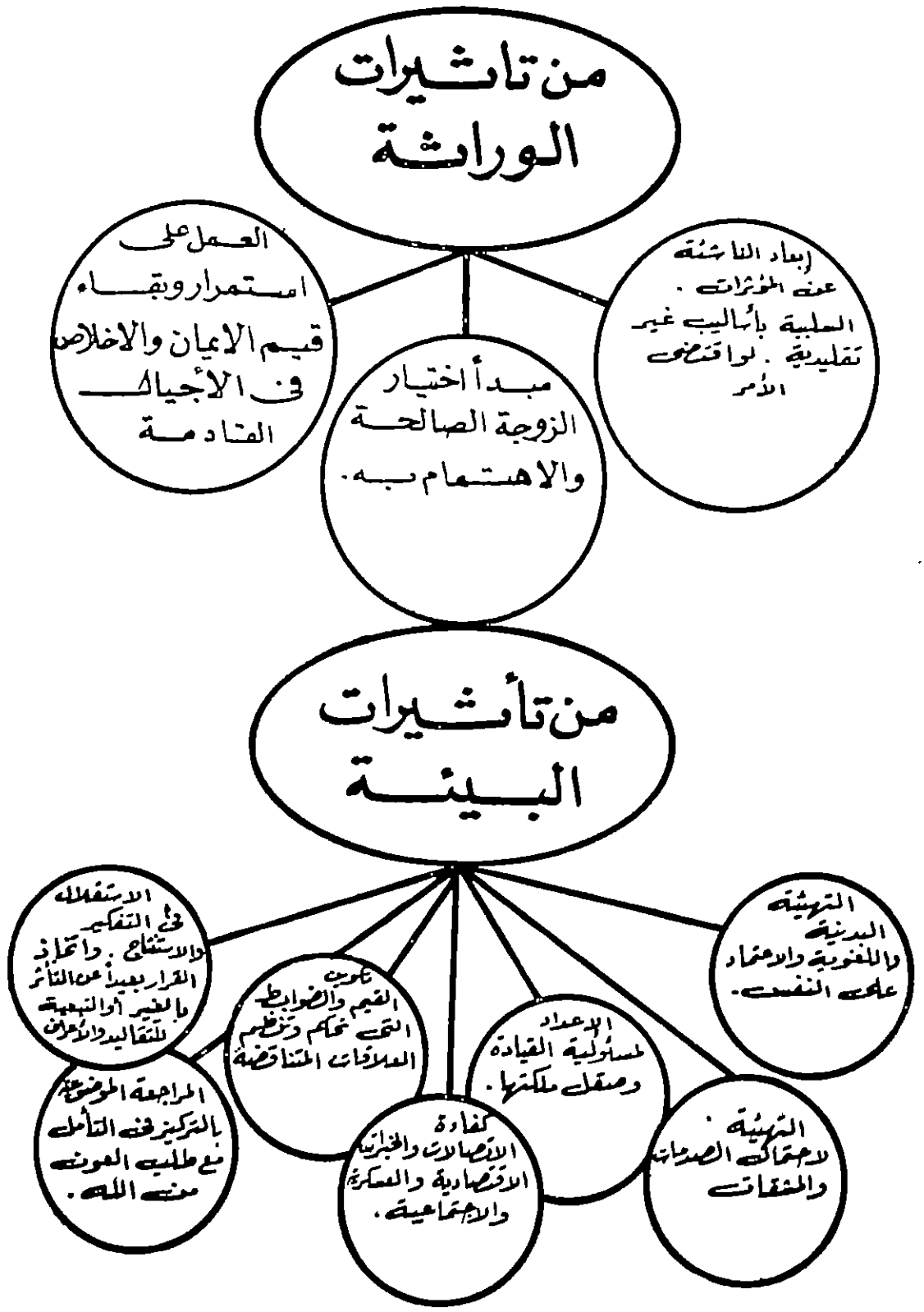

الفصل الأول

عوامل الوراثة

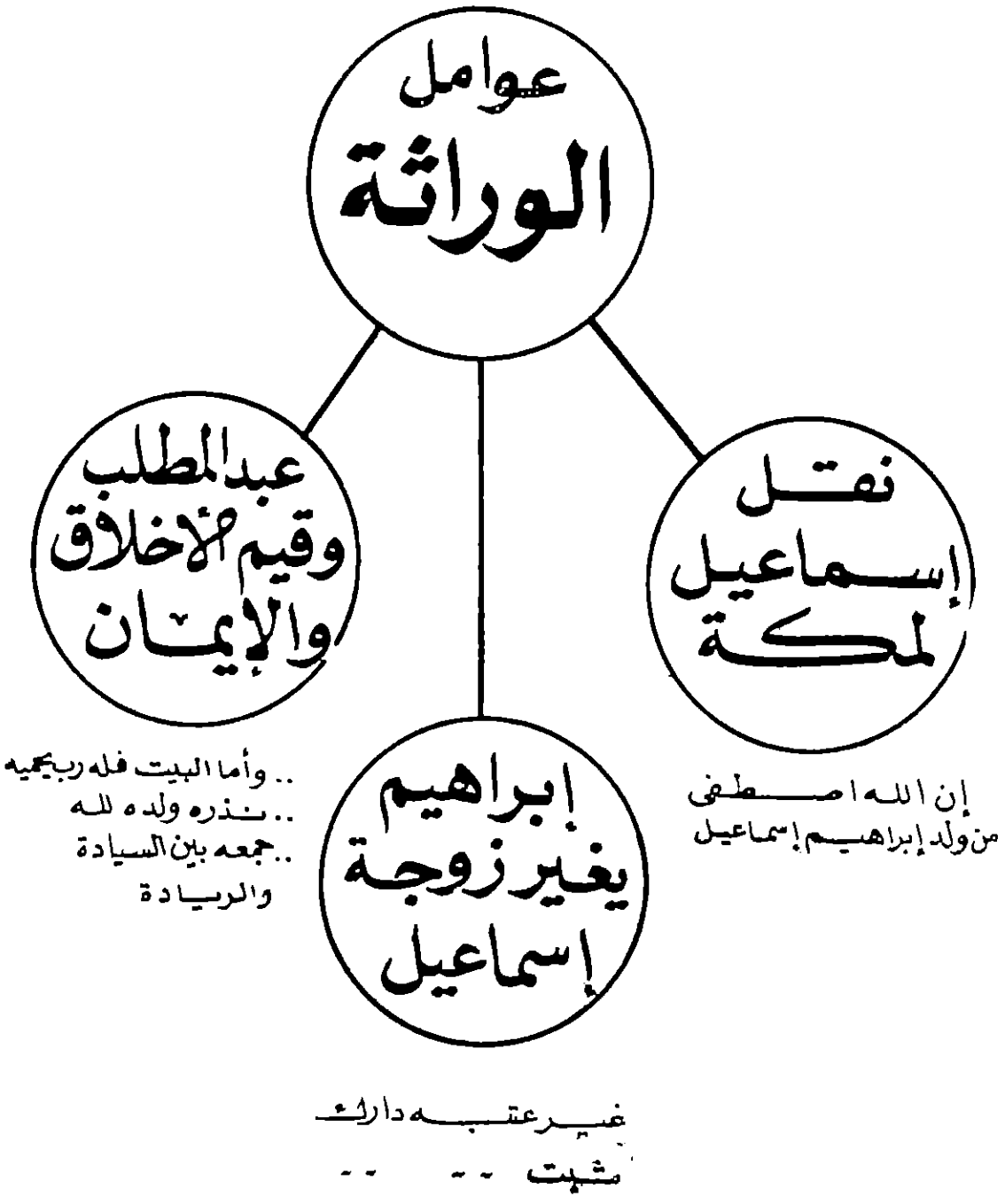
عوامل
الوراثة
نقل
إسماعيل
لمكة
إن الله اصطفى
من ولد إبراهيم إسماعيل
عبد المطلب
وقيم الأخلاق
والإيمان
.. وأما البيت فله ربٌ يحميه
.. نذره ولده لله
.. جمعه بين السيادة
والريادة
إبراهيم
يغير زوجة
إسماعيل
غير عتبه دارك
مثبت

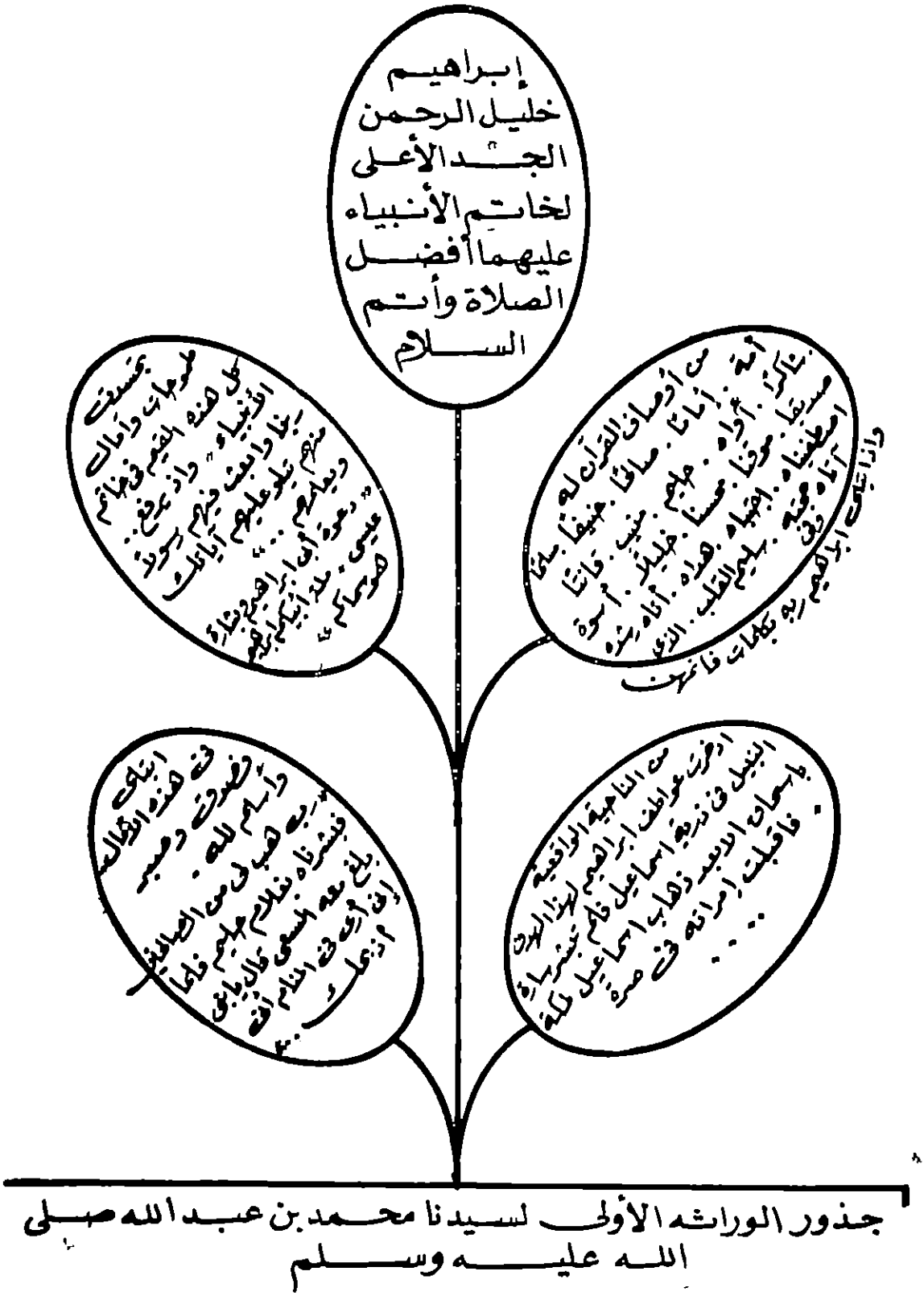

جذور الوراثة الأولى لسيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

من أوصاف القرآن لابراهيم عليه السلام

قال تعـــالى « ان ابراهيم كان أمـــة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شـــاكرا لأنعمـــه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وانه فى الآخرة لمن الصالحين » (١)

وقال أيضا « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » (٢) .

وقال عز وجل « ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » (٣)

وفى سورة النساء يقول تبارك وتعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا » (٤) .

وفى سورة الأنعام يقول الله تعالى « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » (٥).

وفى سورة الأنبياء جاء قوله تعالى عنه « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » (٦) .

وفى سورة النجم ذكر له أهم ما يتحلى به الانســـان من الخصـــال فقال « وابراهيم الذى وفى » (٧) .

وفى سورة الأنعام يذكر الله تعالى تأييده لخليله فيقول :

« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » (٨)

وجاء فى سورة الصافات « وان من شيعته لابراهيم — اذ جاء ربه بقلب سليم » (٩)

وفى سورة البقرة جـــاء قوله تعالى « واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال انى جـــاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » (١٠)

---

(١) النحل آية ١٢٠ — ١٢٢.
(٢) هود ٧٥
(٣) النحل ١٢٣
(٤) النســـاء ١٢٥.
(٥) الأنعام ٧٥
(٦) الأنبياء ٥١
(٧) النجم ٣٧
(٨) الأنعام ٨٣
(٩) الصافات ٨٣ — ٨٤
(١٠) البقرة ١٢٤.

هذه القيم فى ابراهيم تتبلور طموحاتها فى خاتم النبيين

قال تعالى « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم • ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » (١) •

قال ابن كثير فى تفسيره

« يقول تعالى اخبارا عن تمام دعوة ابراهيم لأهل الحرم — أن يبعث الله فيهم رسولا منهم أى من ذرية ابراهيم

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا فى الأميين اليهم والى سائر الخلق من الجن والانس • كما قال الامام أحمد بسنده عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انى عند الله لخاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة ابراهيم ؛ وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » (٢) •

وبسند آخر لأحمد الى أبى أمامة رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله ما كان بدء أول أمرك ؟ قال : دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى بى ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » (٣) •

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس ابراهيم عليه السلام ولم يزل ذكره فى الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى اسرائيل نسبا ،وهو عيسى ابن مريم عليه السلام حيث قام فى بنى اسرائيل خطيبا ، فقال : « انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » (٤) ، ولهذا قال فى هذا الحديث : دعوة أبى ابراهيم ، وبشرى عيسى بن مريم وقوله : ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام قيل : كان مناما رأته حين حملت به ، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة • وتخصيص الشام بظهور نوره اشارة الى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا

---

(١) البقرة ١٢٧ — ١٢٩

(٢) رواه احمد باسانيد والبزار والطبرانى بنحوه واحد اسانيد احمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبان . مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢٢٣

(٣) المصدر السابق .

(٤) الصف آية ٦

تكون الشام فى آخر الزمان معقلا للاسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم اذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها

ولهذا جاء فى الصحيحين (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك) وفى صحيح البخارى « وهم بالشام » .

قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية ، فى قوله تعالى « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : قد استجيب لك وهو كائن فى آخر الزمان .

وقوله تعالى (ويعلمهم الكتاب) يعنى القرآن .

(والحكمة) يعنى السنة قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم ، وقيل : الفهم فى الدين . ولا منافاة .

(ويزكيهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس :

« يعنى طاعة الله والاخلاص » وقال محمد بن اسحاق :

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » قال : يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيجتنبوه ، ويخبرهم برضاه عنهم اذا أطاعوه واستكثروا من طاعته ، وتجنبوا ما سخط من معصيته (١) .

والخلاصة الواضحة من هذه النصوص القرآنية أن كل الآمال والطموحات الكبيرة التى تليق بالأنبياء ورسالاتهم لانقاذ الناس واسعادهم والتى ملأت على ابراهيم عقله وقلبه وعاطفته تركزت جميعها وتبلورت فى نبى عظيم من ذرية اسماعيل ، كان هو خاتم النبيين .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ بتصرف واختصار ط الشعب

من الناحية الواقعية

ادخرت عواطف ابراهيم لهذا الهدف النبيل فى ذرية اسماعيل

فلم تبشر سارة باسحاق الا بعد ذهاب اسماعيل لمكة

من المسلم به أن الله سبحانه وتعالى بشر ابراهيم باسماعيل أولا ، ولذا فقد كان موفور العاطفة من الناحية العملية لاسماعيل • ثم بشره وسارة ثانيا باسحاق •

قال تعالى « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين • اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون • فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين • فقربه اليهم قال ألا تأكلون • فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم • فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » (١) •

فى تفسير هذه النصوص

قال مجاهد : سماهم مكرمين لخدمة ابراهيم اياهم بنفسه

« اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون » أى أنتم قوم منكرون « أى غرباء لا نعرفكم » وقيل :

أنكرهم خافهم • يقال : أنكرته اذا خفته •

« قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم » أى بولد يولد له من زوجته سارة ومعنى عليم • أى يكون بعد بلوغه من أولى العلم بالله وبدينه •

« فأقبلت امرأته فى صرة » أى فى صيحة وضجة • ومنه صرير الباب وهو صوته وقال عكرمة وقتادة : انها الرنة والتأوه • ولم يكن هذا الاقبال من مكان الى مكان • قال الفراء : وانما هو كقولك • أقبل يشتمنى أى أخذ فى شتمى •

« قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم » أى كما قلنا لك وأخبرناك (قال ربك) أى قضى فلا تشكى • وانما كان ذلك استغرابا منها لما رأت نفسها عجوزا عقيما اذ ورد أن البشارة جاءتها وقد بلغت تسعا وتسعين سنة (٢) •

---

(١) سورة الذاريات — ٢٤ — ٣٠

(٢) تفسير القرطبى ص ٦٢١٤ وما بعدها اقتطافا

البلاء العظيم لابراهيم فى هذه الآمال وصدقه وصبره واسلامه الأمر لله

التضحية التى أمر الله بها ابراهيم وهى ذبح ابنه اسماعيل ، واستجابة ابراهيم واسماعيل لهذا الأمر الالهى عن رضا وطيب نفس هما من أعظم الحوادث وأجلها فى تاريخ التضحيات وبالأخص اذا نظرنا اليهما من الزوايا التى أحيطت بها هذه التضحية ، فابراهيم الحريص على الذرية ، والذى رزق بعد لأى بولد وهو فى سن الشيخوخة ، هذا الولد هو مهجة قلبه ، وأمل حياته ووارث اسمه يأمره الله أن يضحى به ليمتحن ايمانه ويرى مبلغ استجابته لأمره ، ودرجة طاعته ، حدث ابراهيم ابنه فى هذا الشأن الخطر ويكاد قلبه ينخلع من الحزن فيجيبه اسماعيل بقوله « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » (١) .

ان القلم ليعجز عن وصف مضمون هذا القول الذى يتمثل فيه الرضى التام بتضحية النفس فى سبيل الله .

انها تضحية من وجهين : تضحية الوالد بولده ، وتضحية الابن بنفسه

هذه هى أرفع صور الايمان وأجلها فى تاريخ الانسانية ، فليس الايمان ادعاءات تلوكها الألسن ، وليس الايمان تسلية للأحزان لفترة ما ، وليس الايمان نظرية من النظريات يغوص العقل فى كشف خفاياها ، بل الايمان هو الاندماج الكلى فى ارادة الله التى تتركز فى العمل بوصاياه ، وأوامره والتضحية بكل غال ونفيس فى سبيله وما أحوجنا الى هذا الدرس فى هذا الزمن الذى أصبح فيه المال والولد والمرأة يستأثرون بحب الانسان الذى يؤثرهم على كل شىء حتى أصبحوا معبودات له من دون الله ، فما أحقر الانسان اذا تعلق بزينة الحياة الدنيا الفانية وترك الحقيقة الخالدة التى هى سبب وجوده ومصدر استمرار حياته (٢) .

---

(١) الصافات : ١٠٢

(٢) مع الانبياء فى القرآن الكريم . عفيف طباره ص ١٣٩ ط دار العلم للملايين بيروت

الموقف الأول من مواقف الوراثة :

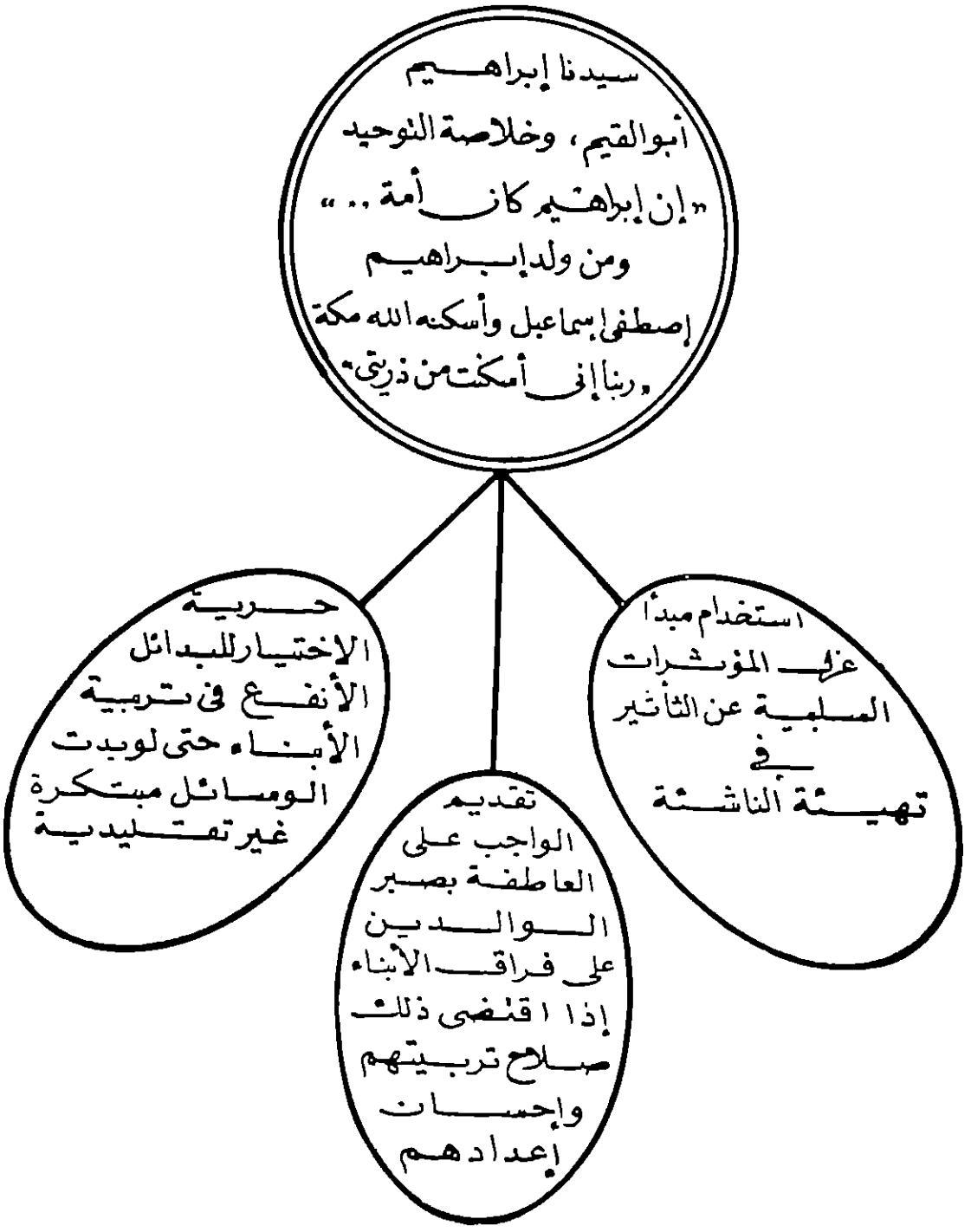

الاصطفاء بالوراثة

غنى عن البيان أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو سيد ولد آدم ، وهو الرحمة المهداة للناس كافة ، والنعمة المسداة لعباد الله بفضل الله ومشيئته .

ومع ذلك فقد جرت سنة الله فى اعداده وفق الأسباب والمسببات التى يتسنى لمن يريد القدوة أن يقتدى ويتأسى بها ومن هنا أشارت السنة الصحيحة لما أتيح فى هذا السبيل من عوامل الوراثة باجمال يتسع لكل تفصيل . وهذا لاينتافى مع الاصطفاء للأنبياء بأسباب أو اعجاز لا يدخل فى مجال القدوة أو القدرة للبشر كما سبق أن ذكرنا .

فقد ثبت فى صحيح البخارى من حديث عمرو بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا ، حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه » (١) .

وفى صحيح مسلم من حديث الأوزاعى عن شداد أبى عمار عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من بنى اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » (٢)

واذا كان وجه الاقتداء هنا هو فى ابعاد أبنائنا عن المؤثرات السلبية كما أبعد اسماعيل وأبناؤه عن أبناء عمومتهم من بنى اسرائيل مع ملاحظة استثناء الأنبياء وتابعيهم .

فاننا نحب أن نؤكد أن سياق الأحداث التى تم بها هذا الاصطفاء لاسماعيل وأبنائه من لدن الله كان فى جانب من جوانبه مرتبطا ارتباطا وثيقا بمظاهر مغرقة فى البشرية تأكيدا لمعنى تأتى القدوة ، وتسهيل التقليد والمحاكاة والمتابعة ، فقد فصلت بعض الأحاديث النبوية الصحيحة بعض المواقف التى صاحبت عملية الابعاد أو كانت سببا فيها ، وقد ذكر الامام ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية حديثا صحيحا فى ذلك فقال :

قال البخارى : قال عبد الله بن محمد — هو أبو بكر بن أبى شيبة — حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق (٣) من قبل أم اسماعيل ،

---

(١) صحيح البخارى جـ٤ ص٢٢٩ ط الشعب

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٨ ص١٢٤ ط الشعب مع اختلاف فى بعض الألفاظ

(٣) هو ما يشد به الوسط .

اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنا لك ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل ،فقالت : يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لايلتفت اليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت اذالا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق ابراهيم ، حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه — استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) (١) .

وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه يلتوى — أو قال يتلبط (٢) فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت بطن الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فلذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : « صه » — تريد نفسها . ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت ان كان عندك غواث(٣) فاذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف » . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم — أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا » . قال : فشربت وأرضعت ولدها . فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة فان ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالربية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم(٤) — أو أهل بيت من جرهم — مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا (٥) : فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين (٦)فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال : وأم

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة ابراهيم .
(٢) يتمرغ ويضرب بقدمه الأرض . وفى القاموس يتلبط — تمرغ واضطجع وتمرغ .
(٣) رواه الأكثرون بفتح المغين ، وبعضهم بالضم وبالكسر .
(٤) ابن قحطان ، حى من اليمن .
(٥) اى يتردد على الماء ويحوم حوله .
(٦) الجرى : الرسول والأجير ، والوكيل ، لأنه يجرى

اسماعيل عند المـاء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم • ولكن لاحق لكم فى المـاء عندنا قالوا : نعم • قال عبد الله بن عباس • قال النبى صـلى الله عليه وسـلم : « فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس» (١) فنزلوا وأرسـلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب • فلما أدرك زوجوه امرأة منهم » (٢) •

تعقيب على هذا الموقف المهيب

وفى هذا الحديث الشريف كثير من المواقف التى يسهل على من يتـأملها أن يجـدها جـامعة لقاعدتي الاعجاز والاكتساب فى حياة الأنبياء واعدادهم ، فالى جوار العـوارض البشرية الكثيرة التى مضت على سيدنا اسماعيل وأمه كالظمأ والجوع اللذين تعرض لهما اسـماعيل وتعلمه اللغـة العربية وغير ذلك ، وسعى أم اسماعيل باحثة عن الماء وخوفها من القلة والوحدة وحاجتها للأنس•• الى جوار ذلك كان غوث الله واعجازه بفيضان زمزم •

ومن هنا فاننا لانمل اعادة القول بأن النبوة وان كانت هبة من الله تعالى لاتنال بكسـب ولا تدرك بمجرد شوق وتطلع فان الله تعالى يختار لها صفوة الناس من عباده خلقا وخلقا وحسبا « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٣) •

لكن الأنبياء مع ذلك بشر يتعرضون للبلاء والاعداد والصبر ، ومن مظاهر الاستجابة لدعاء ابراهيم فى ذريته بدأت واضحة مرحلة الاعداد فى الحديث الذى سبق ذكره •

وذلك أنه من أهم ما يجب أن يتوفر فى كل رسول أو نبى ، ليكون القدوة الطيبة يقتدى به الناس والأسوة يتأسى به الصالحون •

ان الله تعالى يعد كل رسول من رسله بحيث يهيىء له من جملة ما يهيىء بعض الأسـباب العادية تكون فى متناول من يريد الاقتداء والتأسى •

فالرسول بشر ولكنه فى ذروة البشرية ، وانسان بيد أنه حاز قصب السـبق فى كمـال الانسانية ، سلامة قلب ، وطهارة نفس ، وحسن ادراك والتزاما لما يجب أن يقوم به المخلوق نحـو الخالق ونحو المخلوق فى ضوء هذه الحقيقة كان اعداد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأخطر منصب

---

(١) اى فوجد ذلك الحى ام اسماعيل وهى تحب الانس . روى بضم الهمزة وبكسرها .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير هـ١ ص ١٦٨ — ١٦٩
(٣) الانعام ١٢٤ .

وأجل رسالة وهى « النبوة الخاتمة » فليس اعداده عليه السلام مبتدأ من تمهيد البيئة لرسالته فحسب ، وانما الى جانب ذلك تجميع هالات السمو والطهارة من لدن آدم ، حتى كان هو صلى الله عليه وسلم خلاصتها ، وأحق الناس طرا بوراثتها .

وخليل الله ابراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء جميعا من بعده يزدلفون اليه بآصرة القربى ووشائج النسب .

ويتسابقون اليه فيقدمون له مراسم البر مفتخرين ببنوتهم له ومعتزين بأبوته لهم ، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فى مقدمة هؤلاء الرسل الكرام الذين يتجمع نسبهم حول ابراهيم الخليل ، وان كان آخرهم وخاتمهم وحيث كان عليه السلام (ابراهيم) أبا للأنبياء ، فقد جمع الله فيه من خصال الخير ونبل العواطف ومتانة الديانة ما جعله بحق أمة فضائل ، وملتقى خير ومنبع توحيد ، .. ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » (١) .

وخط الكمال بين ابراهيم عليه السلام وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم متصل لم تنقطع منه حلقة أو تفقد فيه عروة ، وعلى ذلك منذ اصطفى الله من ولد ابراهيم اسماعيل جد الرسول عليه الصلاة والسلام،وذلك الاصطفاء يتمثل بعضه فى تهيئة ظروف بيئته ليشب فيها اسماعيل بعيدا عنه.

لذلك لم يتردد ابراهيم فى طاعة الأمر واتباع الوحى فى انتزاع وحيده وفلذة كبده من الخصب الى الجدب مرتقيا فوق نداء العاطفة التى طالما تلح على الأب أن يحبو أولاده دائما بوسائل البهجة والاستمتاع ، وكان له من الصبر على فراق الابن رصيد بثه فى نفسه ايمانه الثابت ويقينه أن ما أقدم عليه هو المصلحة الحقيقية له ولابنه اذ آمن أن ما أقدم عليه هو التربية الصالحة واحسان الاعداد للذبيح لا ليكون نبيا فحسب بل ليكون جدا لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فلم يتردد ابراهيم فى نقل ابنه بعيدا عما كان يموج به مجتمع فلسطين من تحكم البعض وتسلط السفه فعجل بانتشاله ليعزله عن تلك المؤثرات السلبية موجها بالوحى ممتثلا لأمر الله تعالى .

---

(١) سورة النحل آية ١٢٠ — ١٢١ .

فى التهيئة المبدئية
إستمرار حماية عوامل الوراثة فى الجيل الذى يلى إسماعيل

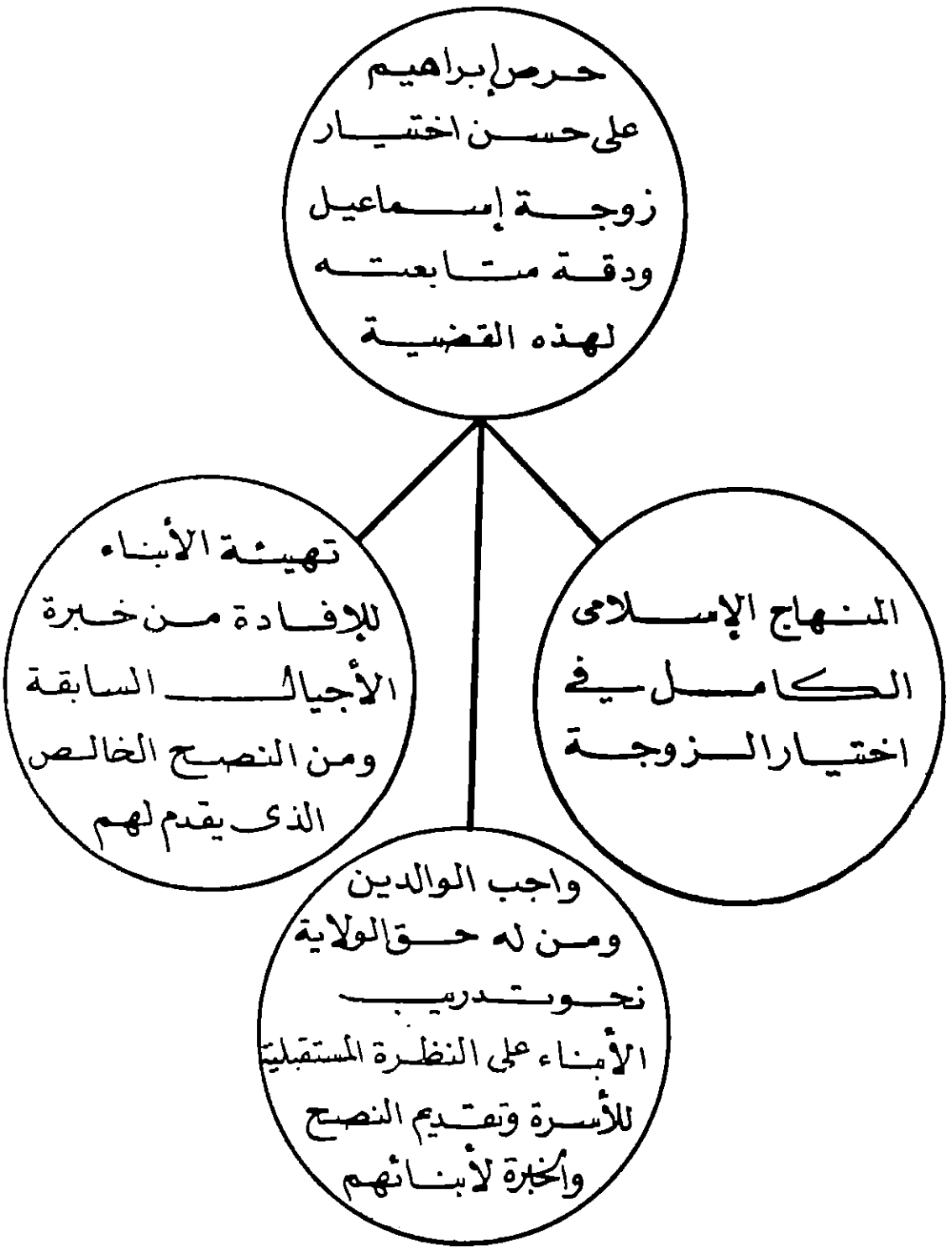

حرص ابراهيم على اختيار زوجة ولده اسماعيل

لقد تابع خليل الرحمن ابراهيم عليه السلام اهتمامه بنوعية الزوجة التى اختارها اسماعيل ، فقد استأنفت رواية ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية تقول :

« وماتت أم اسماعيل ، فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة ، وشكت اليه . قال : فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له : يغير عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت نعم :جاءنا شيخ كذا كذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال فهل أوصاك بشىء ؟ قالت نعم . أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك غير عتبة بابك قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ، وطلقها .

وتزوج أخرى ، ولبث عنهم ابراهيم ماشاء الله . ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل . فقال ما طعامكم ؟ قالت اللحم . قال فما شرابكم ؟ قالت الماء . قال : « اللهم بارك لهم فى اللحم والماء » .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه » ، قال فهما لا يخلو عليهما أحد (١) بغير مكة الا لم يوافقاه . قال : فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم . أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال فأوصاك بشىء ؟ قالت نعم . هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك » .

والوجه المتاح لنا فى القدوة هنا من أظهر الوجوه فى الاسلام فليس يخفى على أحد منهج الاسلام فى هذا الشأن حيث يربى أبناءه وشبابه ذكورا واناثا على ضرورة احسان الانتقاء للحياة الزوجية أفضل العناصر ، وهو أسلوب يؤدى الى الافادة لأقصى درجة ممكنة من أهم وأخطر عوامل الوراثة وعناصرها ، ومن المسئولية الأساسية للآباء وأولياء أمور الأبناء والناشئة غرس مبادئه فى نفوسهم .

---

(١) اى لا يقتصر عليهما احد . يقال خلا على بعض الطعام — اقتصر عليه .

(٢) هو الحجر الذى مسمى بعد ذلك مقام ابراهيم .

(٣) البداية والنهاية جـ١ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

فلقد مضى على سيدنا ابراهيم عليه السلام وقت طويل نسبيا منذ أن أودع وليده اسماعيل عليه السلام مكة حتى بلغ مبلغ الرجال وتزوج امرأة من جرهم بعد وفاة والدته • ويبدو أن سيدنا ابراهيم عليه السلام عاوده الحنين والشوق لرؤية ولده اسماعيل ، عليه السلام وليوجهه توجيه الأنبياء •

ولذلك فانه عندما زاره فى المرة الأولى وأحس أن زوجته من النوع الذى لا يرقى الى مستوى مصاحبة الأنبياء والصالحين • سارع بتقديم النصيحة المخلصة له باتخاذ زوجة أخرى ترقى الى هذا المستوى وتلك النصيحة على وجازتها تشبه الشفرة التى يرسلها الخبير الى خبير مثله لينجز من خلالها مهمة خطيرة تتعلق بها مصائر وتناط بها مصالح ولذا فان صنيع ابراهيم عليه السلام يعتبر درسا لكل والد ، ولكل من له حق الولاية ألا يمل من تدريب الأبناء ومن هم تحت رعايته على النظرة المستقبلية للأسرة ، وما تثمره طبيعة العلاقات القائمة فعلا حسب نوعها ، والافادة من النصح والخبرة معا ليكونا تحت بصر الأبناء وقاية من الزلل وعصمة من الانحراف •

وأهم ما يقدمه الوالدان فى هذا المجال هو المنهج الاسلامى الأزلى فى اختيار الزوجة وانتقاء العشيرة •

الأمر الذى يجعل الأجيال السابقة وخبرتها تحت تصرف الأبناء وعاملا من أهم العوامل لبقاء الاستقامة ونفى ما يحوم حولها من دوافع العوج وبواعث الانحراف • وذلك يكون بالنصح الخالص والأسوة السلوكية وابراهيم عليه السلام مع ما قدمه من النصح لولده لم يكتف بهذا بل تابع ثمرة النصيحة ومدى استفادة ولده بها فرتب زورة أخرى الى ولده وحادث زوجته الجديدة حتى اطمأن الى مستقبل ولده معها وعند ذلك قدم النصيحة الأخرى بتوجيه ولده الى المكث مع هذه الزوجة التى رضيها واطمأن على مستقبل ولده معها ، وأن المواصفات التى أرادها الله لاسماعيل بنقله لتلك البيئة لن تتأثر الا التأثر الحسن والاستفادة بالحميد من مواريث صفات الزوجة التى ستصبح أما لأبناء اسماعيل •

الموقف الثالث من مواقف الوراثة :

سلامة العوامل الوراثية حتى العصر المباشر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

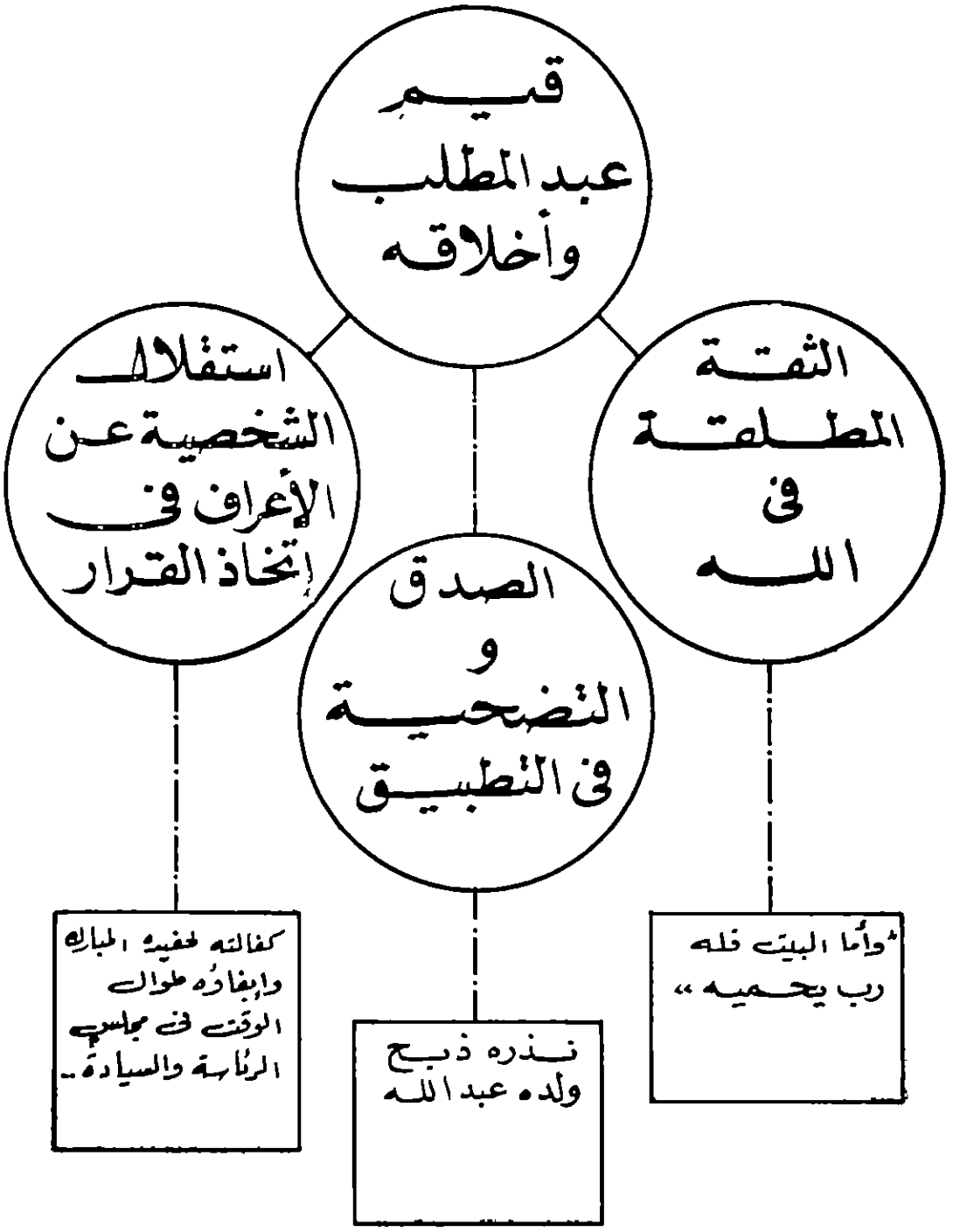

قيـــم عبـــد المطلـــب وأخـــلاقه

اذا تجاوزنا التفصيل الى الاجمال أمكننا أن نتصور بيقين أن هـــذه العـــوامل الوراثية الكريمة ظلتمرعية فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، لنقول كما قال ابن هشام :

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف ولد آدم حسبا وأفضلهم نسبا من قبل أبيه وأمـــه صلى الله عليه وسلم •

فهذا هو جده المباشر (عبد المطلب) يلى سيادة العرب بعد عمه (المطلب) الذى كان كمـــا تروى أصح السير :

« ذا شرف فى قومه وفضل ، وكانت قريش انما تسميه : (الفيض) لسماحته وفضـــله » (١) أما (عبد المطلب) نفسه فيقول عنه ابن اسحاق :

« ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمـــه المطلب فأقامهمـــا للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم » (٢)

وشواهد قيم عبد المطلبودلائل ثقته بالله أشهر من أن تذكر فهو صاحب القول المعروف : أمـــا الابل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه وقد ظلت قيم عبد المطلب وحكمته موضع اعجاب المؤرخين واكبار الباحثين وهذه هى بعض النماذج من آرائهم :

أرســـل أبرهة رجالا من الحبشـــة الى مكة على خيل معـــه فأصابوا منها أموالا كثيرة وفيها مائتا بعير لعبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد المطلب يومئذ سيد قريش

فى وسط هذا الجو القـــاتم الذى ينذر بالشر لم يكن فى استطاعة عبد المطلب أن يتصدى للغزاة لأن الذين قاوموا قبله لم يفلحوا أمام جند أبرهة •

وهنا تبدو حكمة عبد المطلب وايمانه بالبيت العتيق وأن له ربا يقدر على صيانته وحفظه•ثمان أبرهة أخذ يستعرض الأموال التى جلبها له جنده من مكة وقرر أن يلعب دورا سياسيا يصل به الى هدفه الأصيل وهو هدم البيت دون قتال فأرسل لذلك رسولا من قبله يسأل عن سيد مكة ليقول له • ان أبرهة لم يأت لحربكم وانما أتى لهدم ذلك البيت فان لم تتعرضوا لنا دونه فلا حاجـــة لنا الى قتالكم وطلب أبرهة من رسوله أن يأتيه بسيد مكة ليتفاهما فى الأمر •

---

(١) ، (٢) سيرة ابن هشام بشرح الروض الانف ج١ ص ٢٥٨ ، ٢٦٥

وحين وصل رسول أبرهة الى مكة سأل عن سيدها فقيل له انـــه عبد المطلب بن هاشم فجـــاءه وأخبره بمقالة أبرهة .

قال عبد المطلب

والله لا نريد حربه . هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله عليه السلام فان يمنعه منه فهـــو بيته وان يخلى بينه وبينه فما نحن عنه بمدافعين قال له الرسول : انطلق معى الى الملك فانطلق معه عبد المطلب حتى اذا كان بالمعسكر انطلق مع سائق الفيل الى أبرهة ليدخله عليه فقـــال سائق الفيل لأبرهة . ان هذا الرجل سيد قريش وهو صاحب الأبل فأذن لـــه عليك فأذن أبرهة لعبـــد المطلب فى الدخول فدخل ، وكان عبد المطلب رجلا وسيما تفرض رؤيته احترامه واجلاله فلما رآه أبرهة أجله وعظمه ونزل عن سريره وجلس مع عبد المطلب على بساط واحد وقال لترجمانه قل له ما حاجتك ؟

فقال الترجمان لعبد المطلب ذلك . فقال عبـــد المطلب . حـــاجتى أن يرد على الملك ابلى التى أصابها من مالى فنقل الترجمان ذلك الى أبرهة .

فقال أبرهة لترجمانه :

قل له : لقد أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين سمعت مقالتك . أتكلمنى على مائتى بعير أصبتها لك ولا تكلمنى فى شأن بيتك وبيت آبائك

فقال عبد المطلب : أما الأبل فانا صـــاحبها ، وأما البيت فله رب يحميه ، فرد أبرهة على عبـــد المطلب ابله ورجع بها وأخبر قريشا بذلك وأمرهم بالخروج من مكة والتحصن فى شعب الجبال وأما عبد المطلب فأنه أمسك بحلقة باب الكعبة وجعل يقول

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
جاءوا اليك بجمعهم والفيل كى يسبوا عيالك
لايغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
ان كنت تاركهم وقبلتنا فأمر مابدالك (١) .

وقال الشيخ محمد الصادق عرجون وهو يتحدث عن الموضوع ذاته

أما الحادث الثانى فى حياة عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حادث أصحاب الفيل فقد كان عبد المطلب هو صاحب كلمة قريش وزعيم مكة وسيدها الناطق عنها ، وله مع أبرهة

---

(١) من السيرة العطرة . للشيخ محمد الاخيار ص ٢٤ ـ ٣٦

قائد جيش الفيل موقف غريب فى ظاهره ، بيد أنه كان حكمة وكياسة فى حقيقته ، وهذا الموقف يصور طبيعة المسالمة فى عبد المطلب خاصة وقريش عامة ، ومن هنا كانت خصيصة عبد المطلب فى قريش وشرفه وسيادته عليهم — فليست قريش من مشاعر الحروب فى العرب ، ولم يعنون لها التاريخ فى أيام حروب الجاهلية الا بما الجئت اليه الجاءة ولم يكن ذلك عن ضعف فيها أو جبن عن لقاء أقرانها ولكن طبيعة حياتها فى حرم الله وجوار بيته هى التى صنعتها على هذه الصورة المسالمة وكذلك لم يكن سيدها عبد المطلب بن هاشم من رجالات الحروب وأبطال الغزو والقتال بل كان رجل سلم وسلام ، لأنه شيخ الحرم الذى يأمن فيه الخائف فلا يهاج ، وينتصف فيه من الظالم للمظلوم • وقد غلبت هذه الطبيعة على قريش وعلى شيخها عبد المطلب فى موقفهم من أصحاب الفيل فهذا جيش جاء لغزو مكة وهدم بيتها المحرم وقريش سادنة البيت وصاحبة مجده وعبد المطلب شريف قريش وسيدها ، فلا كان من قريش ولا كان من عبد المطلب نهوض للحرب ووقوف فى وجه هذا الجيش المهاجم ليصدوه عن بلدهم وبيتهم ، كما وقف فى وجهه قبائل من العرب مر بها فى طريقه فعرفت وجهته فحاربته وهزمها ، ومضى فى طريقه الى هدفه حتى دنا من مكة وتسامعت قريش وعبد المطلب بأخباره وعدده فقالوا : لا طاقة لنا بحربه وأشار عبد المطلب الى قومه بالخروج من مكة واخلائها صيانة لهم من عبث الجيش ومعرته فلجأوا الى شعف الجبال تاركين البيت لرب البيت يحميه ويمنعه • لأن التعرض لحرب هذا الجيش انما هو انتحار على أبشع صورة يسوق اليها التهور المغرور • وكان عبد المطلب فى رأيه هذا أكيس من رجل يدفع بقومه الى الانتحار فى غير طائل فسالم وخلص قريشا فلم يصبها ما أصاب غيرها من القبائل المتعرضة لهذا الجيش الكثيف •

وقدر عبد المطلب فى نفسه أن الله رب البيت سيحمى هذا البيت • وراح فى قومه قبل أن يخرجوا عن مكة يدعون الله ويستنصرونه لبيته وحرمه • فلما جاء الله بنصره وأنزل نقمته على أعداء حرمه وبيته عرفت العرب لقريش هذه المكانة فقالوا : انهم أهل الله وجيران بيته يحامى عنهم وازدادت مكانة عبد المطلب رفعة عند قومه لأنه انقذهم وصان حرمتهم وذاع صيته وصيت قريش فى أرجاء الجزيرة وتداول الناس الحديث عن عبد المطلب وعن أبنائه وقومه فى قبائلهم وبيوتاتهم ومحافلهم وأسواقهم ، وما صنع الله لهم ، وقد اتصل ذلك بحديث ميلاد حفيد عبد المطلب محمد صلى الله عليه وسلم ابن ولده الحبيب عبد الله ،وهذا الاتصال ربط ذلك الحادث بسيرة وتاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة تجلت فى الامتنان عليه وعلى قومه وأمته بما صنع الله له ولبيته العتيق فصانه وصان أهل جواره من عبث الغزاة وفجورهم ورد عليهم كيدهم فى نحورهم وأهلكهم هلاك استئصال بما لم تجربه عادة الناس فكان ارهاصا لمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبعثته • وأنزل الله فى ذلك سورة من سور القرآن الكريم سجل فيها هذا الحـــادث خاصـــة أروع تسجيل فى أوجز عبارة وأوضح أسلوب ــ فقال تعالى

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول (١) •

وهناك موقف آخر تذكره كتب السيرة ، يدل على صـــدق ايمان عبد المطلب ، وقوة عقيـــدته وهو موقف النذر الشهير ، ولا نرى بأسا بذكره هنا لدلالته بصورة مجملة مبسطة بعيدة عن الالتواء والتعقيد •

---

(١) محمد (صلى الله عليه وسلم) من نيعته الى مبعثه لمحمد محمد الصادق عرجون ص ١١٥ ــ ١١٨ ط البحوث الاسلامية

عبد المطلب ينذر ذبح ولد من أولاده

قال ابن اسحاق : وكان عبد المطلب فيما يزعمون والله أعلم ، قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم — لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعونه • جمعهم ثم أخبرهم بنذره • ودعا الى الوفاء لله بذلك فأطاعوه ، وقالوا : كيف نصنع ؟ قال ليأخذ كل رجل منكم قدحا ، ثم يكتب فيه اسمه ثم أئتونى ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة •••

فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذى نذره ، فأعطاه كل واحد منهم قدحه الذى فيه اسمه ، وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه

قال ابن اسحاق :

وكان عبد الله ، فيما يزعمون ، أحب ولد عبد المطلب اليه وكان عبد المطلب يرى أن السهم اذا أخطأه فقد أثوى ، أى أبقى وهو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد الله • فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل الى أساف ونائلة (١) ليذبحه فقامت اليه قريش من أنديتها ، فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : أذبحه ، فقالت له قريش وبنوه : والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم • وكان عبد الله ابن اخت القوم — والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه فان كان فداؤه بأموالنا فديناه — وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل ، وانطلق به الى الحجاز فان به عرافة لها تابع فسلها • وأنت على رأس أمرك : أن أمرتك بذبحه ذبحته وان أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته • فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها فيما يزعمون بخيبر فركبوا حتى جاءوها فسألوها • وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه وما أراد به ، ونذره فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله • ثم غدوا عليها فقالت لهم كما جاء فى الخبر، كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الابل وكانت كذلك • قالت :

فارجعوا الى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الأبل ثم اضربوا عليه وعليها القداح

---

(١) صنمان كانا فى الحرم .

فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم ، فان خرجت على الابل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ، فخرجوا حتى قدموا مكة فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشرا من الابل وعبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عزوجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الأبل فبلغت الأبل عشرين وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرا من الابل فبلغت الابل ثلاثين وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرة من الابل فبلغت الابل أربعين وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الأبل فبلغت الابل خمسين وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا فبلغت الأبل ستين وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الأبل فبلغت الأبل سبعين وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الابل فبلغت الابل ثمانين وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الابل فبلغت الابل تسعين وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الأبل ، فبلغت الأبل مائة وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الابل فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب ، فزعموا أن عبد المطلب قال لا والله ، حتى أضرب عليها ثلاث مرات فضربوا على عبد الله وعلى الابل ، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الابل ، ثم عادوا الثانية ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الابل ، ثم عادوا الثالثة . وعبد المطلب قائم يدعو الله . فضربوا فخرج القدح على الابل : فنحرت ، ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا يمنع قال ابن هشام ويقال : انسان ولا سبع (١) .

وقد يكون فى جزئيات هذا الحدث كما يرويه ابن اسحاق — ما يمكن التردد فى قبوله ، لكن الأمر الثابت من خلال كل الروايات فى هذا الموضوع يفيد ثبوت النذر ، كما يفيد شدة ايمان عبد المطلب وقوة ثقته فى الله — عز وجل — وهو أمر موروث عن آبائه من لدن آدم عليه السلام — الى ابراهيم ، ثم اسماعيل عليهما السلام .

وهذا وحده يكفى فى الدلالة على الغرض الذى سقنا هذا الحدث من أجل اثباته .

---

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام جـ١ ص ١٦٤ — ١٦٨ باختصار

تعقيب على هذا الموضوع :

قلنا ان خط الكمال الوراثى لم ينقطع أبدا بين ابراهيم خليل الله وبين محمد خاتم النبيين ، اذ لم تسقط منه حلقه ولم تحل منه عروة ، فلو أنك استعرضت سيرة آبائه وأجداده لما وجدت الا خيارا من خيار فما هو ذا عبد المطلب بن هاشم الجد المباشر لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنتهى اليه مفاخر العرب • ويقتعد فى قريش مكان الصدارة والرياسه بما حازه من دماثة الخلق ومتانة العقيدة وجلال الطلعة ومهابة الميسم فارتضوه جميعا حكما ترضى حكومته ، وزعيما يرتضون توجيهاته ، وفوق ذلك صفاء نفس وروح كان يجذب اليه كل من يحادثه أو يقاربه ، لقد نذر لله أحد أبنائه ولما حان وقت التنفيذ لم تغلبه عاطفته المشبوبة نحو أحب أبنائه ولم تحل بينه وبين وفائه بنذره وان كان ابنه الأثير يقدمه قربانا لله حسبما كان يعتقد ، اننا حين نحاكمه بظروف عصره ووقته وبيئته لا نتراجع أبدا أن نحكم له بالشجاعة النفسية الفائقة والعقيدة الدينية الراسخة والمثل العليا التى كان يحياها ويسير بمقتضاها ، فاذا ضممنا الى ذلك موقفه من ابرهة حينما وقف على مشارف مكة يزمع اقتحامها ليبر بقسمه المشئوم ، استبان لنا من خلال ذلك الموقف مواصفات زعيم قد حنكته التجربة ، وحكيم لا تسكت العواطف المشبوبة فيه صوت العقل الرصين،وكذلك يتراءى لنا ايمانه العارم بالله وقداسة البيت وأن خطة أبرهة فاشلة ، وتدابيره بائرة ، لقد استكن كل ذلك من وراء التصريح المقتضب عند ما رأى أمارات الدهشة تلوح على وجه ابرهة حين لم يفاتحه فى شأن البيت ، وفقط فاتحه فى شأن ابله التى استاقها مع ما استاقه من ابل قريش وأنعامها •• لقد قال لأبرهة فى نبرة لا يقربها جبن ولا انهزام : « أما الأبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه » وهو تهديد يسوقه عبد المطلب الى أبرهة بمحقه وجيشه لا على يد جيش بشرى متمثل فى قريش أو غيرهم فلقد تصدى لأبرهة على طول الطريق قبائل عربية لكنه هزمهم جميعا فلم يبق الا الجولة الأخيرة بينه وبين قريش ويصل الى منيته فى هدم البيت الحرام لكن تهديد عبد المطلب كان أكبر من ذلك فانه هدده ببطش رب البيت نفسه وهو انتقام لوحدث فان أبرهة لا يجد منه محيصا أرأيت ايمانا أكبر من هذا وثقة فى الله تفوق هذه ،واعتقادا ونسبة صحيحة بين البيت وربه تجعل الرب يغار عليه ويحمى حماه لكن منافذ العقل والدين معا كانا مغمورين بغرور أبرهه وبعده السلوكى عن دينه النصرانى فلم يثمر هذا التهديد فكان ما كان • وكأن كل هذه القيم والأخلاق قد حشدها الله عز وجل فى نفس عبد المطلب حتى اذا ما كفل حفيده المبارك كانت معينا يغترف منه ويتأثر به وقد صادفت فطرة فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم لتجانسها مع أخلاقه فكانت رباطا عاطفيا بين الجد والحفيد كان له دور عظيم فى تربية الحفيد وتلوين مشخصات ذاته صلى الله عليه وسلم

وكانت خلال رسول الله وسلوكياته قد ملأت نفس عبد المطلب اعجابا وتفاؤلا فرأى فيه مخايل النجابة وكياسة الحكمة ومعالم الرجولة المبكرة مما جعله يتخطى الأعراف والتقاليد التى كانت تسود أم القرى فيسمح له على صغر سنه بمجالسته بل وسبقه الى فراشه وتكرمته فاذا ما أسرع بعض أعمامه لمنعه خضوعا للالف نهاهم وبرر نهيه ذلك بأنه يلمح فيه بداية مستقبل عظيم ، وبذلك نمت شخصية الرسول نموا طبيعيا سويا لا أثر فيه للعقد ، وفتح له المجال واسعا ، وأقيمت له الفرصة كاملة لجعله يكتسب المعارف والقيم بطريقة ذاتية

ملخص مواقف الوراثة السابقة والآثار الناتجة عنها

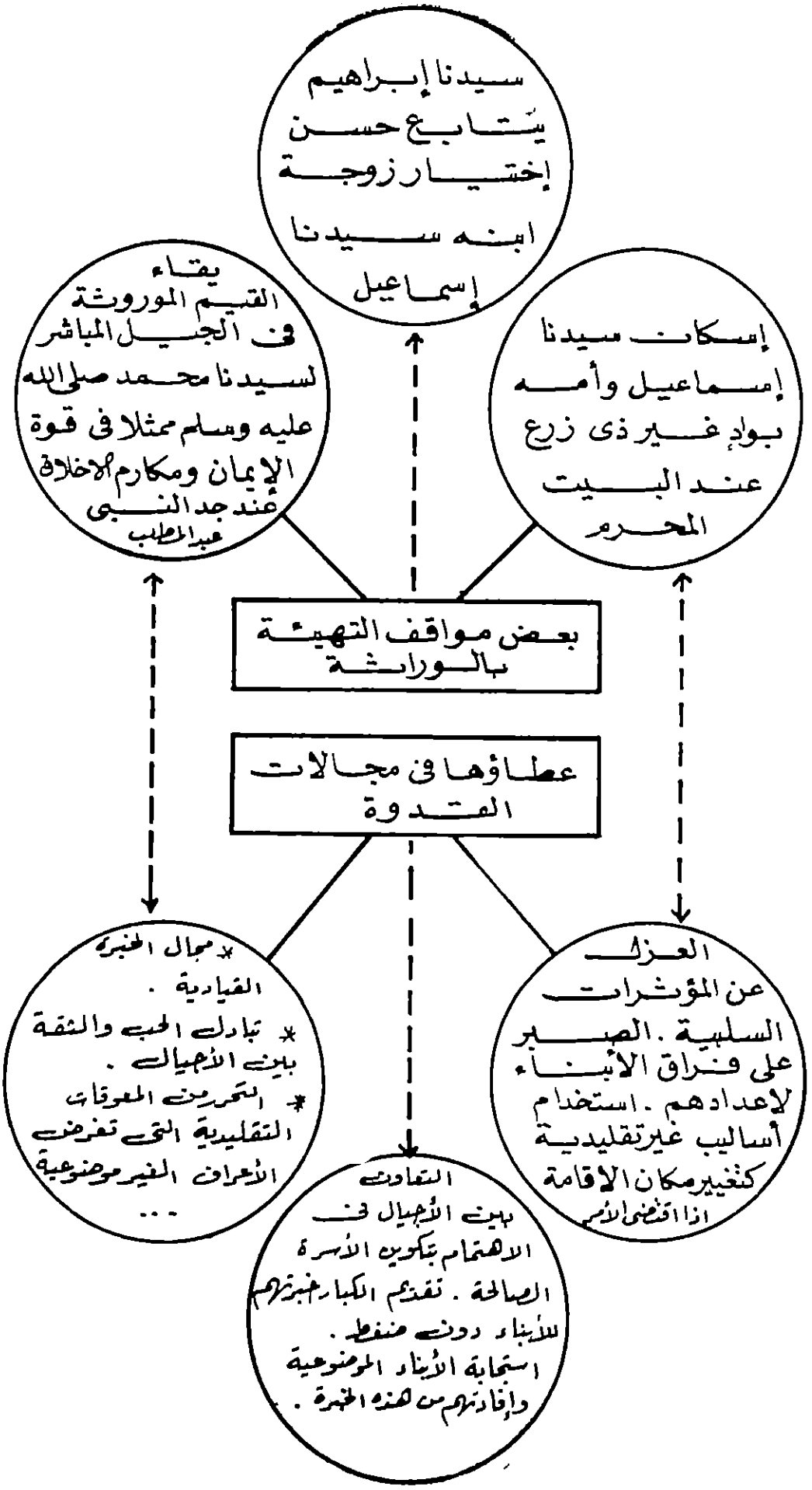

الفصل الثاني

عوامل البيئة ومعطياتها

مواقف البيئة ومعطياتها

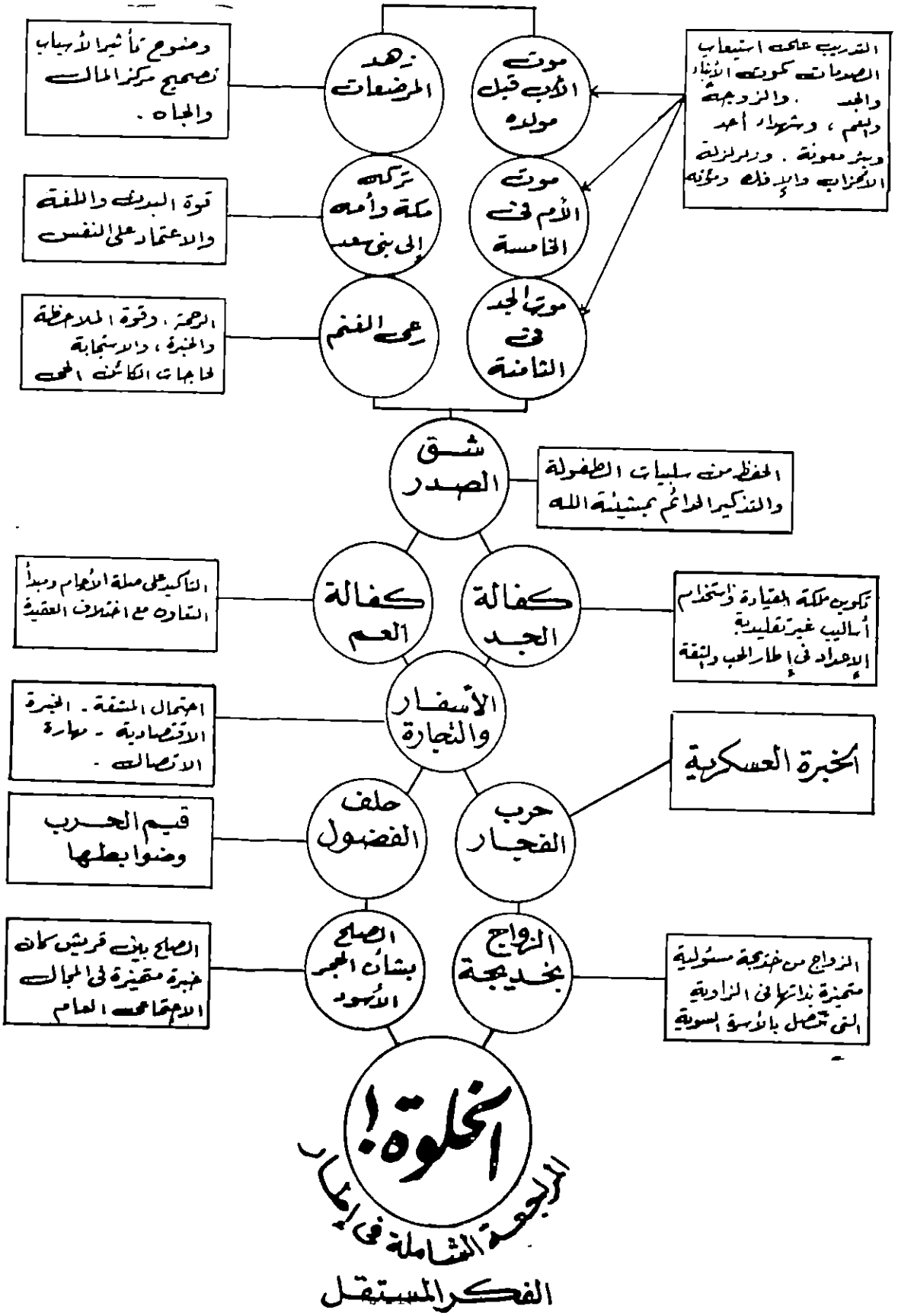

محتـــويـــات

(الفصـــل الثـــانى)

١ ــ أرقى مراتب اليتم ٠

٢ ــ زهد المراضع فى اليتيم المبـــارك ٠

٣ ــ البعد عن الأم والوطن٠

٤ ــ رعـــى الغنـــم ٠

٥ ــ شـــق الصدر ٠

٦ ــ صحبته لجـــده ٠

٧ ــ الأسفار ورحلات التجـــارة ٠

٩ ــ حـــرب الفجـــار

١٠ ــ حلف الفضـــول ٠

١١ الزواج من السيدة خديجة رضى الله عنها ٠

١٢ ــ الصلح بين القبـــائل فى حادثة الحجر الأسود ٠

١٣ ــ الخـــــلوة ٠

لقد هيأ الله ــ سبحانه وتعالى ــ نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل البعثة بمواقف خاصة كان لها فى مستقبل الدعوة الاسلامية آثارها القوية • ومن أهم هذه المواقف التى كان لها هذا المردود ــ من وجهة نظرنا ــ ما يلى :

١ ــ ظاهرة اليتم بوفاة الأب والأم والجد فى طفولته ــ صلى الله عليه وسلم ــ المبكرة جدا ، وقد أدى هذا الى تدريب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ منذ نعومة أظفاره على تحمل الصدمات القاسية التى واجهته وواجهت دعوته بعد ذلك ، كموت زوجته وعمه أحوج مايكون الى جهدها ووفاة أولاده جميعا ــ ماعدا فاطمة ــ أثناء حياته صغارا وكبارا ، واستشهاد أصحابه خلال تعذيب المشركين لهم مثل ياسر وزوجته سمية ، وشهداء بئر معونة ، أو استشهادهم فى المعارك مثل عمه حمزة ، وشهداء مؤتة وغيرها •

٢ ــ موقف نشأة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعيدا عن مكة وفيها أهله ، واقامته فى مضارب بنى سعد • وقد أثر ذلك فيه ، فنشأ قوى البدن ، فصيح اللسان ، معتمدا على نفسه ، ولاغرو فقوة البدن ضرورة للواجبات التى تتطلبها الدعوة ، واللغة كانت موضع التحدى ، والاعتماد على النفس من لوازم القيادة •

٣ ــ صحبته لجده ثلاث سنوات يجلس على فراشه فى مجلس السيادة ، حيث يرى أسلوب جده فى ريادة المجتمع وقيادته ، مما كان له أثر كبير فى اكتسابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ملكة التوجيه والقيادة ، فنشأ مطبوعا معدا لمهمة رعاية أمته وسياسة شئون الناس ورعايتهم •

٤ ــ وفى موقف أسفاره ــ صلى الله عليه وسلم ــ واشتغاله بالتجارة فى سن مبكرة ، وما يستلزمه من خبرة ومهارة وقدرة على تحمل المشقات ، أثر عظيم فى تنمية مهاراته ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الاتصالات ، وزيادة خبراته الاقتصادية ، وتعوده المشقات •

٥ ــ وفى موقف اشتراكه بحلف الفضول ، ومشاهدته حرب الفجار ، ما أكسبه الخبرة العسكرية مع مايجب لها من ضوابط تعصمها من التجاوز والعدوان ، وتوجهها لنصرة الحق والخير •

٦ ــ وفى كفالة عمه أبى طالب له ، وتبادل العواطف الصادقة بينهما ، وتبادل المصالح فى تعاون وحب ، ترسيخ لمبدأ البر بالأرحام ، واستمرار هذه الصلة بعد النبوة لاقرار مبدأ التعاون مع اختلاف العقيدة •

٧ — وفى موقف الصلح بين قريش فى خلافهم على الحجر الأسود ، وموقف زواجه من خديجة خبرات اجتماعية هامة • ففى الصلح بين قريش ما أكسبه خبرات اجتماعية عامة ، وفى زواجه من خديجة ما أكسبه خبرات اجتماعية خاصة •

٨ — وفى موقف الخلوة للتأمل المركز والمراجعة الشاملة للقيم والمعارف والصلة بالله وبالناس ما أكسبه — صلى الله عليه وسلم — تكاملا وتوازنا شكلا فى دين الاسلام ميزة مطردة ، فى كل عباداته ومعاملاته ومناهجه •

وفى الرسم التالى ما يوضح هذه المواقف ومردوداتها المستقبلية فى سير الدعوة الاسلامية • ثم يلى ذلك تفصيل لهذا الاجمال — ان شاء الله •

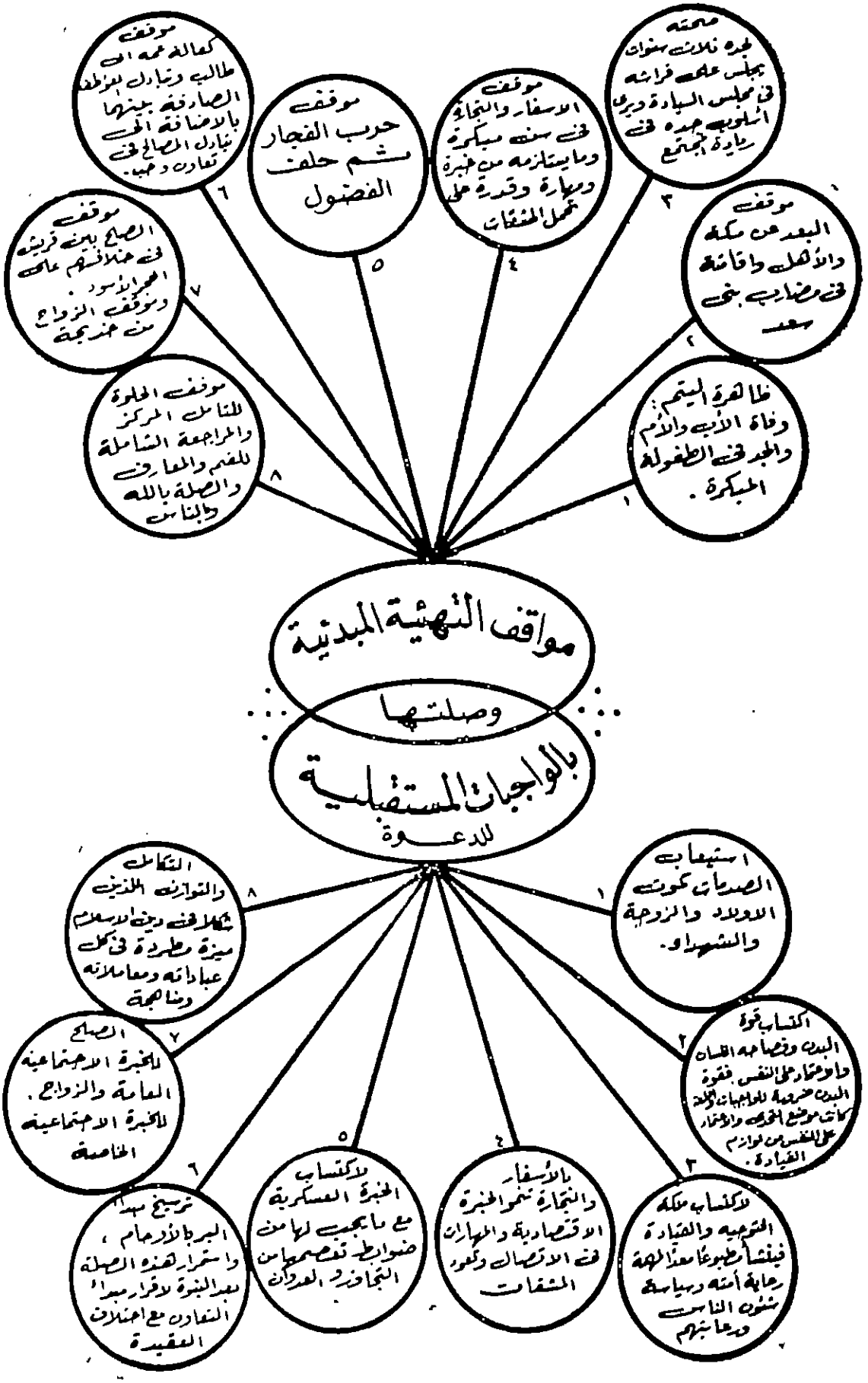
مواقف التهيئة المبدئية
وصلتها
بالواجبات المستقبلية
للدعوة
١ ظاهرة اليتم: وفاة الأب والأم والجد في الطفولة المبكرة.
٢ موقف البعد عن مكة والأهل وإقامته في مضارب بني سعد
٣ محنته لمدة ثلاث سنوات يجلس على فراشه في مجلس السيادة وبرغم أسلوب حياته في ريادة المجتمع
٤ موقف الأسفار والتجارة في سن مبكرة وما يستلزمه من خبرة ومهارة وقدرة على تحمل المشقات
٥ موقف حرب الفجار ثم حلف الفضول
٦ موقف كفالة عمه أبي طالب وتبادل العواطف الصادقة بينهما بالإضافة إلى تبادل المصالح في تعاون وحب.
٧ موقف الصلح بين قريش في خلافهم على الحجر الأسود. وموقف الزواج من خديجة
٨ موقف الخلوة للتأمل المركز والمراجعة الشاملة للعلم والمعارف والصلة بالله وبالناس
١ استيعاب الصدمات كموت الأولاد والزوجة والشهداء.
٢ اكتساب قوة البدن وفصاحة اللسان واعتماد على النفس. فقوة البدن ضرورية للواجبات الأولى كأداء موضع الحرب والاعتماد على النفس من لوازم القيادة.
٣ الاكتساب ملكة التوجيه والقيادة فيلتفت مطبوعاً بعد الهجرة رعاية أمته وسياسة شئون الناس ورعايتهم
٤ بالأسفار والتجارة تنمو الخبرة الاقتصادية والمهارات في الاتصال وكسب الشقات
٥ بالاكتساب الخبرة العسكرية مع ما يجب لها من ضوابط تقتضي من التجاوز والعدوان
٦ ترسيخ مبدأ البر بالأرحام، واستمرار هذه الصلة بعد البعثة لاقرار مبدأ التعاون مع اختلاف العقيدة
٧ الصلح للخبرة الاجتماعية العامة والزواج. للخبرة الاجتماعية الخاصة
٨ التكامل والتوازن اللذين تخلا في دين الإسلام ميزة مطردة في كل عباداته ومعاملاته ومناهجه

الموقف الأول من مواقف البيئـــة :

التهيئة لاجتياز صدمات المستقبل بأرقى مراتب اليتم في قـوة وصـــبر ورباطـة جأش

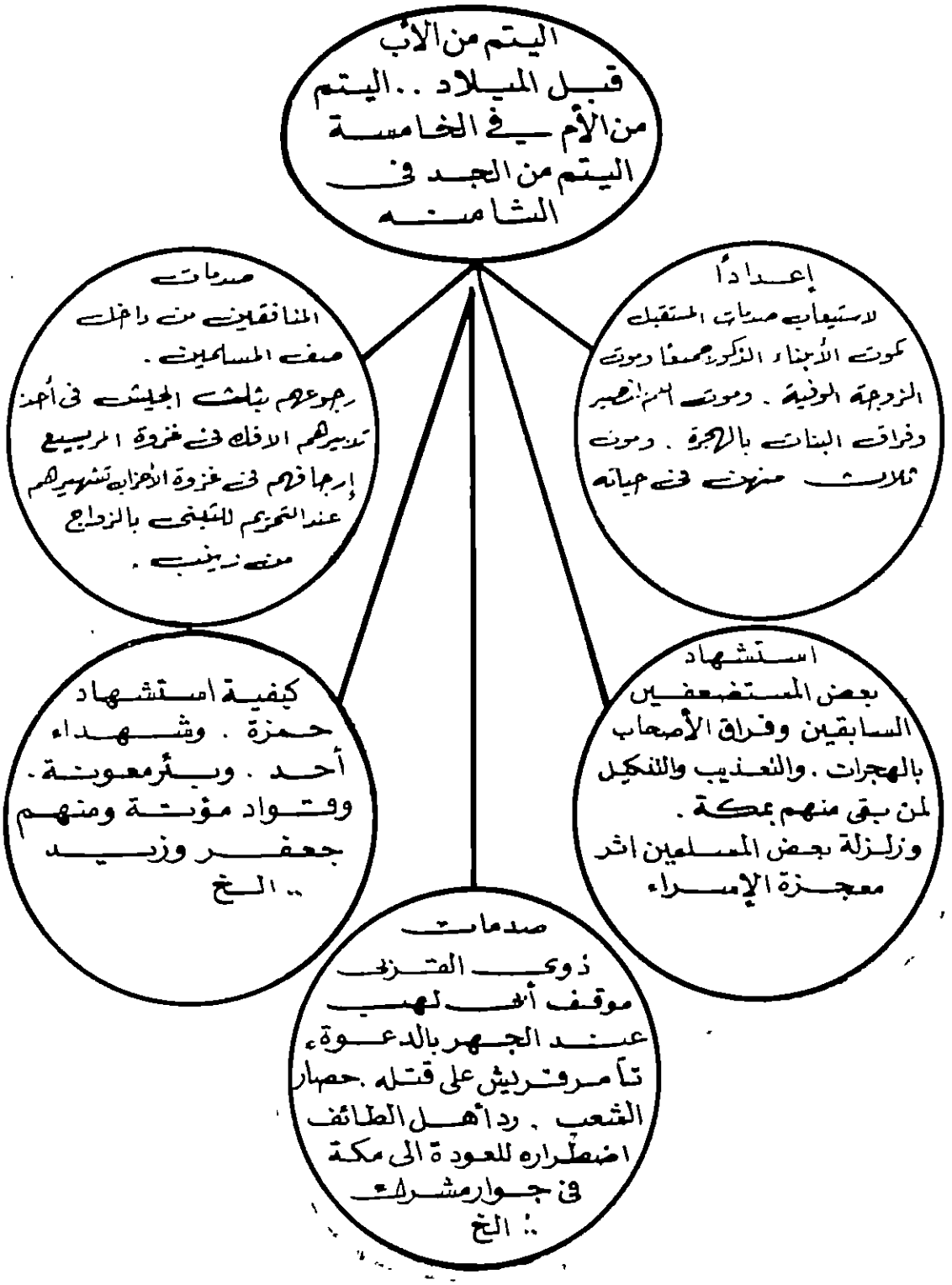

البيئـــة

مراحل التربية الأولى وتأثيرها فى المستقبل

مضت حياة سيدنا رســول الله صلى الله عليه وسلم منذ اللحظات الأولى لمولده المبارك فى طريقها على عين الله وسمعه ، وأول ما يطالعنا من المعالم التى قد يتنافى ظاهرها مع مكانة الطفل المبارك عند ربه :

ظاهرة (اليتم) حيث توفى والــده وهو ــ صــلى الله عليه وسلم ــ فى بطن أمه على أرجح الأقوال ، ثم لحقت أمه به ولما يجاوز السادسة ثم توفى جده وهو فى الثامنة • وتفصيل ذلك فى كتب السير ، نجتزى منها هذه الشذرات :

وفـــاة والـــده

يقول الحافظ ابن كثير : « والمقصود أن أمه حين حملت به توفى أبوه عبد الله وهو حمــل فى بطن أمه على المشهور • قال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمر ــ هــو الواقدى ــ حدثنا موسى ابن عبيدة اليزيدى، حدثنا سعيد بن أبى زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة • قال : خرج عبد الله بن عبد المطلب الى الشــام الى غزة فى عير من عيران قريش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجاراتهم ، ثم انصرفوا فمــروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض ، فقال أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار فأقام عندهم مريضا شهرا ، ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فســألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله ، فقالوا خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجــار وهو مريض ، فبعث اليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة (٢) فرجع الى أبيه فأخبره ، فوجد عليه عبد المطلب واخوته وأخواته وجدا شديدا ، ورسول الله صلى الله عليه وســلم يومئذ حمل ، ولعبد الله بن عبد المطلب يوم توفى خمس وعشرون سنة •

قال الواقدى : هذا هو أثبت الأقاويل فى وفاة عبد الله وسنه عندنا • قال الواقدى : وحدثنى معمر عن الزهرى أن عبد المطلب بعث عبد الله الى المدينــة يمتار لهم تمرا فمات • قال محمــد بن سعد : وقد أنبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه وعن عوانة بن الحكم ــ قالا : توفى عبد الله بن عبد المطلب بعد ما أتى على رسول الله صلى الله عليه وســلم ثمانية وعشرون شهرا ، وقيل سبعة أشهر • وقال محمد بن سعد : والأول أثبت وهو أنه توفى ورسول الله صلى الله عليــه وسلم حمل » (٣) •

---

(١) من الآية : ١٢٤ من سورة الأنعام

(٢) النابغة بالغين : أما دار التبابعة فهى بمكة وهى التى ولد بها النبى عليه السلام •

(٣) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ . ويقصــد ابن ســعد بن ماذكرته هذه الرواية فى (ثانيا) بصيغة التمريض هو الاثبت عند كتاب السيرة وهو الأولى عنده •

وفـــاة أمـــه

أما وفاة أمه صلى الله عليه وسلم وهو فى السادسة من عمره المبارك فان الامام ابن كثير يروى عن ابن اسحاق أنه قال بعد ذكر رجوعه عليه الصلاة والسلام الى أمه آمنة بعد رضاعة حليمة له : « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب يوجده عبد المطلب فى كلاءة الله وحفظه ينبته الله نباتا حسنا ، لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب .

قال ابن اسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنة توفيت وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره اياهم ، فماتت وهى راجعة به الى مكة .

وقد قال الامام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا أيوب بن جابر عن سماك عن القاسم بن عبد الرحمن عن ابن بريدة عن أبيه قال : خرجنا مع رســـول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا كنا بودان قال : « مكانكم حتى آتيكم » ، فانطلق ثم جاءنا وهو ثقيل ، فقال : « انى أتيت قبر أم محمد فسألت ربى الشفاعة ـــ يعنى لها ـــ فمنعنيها ، وانى كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، وكنت نهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاثة أيام فكلوا وأمسكوا مابدا لكم ، ونهيتكم عن الأشربة فى هذه الأوعية فاشربوا مابدا لكم » .

وقد رواه البيهقى من طريق سفيان الثورى عن علقمة بن يزيد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : انتهى النبى صلى الله عليه وسلم الى رسم قبر ، فجلس وجلس الناس حوله ، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى ، فاستقبله عمر فقال ما يبكيك يارسول الله ؟ قال : « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى أن أزور قبرها فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فأبى على ، وأدركتنى رقتها فبكيت » . قال فما رؤيت ساعة أكثر باكيا من تلك الساعة . تابعه محارب بن دثار عن بريدة عن أبيـــه (١) .

وفـــاة جـــــده

أما وفاة جده صلى الله عليه وسلم فقـــد أوردها صاحب البداية والنهاية فى رواية تحدد سن الطفل المبارك عند وفاة والده ووالدته وجده فيقول :

وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن حسن عن عبد السلام عن ابن خربوذ قال :

« توفى عبد الله بالمدينة ورسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ابن شهرين ، وماتت أمه وهو ابن أربع سنين ، ومات جـــده وهو ابن ثمانى سنين فأوصى به الى عمـــه أبى طالب . والذى رجحه الواقدى وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصـــلاة والسلام توفى أبوه وهو جنين فى بطن أمه وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه » (٢) .

---

(١) السنن الكبرى للبيهقى جـ ٤ ص ٧٦ باب زيارة القبور مع اختلاف يسير فى اللفظ ، دار الفكر بيروت

(٢) البداية والنهاية جـ٢ ص ٢٨٦

وظاهرة اليتم فى هذه السن المبكرة بتلاحقها وتعددها فى صور شتى تشكل جميعها صدمات قاسية ، فصورة (اليتم) فى أول عهد محمد به كانت على النحو الذى وصفته الرواية السابقة بأنه أبلغ اليتم وأعلى مراتبه ، اذ يتلفت الطفل أول ما يتلفت لادراك الحياة يناغى أباه فلا يجده دون كل الأطفال المحيطين به •

والصدمة الثانية كانت فى فقدان أمه وهو وحيد غريب بالطريق بين مكة والمدينة ، رحلت عنه وتركته فى الوقت الذى كانت تريد أن تبذل له كل ما افتقده من اشباع عاطفة الأمومة منها طوال فترة السنوات التى مكثها فى مضارب بنى سعد •

والصدمة الثالثة حين فارقه جده بعد أن ارتبط به ارتباطا عاطفيا لم تعرف العرب بمثله •

ومع أن ظاهرة اليتم هذه تتنافى فى ظاهرها كما قلنا مع ما عرف من مكانة محمد عند الله ، الا أنها فى حقيقة أمرها اعداد لهذا الطفل المبارك على تحمل الصدمات فى مستقبل حياته مهما كانت قوتها وفداحتها ، وهو أمر حتمى فى مستقبل الدعوة والداعية حين يبتلى فى نفسه وأهله والمؤمنين به بدءا من التعذيب والاضطهاد وانتهاءا بفقد أحبابه بالموت والاستشهاد •

ولعل فى ثنايا شذرات النصوص الموجزة التى أسلفناها نرى لمحة خاطفة من مردود هذا الاعداد الهائل فى مستقبل الرسول — صلى الله عليه وسلم — ونحن نراه بين خاصة أصحابه وعامتهم وهو يحمل أحزانه فى قلبه حيث لا يعلم من حوله ما الذى أبكاه ، وأى ذكريات تلك التى جعلت أعز الخلق على الله يجهش بالبكاء ، فلا يعلمهم بشىء ضنا بهم عن الأحزان ، واصرارا على احتمال أعبائها وحده حتى يسأله عمر رضى الله عنه فيجيبه النبى صلى الله عليه وسلم عن الأمر الذى أبكاه !! •

الدروس المستفادة

والمتأنى فى مطالعة النصوص السابقة من مواقف السيرة النبوية ، فى مجال التهيئة لاجتياز صدمات المستقبل ، يأرقى مراتب اليتم فى قوة وصبر ورباطة جأش ، حيث هيأه الله — سبحانه وتعالى — لذلك بموت والده قبل أن يولد ، ثم وفاة أمه وهو فى الخامسة من عمره ، ثم لحقها جده ولم يتجاوز النبى — صلى الله عليه وسلم سن الثامنة •

نقول ان المتأنى فى مطالعة هذه النصوص يخرج بالدروس الكثيرة المستفادة فى مجال القدوة البشرية ، ولعل من أهم هذه الدروس ما يلى :

أولا : لقد هيأت هذه الصدمات النبى — صلى الله عليه وسلم — منذ صباه — المبكر وأعدته اعدادا جيدا لاستيعاب صدمات المستقبل المحزنة المزلزلة ، تلك الصدمات القاسية التى تلقاها النبى — صلى الله عليه وسلم — فى صبر جميل • ومن تلك الصدمات :

١ — موت أبناء النبى صلى الله عليه وسلم — الذكور جميعا ، بل ان الله — سبحانه — ابتلاه بفقد ابنه ابراهيم بعد فرحة شديدة به ، فدمعت عينه وقال : « يا ابراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزنا هو أشد من هذا ، وانا بك يا ابراهيم لمحزونون ، تبكى العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » (١) .

٢ — كما تحمل صدمة أعز زوجاته وأقربهن اليه — وأكثرهن مواساة له ، فتجمل بالصبر ، واستعد لملاقاة الشدائد المضاعفة من قومه الذين تجرعوا عليه بوفاتها ووفاة عمه أبى طالب .

٣ — كما تحمل فراق بناته بالهجرة الى الحبشة وبعدهن عنه ، ثم موت ثلاث منهن أمام عينيه ووقف على بعضهن يأمر من يغسلنها بكيفية غسلها ، ثم وقف يدعو لها ويصلى عليها ، وان عينيه لتدمعان عليها (٢) .

ثانيا : — كما أن هذه الصدمات فى الصغر أعدته بطاقة عظيمة من الصبر والتحمل والتجلد عندما كان يرى المستضعفين من أصحابه يعذبون تحت لهيب السياط وحرارة شمس مكة ، وفوق لهيب رمالها ، وعندما يرى ياسر وزوجته سمية وهما يلفظان أنفاسهما الطاهرة البريئة فى سبيل الدعوة (٣) .

٢ — وعندما فارقه كثير من أتباعه رغم قلتهم فرارا بدينهم الى الحبشة ، لأن بها ملكا عادلا . لا يظلم أحد بجواره ، وزيادة موجات التنكيل بمن بقى منهم على أرض مكة يقاسى ويعانى فلا يملك حين يمر بينهم الا أن يقول : « اصبروا فانى لم أومر بقتال » (٤) .

٣ — وتحمل ماحدث لبعض المسلمين من زلزلة واضطراب ، بل وارتداد بعضهم اثر ما حدثهم به من معجزة الاسراء . ونزل فيمن ارتد قوله — تعالى — « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن ، ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا » (٥) .

ثالثا — كما تحمل النبى — صلى الله عليه وسلم — العديد من الصدمات من ذوى قرباه ومن هذه المواقف الشديدة القاسية :

١ — موقف أبى لهب وهو أحد أعمامه عند جهره — صلى الله عليه وسلم — بالدعوة ، فقال له تبالك ألهذا جمعتنا ونزل فيه قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب » (٦) .

---

(١) نقله شهاب الدين التويرى فى نهاية الارب عن الاستيعاب عن ابن عبد البر جـ١٨ / ٢١٠

(٢) السابق ص ٢١٥ وهى ام كلثوم بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ / ٣٢٠

(٤) انظر هامش المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٥) الاسراء آية رقم ٦٠ ، وانظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٩ .

(٦) المسد ١ ، ٢ . والحديث فى البخارى وانظر اسباب النزول للواحدى ص ٢٤٥

٢ ــ ثم تآمر قريش على قتله ، واحتيالهم على ذلك ، حتى يتفرق دمه فى القبائل ، وقد ثبت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ولم يهلع ولم يجزع ، ونزل قــول الله ــ تعالى ــ « واذ يمكــربك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (١) .

٣ ــ وصبره عند حصار قريش له ولأصحابه ولذوى رحمه فى أحد شعاب مكة ، وهو الشعب المعروف بشعب أبى طالب لا يجدون ما يأكلونه ، لا يبتاع منهم أحد ، ولا يبيع لهم . ولا ينكحهم ولا ينكح منهم حتى فرج الله كربته ، وأزال غمته (٢) .

٤ ــ وتحمله لرد أهل الطائف له ، واغراء ســفهائهم به حتى أدموا عقبيه رميا بالحجــارة ، واضطراره حين محاولته دخول مكة بعد عودته من الطائف الى دخولها وهو فى جوار المطعم بن عدى وكان أحد مشركى مكة .

رابعا : ومن الدروس المستفادة كذلك بسبب التهيئة لاجتياز صدمات المستقبل ، تلك الصدمات العنيفة التى لقيها من المنافقين المنبثين بين صفوف المسلمين ، فتلقاها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالصمود والصبر ، واجتازها بشجاعة نادرة المثال ، ومن الأمثلة الواضحة فى هذا المقام .

١ ــ رجوع عبد الله بن أبى بن سلول بمجموعة كبيرة من الجيش تقــدر بنحــو ثلث جيش المسلمين ، لاحداث اضطراب وبلبلة فى صفوف المسلمين قبل ملاقاتهم للأعداء .

قال ابن اسحاق : « حتى اذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس » (٣) .

٢ ــ تدبير هؤلاء المنافقين حديث الافك للنيل من حرم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والطعن فى عرضه المصون . وكانت فترة عصيبة جدا ، اجتازها رسول الله ــ صــلى الله عليــه وسلم ــ بفضل ما هيأه الله عليه . فى صغره من الصبر على الصــدمات ، حتى أنزل الله من آيات سورة النور ما برأ به السيدة عائشة ، فلما نزل عليه الوحى ببراءتها ، وسرى عنه « جلس ، وانه لينحــدر منه مثل الجمان (٤) فى يوم شات ، فجعل يمســح العرق عن جبينــه ، ويقــول : أبشرى ياعائشة ، فقــد أنزل الله براءتك ، قالت : فقلت : بحمد الله ، ثم خرج الى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثاثه ، وحسان بن ثابت ، وحمنــة بنت جحش ، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ، فضربوا حدهم » (٥) .

---

(١) الانفال ٣٠
(٢) انظر سيرة ابن هشام ج١ / ٣٧٤
(٣) السيرة ج٣ / ٦٤
(٤) الجمان : حب من فضة يصنع فى مثل الدر .
(٥) سيرة ابن هشام ج٣ / ٣٠٢

٣ — ارجافهم بالأخبار الكاذبة فى غزوة الأحزاب لزلزلة قلوب المسلمين ، وتفريقهم من حول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والسخرية بهم ، حتى قال أحدهم : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ، وقال آخر : يارسول الله ان بيتنا عورة من العدو ، وذلك عن ملأ من رجال قومه ، فأذن لنا أن نخرج ، فنرجع الى دارنا ، فانها خارج المدينة (١) .

وقال الله — تعالى — « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا » (٢) قال ابن كثير فى معنى « المرجفون فى المدينة » يعنى الذين يقولون جاء الأعداء ، وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء » .

٤ — تشهيرهم بالنبى — صلى الله عليه وسلم — عندما تزوج زينب بنت جحش بمطلقزيد بن حارثة ، الذى كان متبنى للنبى — صلى الله عليه وسلم — فلما ألغى الله التبنى ألغى كل ما كان مترتبا عليه من حرمة زواج امرأة الابن بالتبنى ، وقد كان ذلك مشهورا عند العرب ، فلما أراد الله ابطال هذا الحكم أمره أن يتزوج زينب ، فلما تزوجها شنعوا عليه ، وشهروا به ، حتى خشى النبى — صلى الله عليه وسلم — عاقبة ذلك فعاتبه الله على ذلك (٤) .

خامسا — ومن الدروس المستفادة من تهيئة الله لنبيه — صلى الله عليه وسلم — بأرقى مراتب اليتم لاجتياز صدمات المستقبل فى قوة وصبر ورباطة جأش ، تحمله للصدمات القاسية باستشهاد كثير من أصحابه ، وأحب الناس اليه وآثرهم عنده . ومن ذلك اللون من الصدمات مايلى :

١ — صبره — صلى الله عليه وسلم — عند استشهاد عمه حمزة بن أبى طالب فى موقعة أحد قال ابن هشام : « ولما وقف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على حمزة قال : لن أصاب بمثلك أبدا ! ماوقفت موقفا أغيظ الى من هذا ! » (٥) ولما توعد المشركين بالتمثيل بثلاثين جثة من قتلاهم أنزل الله — قوله — عز وجل : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون » (٦) .

٢ — وصبره — صلوات الله وسلامه عليه من استشهد من أصحابه فى موقعة أحد ، ووقوفه عليهم يدعو لهم ويستغفر . ثم قال : « انظروا أكثر هؤلاء جمعا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر » . قال ابن اسحاق وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد (٧) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٢٢ .
(٢) الاحزاب ٦٠
(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ / ٥١٨
(٤) السابق ص ٤٩٠ — ٤٩٢
(٥) السيرة جـ٣ / ٩٦
(٦) النحل ١٢٦ ، ١٢٧ وانظر اسباب النزول ص٢١٥
(٧) المرجع السبق ص ١٨٣ — ١٨٤ .

٣ — وتجمله بالصبر عند استشهاد مجموعة من أصحابه يقدرون بأربعين رجلا من خيار المسلمين فيما يعرف ببئر معونة ، قتلهم أهل نجد غدرا وخيانة ، مع أن النبى — صلى الله عليه وسلم — أرسلهم مع أبى براء عامر بن مالك بن جعفر كبعث الى أهل نجد ليدعوهم الى الاسلام ، فغدروا بهم وقتلوهم (١) .

٤ — وصبره عند ما بلغه استشهاد قواد غزوة مؤتة ، الذين أرسلهم لقتال الروم ، وأمر عليهم زيد بن حارثة ، فلما استشهد خلفه على قيادة القوم جعفر بن ابى طالب ، فلما استشهد خلفه عبد الله بن رواحة فاستشهد ، ثم تولى القيادة خالد بن الوليد الذى انسحب بمهارة فائقة حفظت جيش المسلمين ، فتلقاهم النبى — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة ، وجعل الناس يحثون فى وجوههم التراب ويقولون : يافرار . أما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار ان شاء الله » — تعالى — (٢) .

---

(١) السابق ص ١٨٣ — ١٨٤ .
(٢) السابق ص ٢٨٢ .

الموقف الثانى فى :

التهيئة المبدئية

العملية التربوية ومدى تأثرها بالأسباب المعتبرة والغير معتبرة

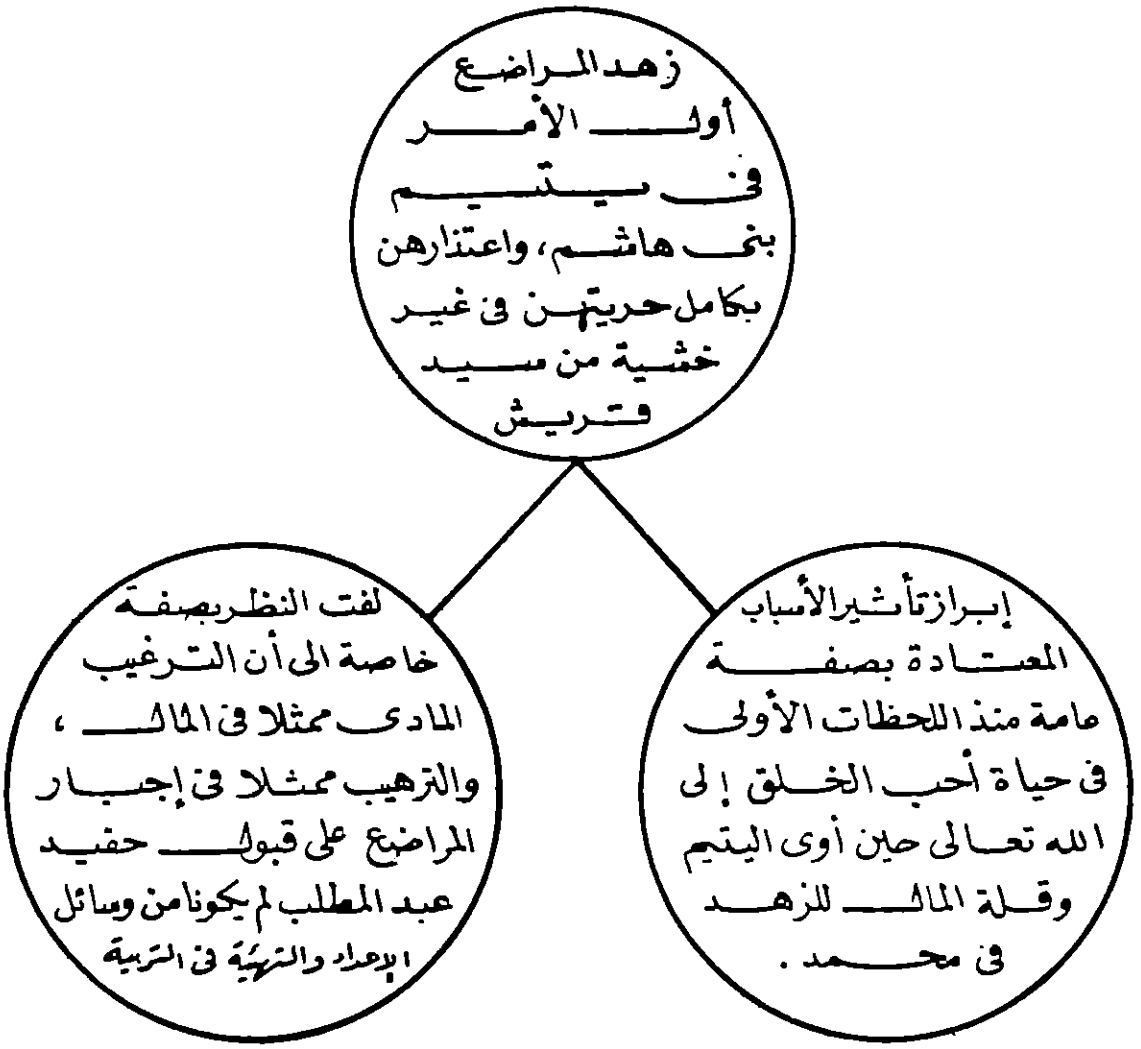

ذكر حواضنه ومراضعه عليه الصلاة والسلام

قال ابن كثير فى البداية والنهاية :

كانت أم أيمن — واسمها بركة — تحضنه ، وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه ، فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثه ، فولدت له أسامة بن زيد رضى الله عنهم • وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام — مولاة عمه أبى لهب ، ثويبة قبل حليمة السعدية • أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما (١) من حديث الزهرى عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة عن أم حبيبة بنت أبى سفيان قالت : يا رسول الله ! أنكح أختى بنت أبى سفيان — ولمسلم عزة بنت أبى سفيان — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو تحبين ذلك ؟ » قلت نعم ! لست لك بمخلية (٢) ، وأحب من شاركنى فى خير أختى ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « فان ذلك لا يحل لى » ، قلت : فانا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبى سلمة وفى رواية درة بنت أبى سلمة — قال : « بنت أم سلمة ؟ » قلت نعم،قال :«انها لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ما حلت لى،انها لابنة أخى من الرضاعة، أرضعتنى وأبا سلمة — ثويبة ، فلا تعرضن على بناتكن ولا أخواتكن » • زاد البخارى : قال عروة : وثويبة مولاة لأبى لهب ، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة (٤) • فقال له ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب : لم ألق بعدكم خيرا، غير أنى سقيت فى هذه بعتاقتى (٥) ثويبة — وأشار الى النقرة التى بين الابهام والتى تليها من الأصابع •

وذكر السهيلى وغيره : أن الرائى له هو أخوه العباس • وكان ذلك بعد سنة من وفاة أبى لهب بعد وقعة بدر • وفيه أن أبا لهب قال للعباس : انه ليخف على فى مثل يوم الاثنين ، قالوا لأنه لما بشرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد بن عبد الله — أعتقها من ساعته ، فجوزى بذلك لذلك •

---

(١) رواه البخارى ص ٧ ١٢ طبعة الشعب .
(٢) اى لست بمنفردة بك حتى اغار منها فان لى ضرائر .
(٣) رواه البخارى ج ٧ ص ١٢ طبعة الشعب .
(٤) معناه : بسوء حال ، والحيبة : الهم والحلجة والحالة .
(٥) اى بعتقى لها .

ذكر رضاعه عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية وما ظهر عليه من البركة وآيات النبوة

قال محمد بن اسحاق : فاسترضع له عليه الصلاة والسلام من حليمة بنت أبى ذؤيب ، واسمه عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر . قال : واسم أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرضعه — يعنى زوج حليمة — الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن سعد ابن بكر بن هوازن . واخوته عليه الصلاة والسلام — يعنى من الرضاعة — عبد الله بن الحارث وأنيسه بنت الحارث وحذافة (١) بنت الحارث وهى الشيماء ، وذكروا أنها كانت تحضن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع أمه اذ كان عندهم .

قال ابن اسحاق : حدثنى جهم بن أبى جهم مولى لامرأة من بنى تميم كانت عند الحارث بن حاطب ، ويقال له مولى الحارث بن حاطب ، قال : حدثنى من سمع عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال : حدثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت : قدمت مكة فى نسوة — وذكر الواقدى باسناده أنهن كن عشر نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمسن بها الرضعاء — من بنى سعد نلتمس بها الرضعاء (٢) فى سنة شهباء فقدمت على أتان لى قمراء كانت أذمت (٣) بالركب ، ومعى صبى لنا وشارف (٤) لنا والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا ذلك أجمع من صبينا ذاك ، ما نجد فى ثدىى ما يغنيه ولا فى شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج . فخرجت على أتانى تلك ، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتأباه ، اذا قيل انه يتيم تركناه وقلن ماذا عسى أن تصنع الينا أمه ؟ انما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع الينا ؟ فوالله ما بقى من صواحبى امرأة الا أخذت رضيعا — غيرى . فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق — قلت لزوجى الحارث بن عبد العزى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن الى ذلك اليتيم فلآخذنه . فقال : لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة . فذهبت فأخذته ، فوالله ما أخذته الا أنى لم أجد غيره ، فما هو الا أن أخذته فجئت به رحلى ، فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب أخوه حتى روى . وقام صاحبى الى شارفنا تلك فاذا انها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربت حتى روينا ، فبتنا بخير ليلة فقال صاحبى حين أصبحنا : ياحليمة ! والله انى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ؟ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيرا .

---

(١) فى الطبرى : خذامة بكسر الخاء المنقوطة .

(٢) فى ابن هشام : المراضع ، وهو واضح ، لان المراضع جمع مرضع . اما الرضعاء فجمع رضيع . ولعله اريد ذوات الرضعاء على حذف مضاف ، او انه متى وجدت له مرضعة فقد وجد الرضيع الذى يرضع معه .

(٣) أتت بما يلم عليه من تخلف وتمهل ، والقمراء : لون الحمرة ، او بياض فيه كدرة .

(٤) الشارف من النوق : المسنة الهرمة .

ثم خرجنا راجعين الى بلادنا ، فوالله لقطعت أتانى بنا الركب حتى مايتعلق بها حمار ، حتى ان صواحبى ليقلن : ويلك يابنت أبى ذؤيب أهذه أتانك التىخرجتعليها معنافأقول نعم والله انهالهى، فقلن والله ان لها لشأنا. حتى قدمنا أرض بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فان كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعا لبنا فنحلب ما شئنا ، وما حولنا أو حولنا أحد تبض له شاقبقطرة لبن،وان أغنامهملتروح جياعا حتى انهملیقولون لرعاتهم أو لرعیانهم — ویحکم! انظروا حیث تسرح غنم بنت أبى ذؤیب فاسرحوا معهم ، فیسرحون مع غنمى حیث تسرح ،فتروح أغنامهم جیاعا ما فیها قطرة لبن ، وتروح أغنامى شباعا لبنا تحلب ماشئنا . فلم یزل الله یرینا البرکة نتعرفها حتى بلغ سنتین ، فکان یشب شبابا لا تشبه الغلمان (١) .

والقارىء ، لهذا الموقف — نعنى زهد المرضعات — فيه صلى الله عليه وسلم — يخرج بنتيجة هامة فحواها : —

أنه مع أن هذا الموقف المبكر وأمثاله ليس من صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه من صنع الله الذى شاءت رحمته أن يكون متاحا للقدوة والتأسى .

فى هذا الموقف يبدو معلمان بارزان يجب أن يقتدى بهما أصحاب الدعوات .

أولهما أن سلاح الترغيب بالمال ليس هو العنصر الضرورى من بين أسلحة الدعاة ، مع أن المال كان هدف المرضعاتلكن الله أرانا كيف تم لآمنة وعبد المطلبما أرادا من تدبير مرضعة لمحمد رغم هذا العائق الذى حال أولا دون ذلك وانصرفت فعلا عنه المراضع . وهذا يعنى أيضا أنه لا مكان لليأس أمام المتغيرات التى هى طبيعة لهذه الحياة،فالقلوب بيد الله . وحليمة التى اعتذرت وانصرفت، هى التى عادت وطلبت

ثانيهما أن سلاح الترهيب بالجبروت لا محل له فى الاقناع بدعوة الله ، فهذا هو عبد المطلب بسيادته للعرب ، قد خلا مجلسه من الجور والظلم واكراهه الآخرين على ما يريده ويبتغيه . فكل المراضع اعتذرن بكامل حريتهن دون أن تتعرض واحدة منهن لأدنى حرج أو لوم ، وحين عادت حليمة عادت برغبتها وقناعتها ورضاها واذن فلا الترغيب ولا الترهيب من العناصر الأساسية التى يعتمد عليها الدعاة ، ذلك أن خاتم الأنبياء كان أول عهده بالحياة بعيدا عن التأثر بهذين العاملين .

والذى يعنينا مما سبق هو زهد المرضعات فى بادىء الأمر فى ارضاعه بسبب الخوف من قلة ما يصيبهن من الخير لقلة مال اليتيم .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٩٧ .

بيد أن النشأة الأولى فى ظل الحياة الجادة لها مردودها المستقبلى الذى يتضح بالوجه الآخر من الصورة التى صرح بها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » (١) .

فالتنشئة الناعمة لا تهيىء للمسئولية رجالها الأكفاء ، بل هى من خصائص النساء ودلالة عجزهن وضعفهن .

واذن فقلة المال وان كانت فى ظاهرها أمرا جعل المرضعات يزهدن فى ارضاع حفيد عبد المطلب الا أنها فى حقيقة الأمر اعداد له صلى الله عليه وسلم لتحمل أخطر مسئوليات الحياة جدية وايجابية .

---

(١) الزخرف آية ١٨

التهيئة المبدئية
الصحة ، واللغة ، والاعتماد على النفس

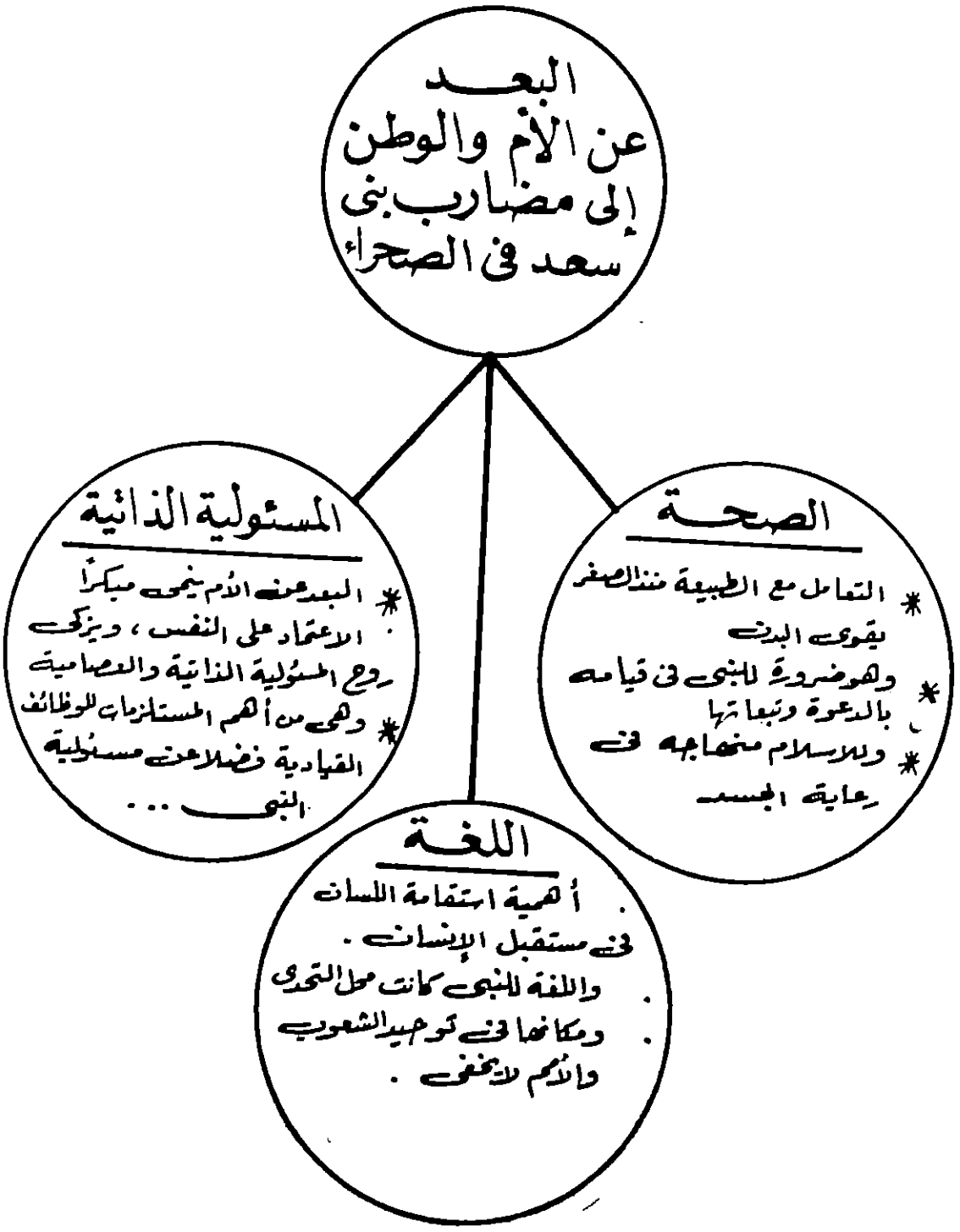

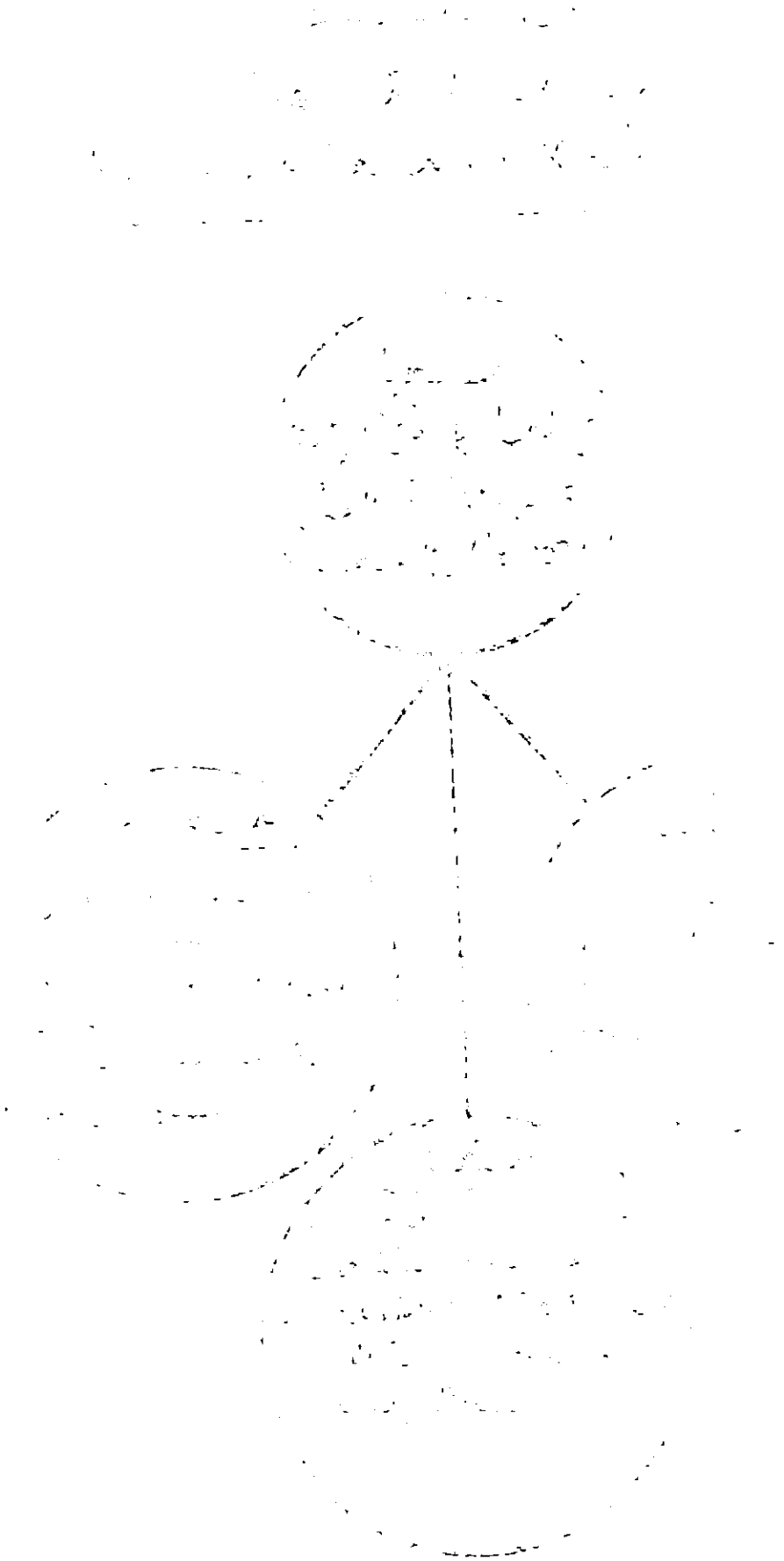

استرضاعه صلى الله عليه وسلم فى بنى سعد

كان من عادة أشراف العرب أن يتلمسوا المراضع لأولادهم فى البوادى ليكون ذلك أنجب للولد ، وأصح للبدن وأصفى للذهن وأبعد عن الوخم والكسل .

وكانوا يقولون : ان المربى فى المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة ، ضعيف البنية ، هذا الى ما فى نشأتهم بين الأعراب من استقامة اللسان بالفصيح من الكلام والسلامة من اللحن ، والبراءة من الهجنة (١) كما أن البعد عن الأهل ينمى فيهم الاعتماد على النفس ، والتحمل للمسئولية منذ الصغر .

فمن ثم كانوا يرسلون أبناءهم الى البادية حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة .

ومن القبائل من كان لها فى المراضع شهرة ، وفى الفصاحة مكان قبيلة بنى سعد التى كان منها حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية مرضعة النبى صلى الله عليه وسلم،وقد مكث عندها سنتين،ثم عادت به كى تراه أمه ، فما أن رأته ، وملأت عينها منه حتى احتضنته وقبلته ، وسرها ما رأته عليه من علامات الصحة والنضارة والنمو .

وتوسلت حليمة الى أمه أن ترجعه معها حتى يكبر ، فانها تخشى عليه وباء مكة ، ومازالت بها حتى قبلت ، ثم عادت به بعد سنتين ، وهى بادية القلق ، شديدة التخوف عليه ، حتى أحست ذلك منها السيدة آمنة ، فسألتها عن سبب ذلك فأنكرت أن يكون هناك شىء ، ثم لم تلبث أن أخبرتها بقصة الملكين اللذين جاءا اليه ، وهو فى غنم لهم مع أخيه السعدى فشقا صدره فطمأنتها أمه أن لاسبيل للشيطان عليه وأنه سيكون له شأن وقالت لها دعيه عنك وانطلقى راشدة (٢) .

وقد ذكر الامام السهيلى فى الروض الأنف الأسباب الدافعة للاسترضاع فى بنى سعد ، فى عبارات لا تحتاج الى تحليل أو تفسير . تجعل هذا الموقف فى بداية حياة النبى صلى الله عليه وسلم وعقب ولادته بساعات أو أيام موصولا صلة وثيقة بالتهيئة والاعداد قال رحمه الله :

وأما دفع قريش وغيرهم من أشراف العرب أولادهم الى المراضع فقد يكون ذلك لوجوه منها :

١ ــ تفريغ النساء الى الأزواج (٣) واستشهد بنصيحة عمار لأم سلمة بدفع ابنها حتى تتفرغ لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الهجنة : كلام فيه عيب ، والمراد هنا ، البراءة من العيب راجع لسان العرب لابن منظور .
(٢) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة لمحمد محمد ابو شهبه جـ ١ ص ١٩٨ .
(٣) هذا السبب غير وارد هنا لان عبد الله بن عبد المطلب زوج السيدة آمنة كان قد توفى .

٢ — وقد يكون ذلك منهم أيضا لينشأ الطفل فى الأعراب فيكون أفصح للسانه وأجلد لجسمه وأجدر الا يفارق الهيئة المعدية (١) كما قال عمر رضى الله عنه : تمعددوا ، وتمعززوا (٢) واخشوشنوا

وقد قال عليه الصلاة والسلام لأبى بكر رضى الله عنه حين قال له مارأيت أفصح منك يارسول الله ، فقال : « وما يمنعنى وأنا من قريش ، وأرضعت فى بنى سعد » (٣) .

ثم قال السهيلى :

وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول :

أضربنا حب الوليد،لأن الوليد كان لحانا وكان سليمان فصيحا ، لأن الوليد أقام مع أمه،وسليمان وغيره من أخوته سكنوا البادية فتعربوا ثم أدبوا فتأدبوا ، .... (٤) .

ويقول الامام ابن كثير فى البداية :

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه أنا أعربكم ، أنا قرشى ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر وعبارة ابن هشام عن ابن اسحاق : أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له يارسول الله أخبرنا عن نفسك ؟ قال نعم ، أنا دعوة أبى ابراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، — الى أن يقول — واسترضعت فى بنى سعد بن بكر (٥) .

ومع صراحة هذه النصوص فى افادتها ما ذهبنا اليه من أن هذا الموقف يعتبر معلما من معالم الاعداد والتهيئة المبدئية فان أعظم ما نركز عليه هو نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم لمقاصد هذا الموقف وربطه بمردوده المستقبلى من الفصاحة التى تعتبر من أهم الأسلحة التى واجه بها أفصح الفصحاء من قومه قال القاضى عياض فى وصف فصاحة محمد عليه السلام وبلاغته .

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل (٦) سلاسة طبع (٧) وبراعة منزع (٨) ، وايجاز مقتضب (٩) وفصاحة لفظ ،

---

(١) نسبة الى معد وكانوا اهل قوة وشدة .
(٢) تمعززوا : تعزز لحمه : اشتد وصلب .
(٣) الروض الانف ج ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٤) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٠٠ .
(٥) سيرة ابن هشام الجزء الاول ص ١٦٣ .
(٦) اى الظاهر بالوجه الاكمل .
(٧) سلاسة طبع : اى بسهولة جبلة وانقياد طبيعة .
(٨) براعة منزع : البراعة مصدر برع الرجل فاق اقرانه والمنزع : اى مأخذ ومطلع والمراد جودة اللسان ولطافة البيان .
(٩) ايجاز مقتضب : اى مقطع موجز والمعنى ان كلامه صلى الله عليه وسلم حسن الابتداء ومستحسن فى الانتهاء .

وجزالة قول ، صحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم السنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها(١) ، بلغاتها ويباريها(٢)فى منزع بلاغتها (٣) حتى كان كثير من أصحابه صلى الله عليه وسلم يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله..(٤)

واذا كانت معجزات الأنبياء والرسل هى معجزات مادية فان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم كانت « معجزة القرآن » الذى نزل بلسان عربى مبين « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (٥)

وقد تحدى رسول الله بهذا القرآن المشركين ، طلب منهم أن يأتوا بمثله ، فعجزوا ، وطلب منهم أن يأتوا بأقصر سورة منه فعجزوا . وثبت أن هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى .

والذى نستخلصه من هذا الموقف ، هو أن تحرص الشعوب الاسلامية على الاهتمام باللغة العربية واحيائها ، لأن فى الحفاظ على اللغة العربية واحيائها دعم للشعوب والأمم الاسلامية فكريا وعقائديا وثقافيا ، وفى هذا وحدة وتماسك للأمة الاسلامية كلها .

واذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد أوتى فصاحة فى اللسان وبلاغة فى القول فانه كذلك قد أعطى الشجاعة والقوة

والشجاعة والقوة صفتان لازمتان للأنبياء لكى يعظم خطرهم فى النفوس ويقدرون على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه ولا رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له ، انا لنجهد أنفسنا وانه لغير مكترث (٦) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وكان أجود الناس (٧) وكان أشجع الناس (٨) ولقد فزع أهل المدينة ليلة (٩) فانطلق ناس قبل الصوت (١٠) فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم الى الصوت (١١) وهو على فرس لأبى طلحة عرى (١٢) فى عنقه السيف (١٣) وهو يقول لم تراعوا ، لم تراعوا (١٤) .

---

(١) يحاورها : يجاوبها .
(٢) يباريها : يعارضها .
(٣) منزع بلاغتها : اى مأخذها ومرجع لغتها .
(٤) شرح الشفاء للقاضى عياض ص ١٧٥ — ١٧٦ .
(٥) يوسف آية ٢
(٦) اخرجه الترمذى فى سننه ج ٥ ص ٢٦٥ .
(٧) اجود الناس : اى سخاوة وكرامة .
(٨) اشجع الناس : اى قلبا ولبانا .
(٩) اى خافوا العدو .
(١٠) اى ناحيته .
(١١) اى ذهب رسول الله الى هذا الصوت بنفسه .
(١٢) اى لاسرج على الفرس لشدة استعجاله الأمر .
(١٣) اى اى متقلدا سيفه .
(١٤) اى لن تخافوا مكروها يصيبكم ، والحديث اخرجه مسلم فى صحيحه باب شجاعة النبى صلى الله عليه وسلم .

الموقف الرابع من مواقف التهيئة المدنية

رعى الغنم

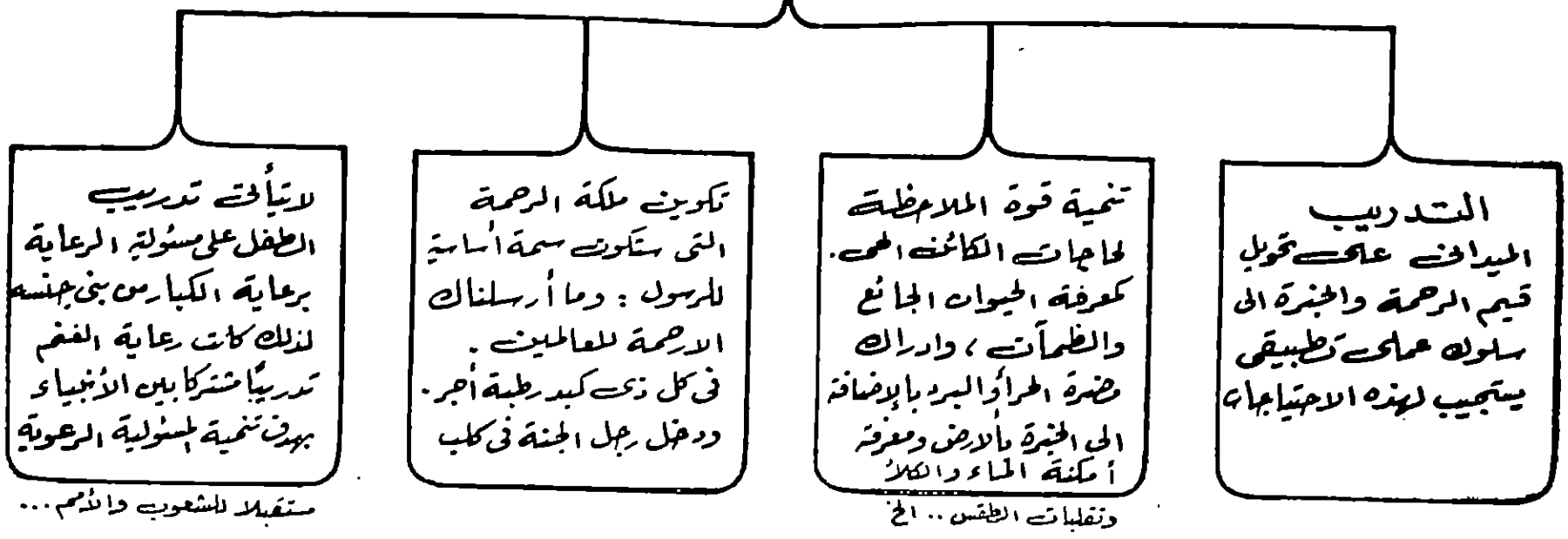

رعيه صلى الله عليه وسلم للغنم

اشتغل النبى صلى الله عليه وسلم فى صباه برعى الغنم ، رعاها لأهله ، ورعاها لبعض أهل مكة ، وبذلك ضرب مثلا عاليا من صغره فى اكتساب الرزق بالكد والتعب وكان النبى يذكر ذلك فى كبره وهو مغتبط مسرور .

روى الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال افتخر أهل الابل والغنم عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى : الفخر والخيلاء فى أهل الابل ، والسكينة والوقار فى أهل الغنم ، وقال : بعث موسى وهو يرعى غنما لأهله وبعثت أنا وأنا أرعى غنما لأهلى بجياد » (١) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال «مابعث الله نبيا الا رعى الغنم — فقال أصحابه : وأنت ؟ قال : نعم . كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة (٢) »

والحديث يفيد صراحة عمل النبى — صلى الله عليه وسلم — أجيرا عند أهل مكة، وأنه كان يأخذ على ذلك أجره بالقراريط — أى من الذهب — كل عام مثلا أو كل فترة معينة متفق عليها لم يصرح بها الحديث ، لأنها كانت مفهومة لدى المخاطبين فى البيئة .

كما يدل الحديث على أن الله — سبحانه وتعالى — كان يعد الرسل قبل تولى الرسالة اعدادا خاصا ، وأن من أساليب هذا الاعداد تدريبهم على رعى الغنم ، ومن أشهر الرسل الكرام الذين رعوا الغنم سيدنا موسى ، وداود ، ومحمد صلى الله عليهم وسلم جميعا .

قال ابن حجر فى الفتح، وقد نقله عنه الشوكانى فى نيل الاوطار : «قال العلماء : الحكمة فى انهامهم رعى الغنم قبل النبوة ، أن يحصل لهم التمرين برعيها على ما سيكلفونه من القيام بأمر أمتهم ، لأن فى مخالطتها ما يحصل الحلم والشفقة ، لأنهم اذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفريقها فى المرعى ، ونقلها من مسرح الى مسرح ، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق ، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها الى المعاهدة ، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلال طباعها ، وتفاوت عقولها ، فجبروا كسرها ، ورفقوا بضعيفها ، وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام به من أول وهلة ، لما يحصل لهم من التدريب بذلك ، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الابل والبقر ، لامكان ضبط الابل والبقر بالربط دونها » (٣) .

---

(١) بكاد اسفل مكة .

(٢) رواه احمد والبخارى وابن ماجة .

(٣) فتح البارى ٦/١٠ طبعة الكليات الازهرية ، ونيل الاوطار ٣١٧/٥ طبعة الحلبى .

والذى يهمنا من الاعداد فى رعاية الغنم ، أن رعاية الغنم فى هـذه السن المبكرة تعنى الشىء الكثير فى الاعداد للمستقبل ، فقد كانت بمثابة تدريب على المسئولية وهى أمر مشترك بين الأنبيـاء بهدف تنمية المسئولية الرعوية مستقبلا للشعوب والأمم .

ويكفى أن تضع اللغة العربية لهذه المهمة كلمة (الرعى) لمـا فى الرعى من ملاحظة مايرعاه الراعى من حاجات تتعلق بها حياة الكائن المرعى ،ولقد تكونت عند محمد صلى الله عليه وسلم ملكة الرحمة، وتعددت مظاهرها وتنوعت حتى شملت المسلمين وغير المسلمين ، واتسعت للأصدقاء والأعداء وشملت الأحرار والخدم والأرقاء ، وامتدت الى الكبار والصغار ، حتى استوعبت رحمته صلى الله عليه وسلم الحيوانات العاجزة عن النطق فشملتها رحمته صلى الله عليه وسلم .

ومن الملاحظ أن اختيار عالم الحيوان مجالا لتدريب الأنبياء على رعاية أقوامهم هو الحل الأمثل الذى لا بديل له ، اذ لا يتصور ولا يقبل أن يكون التدريب فى المرحلة المبكرة من الطفولة فى مجـال الانسان نفسه ، حيث لا يمكن أن يقبل واحد من الناس أن يكون تحت رعاية طفل حديث السن مهما صاحبته أمارات البركة وآيات القبول .

وفيما يلى بعض مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم التى ترجمت الى واقع عملى لكى يشهده أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وعلى المسلمين أن يقتدوا به صلى الله عليه وسلم فيطبقوا الرحمة فى مجالات حياتهم العملية .

نموذج واحد من نماذج كثيرة فى مجال رحمته صلى الله عليه وسلم بالمسلمين « شكا اليه رجل أنه يتأخر عن صلاة الصبح مع الجماعة لأن فلانا يطيل بالناس فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ان منكم منفرين فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز — فليخفف — فان فيهم الضعيف والكبـير وذا الحاجة » (١) .

وهذا نموذج واحد من نماذج كثيرة فى مجال رحمته صلى الله عليه وسلم للنساء والأطفال حتى ولو كانوا مشركين .

عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان » (٢) .

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم بأطفال المسلمين .

---

(١) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى المسمى بالتجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزبيدى ، تاليف عبد الله الشرقاوى .

(٢) اخرجه البخارى ، باب قتل النساء فى الحرب .

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : انى لأسمع صوت الصبى ، وأنا فى الصلاة فأخفف مخافة أن تفتن أمه » (١) .

وجـــاء فى السيرة الحلبيـــة :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يداعب الأطفال ويجلسهم فى حجره ، وكان يصف عبد الله ، وعبيد وغيرهما من أولاد عمه العباس ويقول : من سبق الى فله كذا ، فيســتبقون اليه فيقعدون على صدره فيقبلهم ويلتزمهم » (٢) .

وهذا نموذج من مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم بالخدم :

قال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، فأرسلنى يوما لحاجة ، فقلت والله لا أذهب ، وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبى الله صلى الله عليه وسلم فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون فى السوق فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاى من ورائى قال : فنظرت اليه وهو يضحك فقال : ياأنيس اذهب حيث أمرتك قال : قلت نعـــم أنا أذهب يارسول الله » (٣) .

ومن مظاهر الرحمة بالحيـــوان :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما رجل يمشى بطريق، اشتد عليه الحر فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له» قالوا : يارسول الله ، ان لنا فى البهائم أجرا ؟ فقال « فى كل كبد رطبة أجر » (٤) .

وجاء فى كتاب الاحيـــاء للامام الغـــزالى :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل يوما رطبا (تمرا) فى يمينه فحفظ النوى فى يســاره ، فمرت شاة فأشار اليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ ، وانصرفت الشـــاة » (٥) .

---

(١) رواه البزار ورجاله ثقات ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى جـ ٢ ص ٧٤ .
(٢) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٣٧٧ .
(٣) اخرجه الامام مسلم ، باب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم احسن الناس خلقا .
(٤) رواه مالك والبخارى ومسلم وابو داود وابن حبان فى صحيحه الا انه قال : « فشكر الله له فادخله الجنة » .
الترغيب والترهيب للمنذرى جـ ٢ ص ١٩٥ .
(٥) الاحياء للامام الغزالى جـ ٢ ص ١٩٥ .

فى التهيئة الميدئية
دعاء الوالدين للأبناء

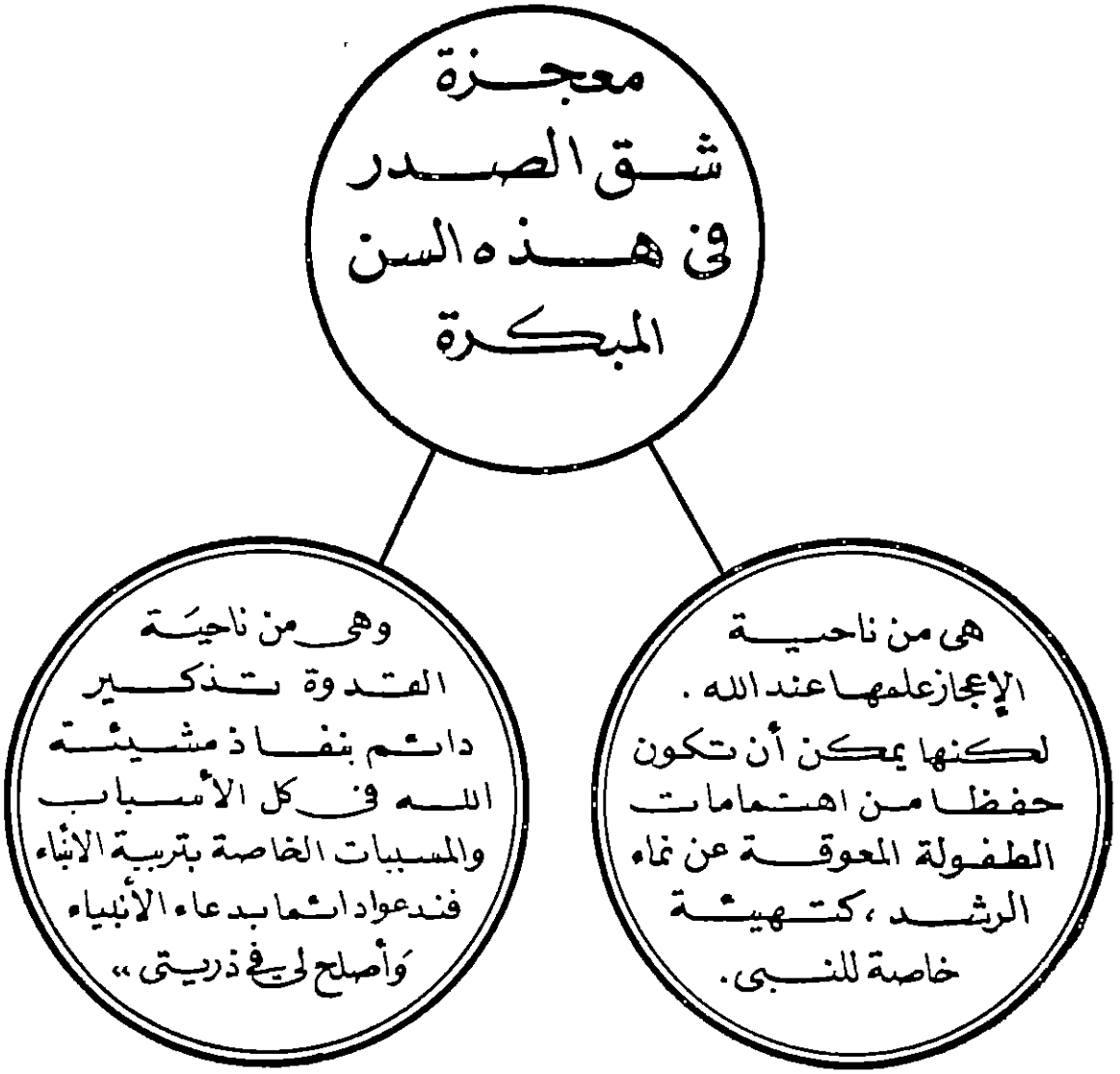

حـــديث شـــق الصـــدر

مكث محمد صلى الله عليه وسلم فى مضارب بنى سعد خمس سنوات صح فيها بدنه ، واطرد نماؤه ، وهذه السنوات الخمس هى عمر الطفل ، فلا ينتظر أن يقع فيها شىء يذكر ،

غير أن السنن الصحاح سجلت فى هذه الفترة ما عرف بعد بحادث « شق الصدر » .

عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخـذه ، فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله فى طسـت من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده الى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون الى أمه — يعنى مرضعته — أن محمدا قد قتل فاسـتقبلوه وهو منتقع اللـــون قال أنس ، وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره » (١) .

وقد تكرر شق الصدر الشريف غير هذه المرة فقد حصل مرة ثانية عند المبعث ومرة ثالثة عند الاسراء والمعراج .

حديث شق الصدر فى المرة الثـانية : عن أبى بن كعب أن أبا هـريرة رضى الله عنـه كان جريئا على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال : يا رسول الله ، ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال لقد سألت أباهـــريرة (٢) انى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر واذا بكلام فوق رأسى ، واذا برجل يقول لرجل أهو هـو قال نعم فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحـد قط فأقبلا الى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأخذهما مسا فقال أحدهما لصاحبه أضجعه فأضجعانى بلا قصر ولا هصر (٣) ، فقال أحدهما لصاحبه أفلق صدره فهوى أحدهما الى صدرى ففلقها فيما أرى بلادم ولا وجع فقال له أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئا كهيئة العلقـة ثم نبذها فطرحها ، فقال له أدخل الرحمة والرأفة ، فاذا مثل الذى أخرج شبيه الفضة ثم هز ابهام رجلى اليمنى فقال : اغد واسلم .

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة على الكبير » (٤) .

---

(١) شرح النووى على مسلم ج ١ ص ٣٩٣ . (٢) اى يا ابا هريرة بحذف حرف النداء .
(٣) القصر هو القهر والاجبار ، والهصر : هو ان تلخذ براس العود فتلويه اليك ، والمعنى انهما لم يلويا ظهرى ولم يكرهانى عندما اضجعانى .
(٤) رواه عبد الله ورجاله ثقات وفيهم ابن حبان راجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج ٨ ص ٢٢٢ ، وراجع المنتخب من السـنة الصادر عن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ج ١ ص ٧٩ نقلا عن الفتح الربانى ج ٢٠ ص ١٩٥ .

حديث شق الصدر فى المرة الثالثة :

عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال : كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل صلى الله عليه وسلم ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا فأفرغها فى صدرى ، ثم أطبقه ثم أخذ بيدى فعرج بى الى السماء .. (١) .

الحكمة من تكرار شق الصدر :

أن شق الصدر فى المرة الأولى كان لنزع العلقة السوداء التى هى حظ الشيطان من كل بشر ، فخلقت فيه صلى الله عليه وسلم تكملة للخلق الانسانى ، ثم اخراجها بعد خلقها كرامة ربانية فهو أدل على مزيد الرفعة والكرامة من خلقه بدونها ،وبنزعها منه نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ، والاتصاف بصفات الرجولية من الصغر فلا لهو ولا عبث ، وانما هو الكمال والجد وأما شق الصدر فى المرة الثانية : وهو — صلى الله عليه وسلم فى سن العاشرة ، أن هذه السن قريبة من سن التكليف فشق قلبه وقدس حتى لا يلتبس بشىء مما يعاب على الرجال فيكون على أكمل الأحوال وأتم الاستعداد لتلقى الوحى والرسالة .

وأما شق الصدر فى المرة الثالثة : فكانت استعدادا لما يلقى فى هذه الليلة من أنواع الفيوضات الالهية ، وما سيريه ربه فيها من الآيات البينات وادراك مرامى المثل الرائعة التى ضربت له فى مسراه وفى معراجه وكلها تحتاج الى شرح الصدر وثبات القلب » (٢) .

ان بشرا ممتازا كمحمد صلى الله عليه وسلم لا تدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تتناوش غيره من سائر الناس فاذا كانت للبشر (موجات) تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع الى التقاطها والتأثر بها ، فقلوب النبيين — بتولى الله لها — لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها ، وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الترقى لا فى مقاومة التدلى ، وفى تطهير العامة من المنكر لا فى التطهر منه فقد عافاهم الله من لوثاته (٣) .

عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا وايالك يارسول الله ؟ قال : وايای الا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلم يأمرنى الا بخير » (٤) .

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٨٣ طبعة عيسى البابى الحلبى .

(٢) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة لمحمد محمد ابو شهبه جـ ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٦ .

(٣) فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ٦٥ .

(٤) رواه مسلم . باب تحريش الشيطان جـ ٨ ص ١٢٨ .

وفى رواية اخرى عن سفيان « وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » المصدر السابق .

قال النووى فى قول رسول الله « فاسلم » برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال : معناه اسلم انا من شره وفتنه ومن فتح قال ان القرين اسلم من الاسلام وصار مؤمنا لا يأمرنى الا بخير .

ولعل أحاديث شق الصدر تشير الى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد صلى الله عليه وسلم فجعلته فى طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الانسانى ومفاتن الحياة الأرضية •

على أن الذى نحب أن نشير اليه هنا — فى ايجاز — هو أننا لو نظرنا الى هذا الحدث بمقاييس مادية لو جدناه — أمرا خارقا للعادة ، لا يجرى على النواميس الطبيعية ، بل فيه خرق لهذه النواميس • وكيفيته على التحقيق أمر لا يعلمه الا الله •

ولعل الغرض من وراء شق الصدر فى مضارب بنى سعد هو صيانة النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو لا يزال طفلا من اهتمامات الطفولة المبكرة المعوقة له عن نماء رشده وتصحيح مسئوليته ، وقوة توازنه ، وذلك كتهيئة خاصة من الله — عز وجل — لصفى من أصفيائه — صلوات الله — تعالى عليهم أجمعين •

وفى هذا الموقف ما يذكرنا دائما كآباء وأمهات لنا فى تربية الله — سبحانه — لنبيه — صلى الله عليه وسلم — قدوة حسنة — أن مشيئة الله هى النافذة ، وأنها وراء كل ما يجرى من أسباب ومسببات ، وأننا عندما نبذل قصارى جهدنا فى تربية أولادنا التربية الحسنة ، لا ننسى ابدا أن نسأل الله لهم الصلاح ، لأن الله اذا أراد أمرا هيأ أسبابه وأزال موانعه • ومن هنا كانت دائما دعوات الأنبياء والمتقين : « رب هب لى من الصالحين » (١) ، « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين » (٢) •

---

(١) سورة الصافات : آية ١٠٠ .

(٢) سورة الأحقاف : آية ١٥ .

في التهيئة المبدئية
الملكات والمهارات القيادية

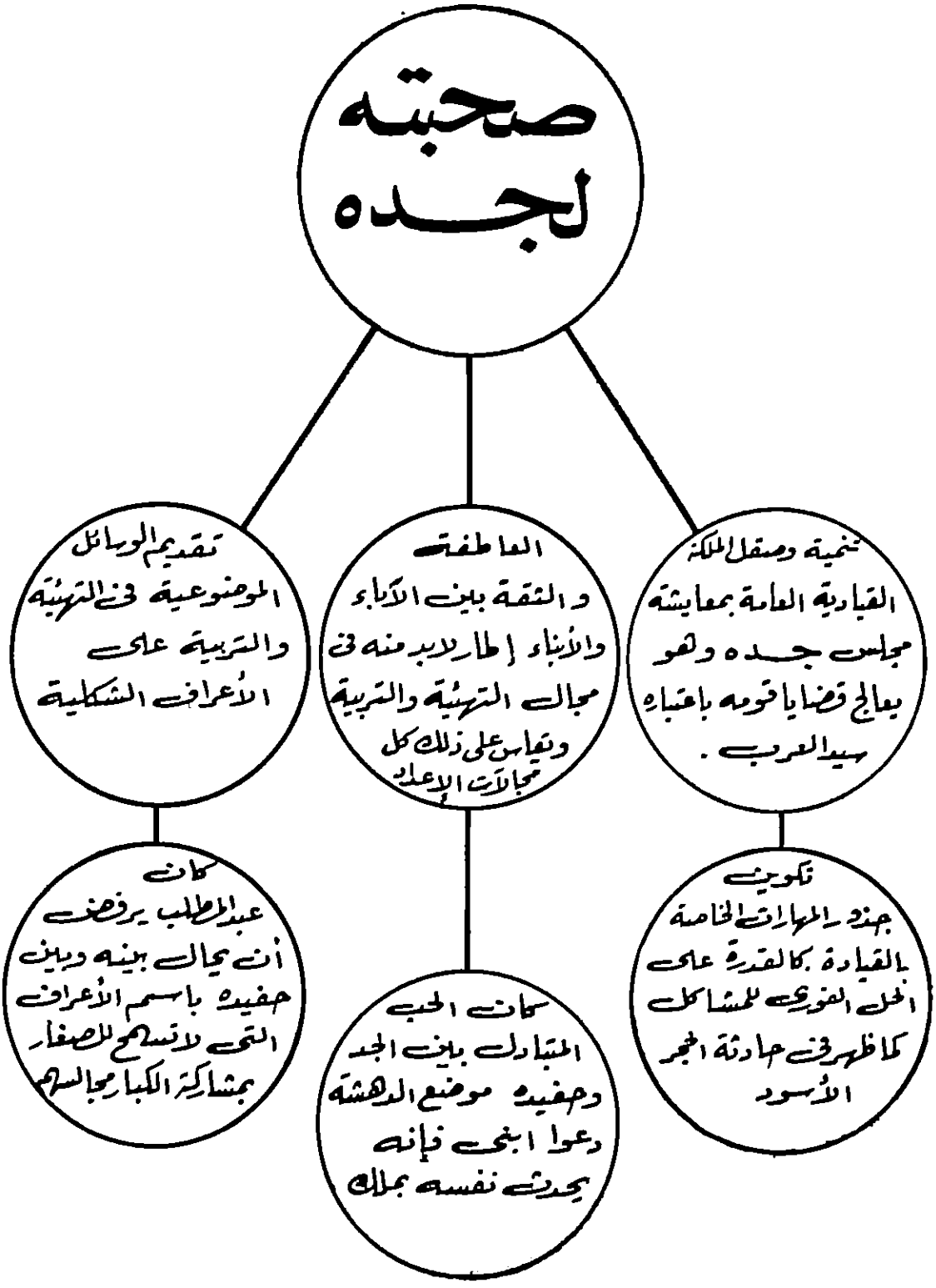

اعداده بالفطرة والبيئة لملكة الريادة والقيادة

من المعالم البارزة فى اعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للمستقبل اعداده لتكون لديه الملكة المطبوعة لوظائف الرئاسة والقيادة عن طريق تعايشه العملى مع جده عبد المطلب وشدة التصاقه به وقربه منه فى هذه السن المبكرة من السادسة الى الثامنة ، والحرص الشديد من جدد على صحبة حفيده فى مجلسه الى جواره وعلى فراشه خلافا لما هو مألوف قومه .

ثم قيام عمه أبى طالب بهذا الدور نفسه مع ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم منذ صارت اليه كفالته . وهذا نص رواية ابن اسحاق فى الموضوع :

عناية جده عبد المطلب وعمه أبى طالب به عليه السلام

قال ابن اسحاق : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم — يعنى بعد موت أمه آمنة بنت وهب — فكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له . قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر (١) حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع .

وقال الواقدى : حدثنى محمد بن عبد الله عن الزهرى ، وحدثنا عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله ، وحدثنا هاشم بن عاصم الأسلمى عن المنذر بن جهم وحدثنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد، وحدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز عن أبى الحويرث، وحدثنا ابن أبى سبرة عن سليمان بن سحيم عن نافع عن ابن جبير — دخل حديث بعضهم فى بعض — قالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما توفيت قبضته اليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه اذا خلا واذا نام . وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك : دعوا بنى انه يؤسس ملكا .

وقال قوم من بنى مدلج لعبد المطلب : احتفظ به فانا لم نر قدما أشبه بالقدم الذى فى المقام منه ، فقال عبد المطلب لأبى طالب : اسمع ما يقول هؤلاء ! فكان أبو طالب يحتفظ به . وقال عبد المطلب لأم أيمن (٢) — وكانت تحضنه — يابركة ! لا تغفلى عن ابنى ، فانى وجدته مع غلمان قريب من السدرة ، وان أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة . وكان عبد المطلب لا يأكل طعاما الا يقول: على بابنى فيؤتى به اليه ، فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياطته ثم مات عبد المطلب ودفن بالحجون » (٣) .

---

(١) اى شديد ، يقال جفر الصبى واستجفر : انتفخ لحمه وقوى على الأكل .

(٢) أمة حبشية كانت لأبيه عبد الله ، وكانت حاضنته بعد وفاة امه السيدة آمنة ، وكان عليه السلام يعزها كثيرا ويقول لها : انت امى بعد أمى .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٨٢ ، ١٩٦٦ بيروت .

لقد أظهر عبد المطلب العطف الأبوى لمحمد صلى الله عليه وسلم فكان ينسبه اليه مباشرة فلا يقول ابن عبد الله ، ولكن يقول ابنى ، ليأتنس به ويؤنسه ، ويمنع عنه الاحساس بغربته بين أولاده ولكيلا يحس بأنه دونهم ، ويفضله عليهم فى المجلس ليمنع قهر اليتم ، فألقى الله سبحانه محبـــة منه عليه .

ان أخشى ما يخشاه القوامون على اليتامى أن يحسوا بانفراد ، فلا يألفـــوا الناس ، فكان عبد المطلب الحكيم العطوف ، الكريم ، يبث روح الائتلاف فى هذا اليتيم . وكأن فطرة عبد المطلب السليمة ، وفراسته كانا يلهمانه أنه سيكون له شأن ، وبدت ارهاصات ذلك فى منامه الذى ارتآه ، ثم فى أحواله التى شاهدها ، ثم فى الأخبار التى جاءت عنه وهو فى البادية عند حليمة وزوجها ولذلك كان يبدو على لسانه مايدل على أنه يتوقع له خيرا عظيما ، وكان فى بيت عبد المطلب قلب آخر منح محمدا محبة الأم انها أم أيمن (١) التى كان عبد المطلب يعتمد عليها اذا غاب عنـــه فى رعايته . فكان يحثها على أن تبلغ أقصى الغاية فى العناية به فيقول لها : يابركة لا تغفلى عن ابنىفانى وجدته فى غلمان قريب من السدرة ، وان أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة »

ولكمال عطفه وايناسه وتأليفه بكمال حنوه كان لا يأكل طعاما الا يقول : على بابنى فيؤتى به ، ولكن الله تعالى يختبر نفس الغلام بحرمان ثالث فقد اختطف الموت أباه ولم تكتحل عيناه برؤيته ، واختبره ثانيا بأن اهتصر الموت عود أمه وقد أدرك معنى حنو الأمهـــات ، ورآها كالعـــود الأخضر يذبل ويذوى ، ثم اختبره ثالثا ، وقد رأى جده الكريم يتركه ، فقد فقد الأبوة القـــريبة ، والأبوة البعيدة وقد أحس بعظم ما فقد عندما سمع المراثى فيه وهى تعلن مكانته ومحبته ، وانه قد ابتدأت وهو لا يزال حيا ، ولكن الموت يدنو منه وكانت الأشعار تجىء بالرثاء من بناته (٢) .

---

(١) هى بركة الحبشية بنت ثعلبة بن حصن — كانت حاضنة للنبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاة امه اسلمت قديما ، وهاجرت الهجرتين ، وماتت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة اشهر .

(٢) خاتم النبيين للشيخ محمد ابو زهرة ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

تعقيب على هذا الموقف :

لقد قضت مشيئة الله تعالى أن يهيىء له من جده عواطف ملتهبة بحبه تلك العـــواطف التى آثرته على بنيه ، ولم تكن العواطف المشبوبة بحبه هى كل ما أعد الله عبد المطلب وجهزه لرســوله صلى الله عليه وسلم فقد كان عبد المطلب سيدا فى قومه حكيما وحكما توكل اليه قضايا قومه فيحكم فيها الحكم الصائب الذى يتلقاه الطرفان بالرضا وكثيرا ما كان عبد المطلب يمارس القضاء ويحاور الخصوم وحفيده الى جانبه يستمع ويصغى فتتكون فى نفسه (من غير شعوره) ملكات القضـــاء والفصل ، ومهارات وصلاحيات التصدى لأعوص المشاكل واقتراح الحل الفورى الذى يســكت أصواتا تنادى بالحرب ويعصم دماء أوشكت أن يريقها شيطان التعصب وجنون التنافس البغيض • وأكبر مثال على صدى هذا الموقف فى المستقبل ــ ما كان منه صلى الله عليه وســلم يوم ذهب بهم النزاع على وضع الحجر الأسود موضعه حتى وقف بهم على شفير الحرب ، فيحســم محمــد بن عبد الله هذا الخلاف المستحكم فى لحظات ،ويصدر الحكم الذى يرضى الجميع وتمر الأزمة بسلام•

ودور الأب فى تكوين ملكات الابن دور أساسى فللون التربية التى يتلقاها الابن على يد الأبوين كما للبيئة من حوله أكبر الأثر فى تكوين ملكات الانسان وتلوين شخصيته سلبا وايجابا ، وهذا يؤكد ما ينبغى أن يكون بين الآباء وأبنائهم من عاطفة وثقة تجعلان جهاز الارسال وجهاز التلقى يعمــلان فى أحسن الظروف فيشب الأبناء غاية ما يكونون نضجا ووعيا وتوازنا • وهو ما تهيأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال جده الوقور فقد كان حنان عواطفه يغمر وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقف حائلا دون تسرب عقد تنتزع الثقة من نفس الحفيد •

لقد تجاوز عبد المطلب مع حفيده تلك الأعراف الشكلية ، التى ربما يخطئها الانسان فى قرارة نفسه لكنه لا يملك شجاعة اعتراضها وازاحتها من الطريق •

لقد استسلم عبد المطلب لمراسم تلك الأعراف مع بنيه ، لكنه حين وجدها ستعطل بعض ملكات حفيده المبارك أزاحها من طريقه ومكن حفيده بواسطة وسائل أخرى موضوعية من ممارســة ذاته وما تستعد له من رفيع المنصب وجليل الرسالة ويتمثل ذلك فى رفضه مثلا أن يحال بينه وبين حفيده خضوعا لذلك العرف الذى ينحى الصغار عن مشاركة الكبار على فراش الجلوس •

ولم يكن يغيب عن عبد المطلب ما يبدو على ابنه من مخايل النجابة وأمارات الرفعة ، فكــان ينتشى بذلك وتغمره عواطف الحب والحنو على حفيده فيعبر عن ذلك بقوله « دعوا ابنى فانه يحدث نفسه بملك » وذلك منه رعاية لمواهب ابنه وشحذا لتلك الهمة النادرة التى يلمح أماراتهــا بادية من خلال تصرفات الحفيد وجميع ما يصدر عنه ــ وذلك كله تدبير الله تعالى فى اعداد خاتم أنبيــائه بالوسائل المتاحة لتكتمل لديه عناصر القيادة والريادة ومهارات مواجهة أعوص المشــاكل بالحــلول الفورية التى تزيحها من طريق الناس •

في التهيئة المبدئية

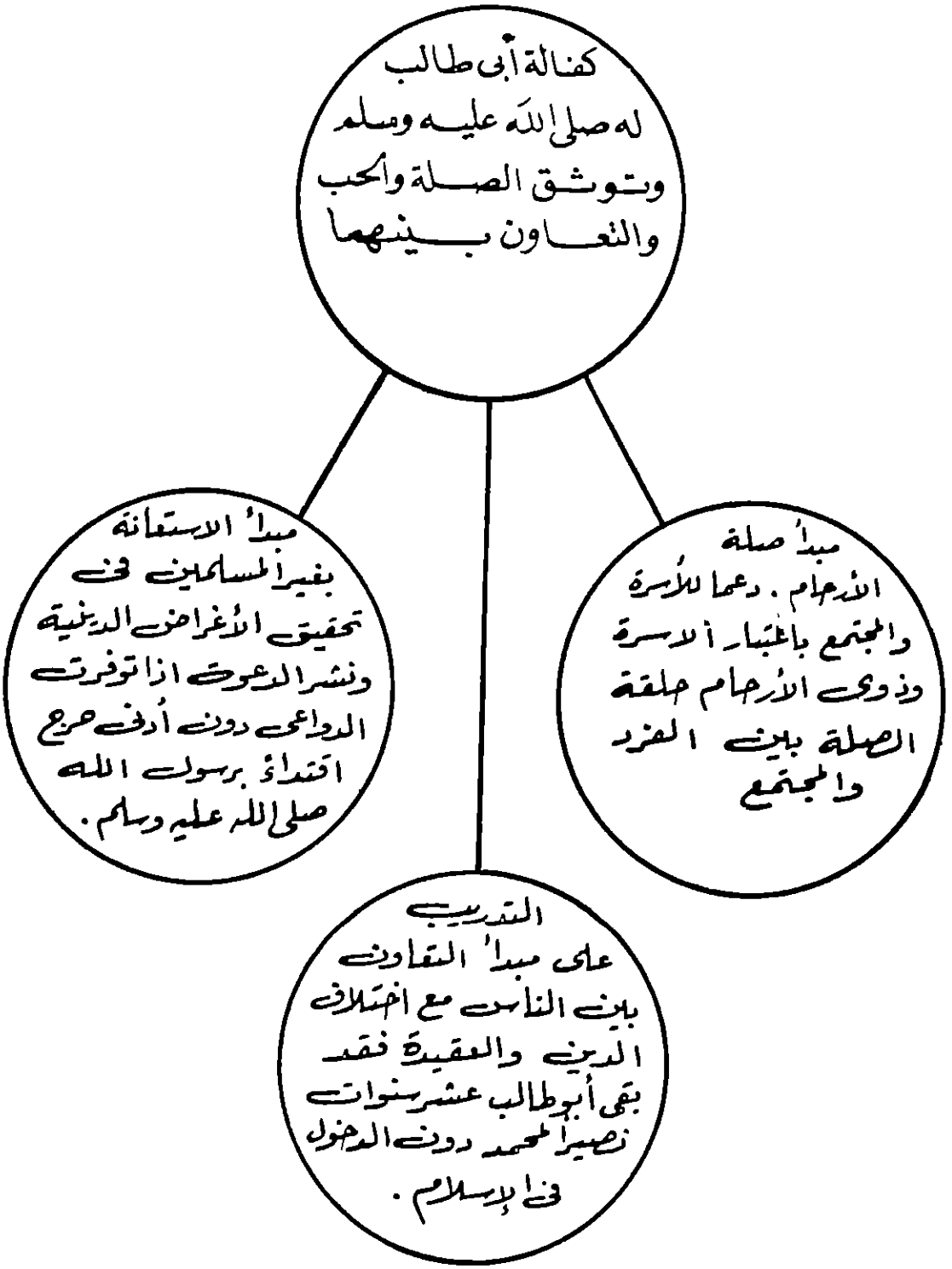

اتساع مجال التعاون بدءًا من ذوي الأرحام الى ذوي العقائد الأخرى ولو اتصل التعاون بشئون الدين

قال ابن اسحاق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده عبد المطلب — مع عمه أبى طالب لوصية عبد المطلب له به ، ولأنه كان شقيق أبيه عبد الله ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران ابن مخزوم • قال فكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اليه ومعه • وقال الواقدى : أخبرنا معمر عن ابن نجيح عن مجاهد ، وحدثنا معاذ بن محمد الأنصارى عن عطاء عن ابن عباس وحدثنا محمدبن صالح وعبد الله بن جعفر وابراهيم بن اسماعيل بن أبى حبيبة — دخل حديث بعضهم فى حديث بعض — قالوا — : لما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لامال له وكان يحبه حبا شديدا لا يحبه ولده ، وكان لا ينام الا الى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط ، وكان يخصه بالطعام وكان اذا أكل عيال أبى طالب جميعا أوفرادى لم يشبعوا ، واذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا ، فكان اذا أراد أن يغذيهم قال : كما أنتم حتى يأتى ولدى • فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم ، وان لم يكن لم يشبعوا فيقول أبو طالب : انك لمبارك • وكان الصبيان يصبحون رمصا (١) شعثا ، ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهينا كحيلا •

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا على بن ثابت عن طلحة بن عمرو ، سمعت عطاء بن أبى رباح ، سمعت ابن عباس يقول : كان بنو أبى طالب يصبحون رمصا عمصا ، ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم صقيلا دهينا • وكان أبو طالب يقرب الى الصبيان صفحتهم أو البكرة ، فيجلسون وينتهبون ، ويكف رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فلا ينتهب معهم ، فلما رأى ذلك عمه عزل له طعامه على حدة » • (٢) •

رعاية أبى طالب لمحمد صلى الله عليه وسلم

معنى ذلك أن أبا طالب قام بحق الوصية التى أوصاه بها والده عبد المطلب فكان يرعى محمدا حق الرعاية ، كان يصاحبه فى غدوه ورواحه ما أمكنت الصحبة ، وكان يختصه بمحبة لا يحب أولاده بمثلها • فكان لاينام الا بجواره فى منامه ، وقد لا حظ فيه يمنا لم يلاحظه من قبل وكان مثله كمثل حليمة وأولادهم ، اذ حل فيهم فشبعوا بعد جوع ودرت عليهم ناقتهم بعد أن جفت •

كان أبو طالب فى أزمة مادية ، فكان عياله اذا أكلوا لم يشبعوا واذا أكل معهم محمد الميمون شبعوا ، فكان أبو طالب اذا أراد أن يغذيهم قال لهم كونوا كما أنتم حتى يجىء ولدى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا جاء أكلوا معه ، فكان الطعام يفضل منهم ، واذا لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : « انك لبار » (٣) •

---

(١) المراد : احبه حبا شديدا ، والصبابة بالفتح : حرارة الشوق ورقته .

(٢) الرمص — بفتحتين : وسخ يجتمع فى موق العين ، وقد رمصت عينه من باب طرب ، فان سال فهو غمص وشعثا : جمع اشعث اى ثائر شعر الراس .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١ ص ٢٨٣ .

(٤) خاتم النبيين للشيخ محمد ابو زهرة ج ١ ص ١٧٥ .

الدروس المستفادة

والدروس المستفادة من كفالة أبى طالب ، للنبى — صلى الله عليه وسلم — وتوثق الصلة والحب والتعاون بينهما دروس كثيرة وهامة فى مجال القدوة البشرية لخير البشر • ويمكن هنا ايجاز أبرز هذه الدروس وأهمها فى الأمور التالية :

أولا : مبدأ صلة الأرحام ، فان من الملاحظ أن العرب رغم ما كانوا عليه قبل البعثة من ضلال وتيه ، فان فضلاءهم كانوا يحرصون على صلة أرحامهم ، ويمدحون من كان منهم وصالا لرحمه ، ويذمون قاطعها • ومن أدعيتهم المشهورة التى كانت تقوم لديهم مقام الشكر على الصنيع أن يقول الرجل منهم لصاحبه : « وصلتك رحم » •

تأتى أهمية صلة الأرحام ، من أنها الحلقة الأولى التى تربط الفرد بالمجتمع ، فأولو الأرحام هم أقرب أفراد المجتمع الى الشخص ، اذ هم كل من تربطه بالفرد صلة القرابة • ولذلك قال الله تعالى — فى القرآن :

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (١) •

وأقسم الله — سبحانه وتعالى — بالأرحام فقال :

« واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » (٢) •

على قراءة جر الأرحام • ووصم الله فى كتابه قاطع الرحم باللعنة والصمم والعمى فقال :

« فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم • أولئك الذين لعنهم الله فاصمهم وأعمى ابصارهم » (٣) •

والهدف الأساسى من ترسيخ مبدأ صلة الأرحام النهوض بالأسرة وتدعيمها بالجهود المتضافرة بين أفرادها ، وبالتالى تقوية أواصر المجتمع ، لأن المجتمع القوى ما هو الا مجموعة من الأسر القوية المترابطة بأقوى روابط المحبة والتعاون والايثار •

وتتجلى لنا صلة الأرحام كمبدأ فى هذه العلاقة القوية بين النبى — صلى الله عليه وسلم — وعمه أبى طالب ، فقد كفله أبو طالب صغيرا رغم كثرة عياله ، وقلة ذات يده ، بل لاحظنا من خلال

---

(١) الاحزاب ٦ .
(٢) النساء ١ .
(٣) محمد ٢٢ ، ٢٣ .

النصوص التى ذكرتها كتب السيرة أنه كان يخصه بلقب « ابنى » ، وظل حريصا على التمسك بهذه الأبوة الى آخر يوم فى حياته ، ورفض بشدة عروض قريش عليه بأن يسـلمه اليهم ، أو يتخلى لهم عنه .

كما تبدو هذه العلاقة قوية حانية فى معاملة النبى — صلى الله عليه وسلم — لعمه ، فقد ضم اليه أحد بنيه — هو على بن أبى طالب — ليخفف عن عمه بعض تكاليف الحياة ، وكان يناديه بقوله أى عمى وهو نداء القريب الحبيب الى أحب الناس اليه ، وآثرهم عنده ، وكان شـديد الرغبة فى اسلام عمه بعد البعثة ، وظل يأمل ذلك الى آخر لحظة فى عمر أبى طالب ، وكان يرى من باب صلة الرحم أن يدعو الله له بعد مماته ، بأن يغفر له . وقد نهى الله سـبحانه وتعالى عن ذلك بقـوله : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصـحاب الجحيم » (١) .

ولكن من الثابت كذلك أن خفف عنه العذاب بهذه الصلة القوية التى كانت بينه وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : — ومن الدروس المستفادة كذلك من هذه الصلة الوثيقة درس التمهيد لتطبيق مبدأ هام فى المستقبل هو مبدأ الاستعانة بغير المسلمين فى تأمين وسائل نشر الدعوة ، اذا توفرت الـدواعى لذلك ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد كان أبو طالب مشركا على دين قومه ، ومع ذلك أفاد الدعوة الاسـلامية بحمايته قائدها والدفاع عنه ، كانت قريش تخشى ان هى أقدمت على ايذاء النبى — صلى الله عليه وسلم ، أن يثير أبو طالب فى بنى هاشم جميعا العصبية القبلية . وقد بدا هذا الدفاع قويا عندما رفض أن يسـلم النبى اليهم رغم ما فرضته عليه وعلى أهله المقربين من حصار .

ويمكن التدليل على ثبوت هذا المبدأ اسـلاميا باستعانة النبى — صلى الله عليه وسـلم — بعبد الله بن أريقط ، وكان ماهرا عارفا بطرق الصحراء،فى اجتياز طريق الهجرة من مكة الى المدينة ، بعد أن تآمر عليه أهلها .

فعن عائشة — رضى الله عنها — فى حديث الهجرة — قالت : « استأجر النبى — صـلى الله عليه وسلم — وأبو بكر رجلا (٢) من بنى الديل (٣) هاديا خريتا — والخريت الماهر بالهـداية (٤)

---

(١) التوبة ١١٣ .

(٢) هو عبد الله بن اريقط كما فى كتب السيرة ، وكما ذكر ذلك شراح هذا الحديث .

(٣) الديل بكسر الدال فرع من فروع بنى عبد القيس ، احد احياء العرب .

(٤) المراد وثقا فيه ، حيث لا يشى بهما ، ولا يفشى سرهما لأحد . والا فليس كل كافر يستأمن على مثل هذه الأسرار الخطيرة .

وهو على دين كفـــار قريش فأمناه . » (١) والفقهاء يجيزون استئجار المشرك ، لكنهم يكرهون عمل المســـلم أجيرا عند الكافر (٢) ولعلها كراهة تنزيه الا اذا كان الكافر يرى فى ذلك اذلالا للاســـلام والمسلمين . أما الاستعانة بخبرته كاستعانة النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بموقف أبى طالب منه، وحبه له فى نشر الدعوة ، واستعانته بعبد الله بن أريقط فليس فيه وفيما يشبهه بأس أو حرج .

ثالثا ـــ ويرتبط بهذا المبدأ القوى درس ثالث ، هو درس فى التدريب على مبدأ ابقـــاء الباب مفتوحا للصلة بغير المسلمين ، واختيار أنسب الأشخاص والوسائل لدى الآخرين حظـــوة وقبـــولا وموضع الشاهد فى هذا الموقف هو أن أبا طالب بقى عشر سنوات كاملة نصيرا لمحمد دون أن يدخل فى الاسلام ، وجعل عدم دخوله فى الاسلام كان أفيد وأصلح للاسلام ، اذ لو أنه أسلم لمـــا وثقت فى وساطته قريش ، ولعاملته كرجل من المسلمين ، ولكنه ببقائه على شركه ظل محتفظا برصيد موفـــور من احترام قريش وحسن تقديرها ، وفى هذا ما فيه من القوة التى تجعله فى موقع يمكنه منه أن يعين ابن أخيه ويدافع عنه .

ومجمل الدرس الذى نرى استخلاصه من هذه المواقف يكمن فى أنه لا مانع لدى الاســـلام من مبدأ التعاون بين المسلم وغيره رغم اختلافهما فى الدين ، فان اختـــلاف الناس فى عقـــائدهم وأخلاقهم واختلافهم فى سلوكهم وطباعهم من الظواهر العامة ـــ المطردة قال ـــ تعالى ـــ « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . الا من رحم ربك ولذلك خلقهـــم ... » (٣) . وفى نفس الوقت فان الله دعا الناس جميعا الى التعارف بغية التعاون من أجل ازدهار الحيـــاة وتقدمها وسلامها وأمنها ، ورقيها ورخائها .

قال الله تعالى : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـــاكم شـــعوبا وقبـــائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ان الله عليم خبير » (٤) .

واذن فعلى المسلم أن يوازن ـــ فى اطار عقيدته ـــ بين ثلاثة أمور :

١ ـــ كون الاسلام هو الدين الحق الوحيد فى العالم كله الآن .

٢ ـــ الاعتراف بأن الناس جميعا لا يمكن أن يتفقوا على الدخول فى دين واحد .

٣ ـــ دعوة الجميع لأخوة الايمان أو التعايش الســـلمى الذى ترفرف عليه راية التعـــاون والتضافر من أجل سلام العالم ونشر العدل والحق والخير فيه .

---

(١) هذا ادراج فى الحديث من قول الزهرى ـــ رحمه الله .
(٢) فتح البارى جـ ٧ ص ١٦ ، ونيل الاوطار جـ ٥ / ٣١٦ .
(٣) هود ١١٨ ، ١١٩ .
(٤) الحجرات ١٣ .

ان سيدنا محمدا — صلى الله عليه وسلم — ظل حريصا على أن تكون حبال التعاون بينهما ممدودة ومحمودة فى نفس الوقت • كما ظل أبو طالب يكن لابن أخيه من المودة والاحترام ، ويبذل له من النصرة والتعاون ما هو جدير ، وظل النبى — صلى الله عليه وسلم — يتعاون مع عمه ويصله ويأمل أن يهديه الله الى الاسلام الى أن فارق الحياة وأطلق على العام الذى توفى فيه عام الحزن •

والمسلمون اليوم من واجبهم أن يشرحوا هذه الحقائق للآخرين عن طريق القدوة العملية ، وتحويلها الى واقع ملموس ، بين المسلمين أولا ، ثم بين المسلمين ككتلة واحدة لها قوتها وتفوقها ، وبين العالم ، على أمل فى هداية الله له مع بذل كل جهد فى تقديم كل نفع وعون له • بذلك يمكن أن يظهر المسلمون — بحق — كأصحاب رسالة عالمية هدفها سعادة العالم ، والأخذ بيده ، وتحريره من طغيان المادة وسيطرة الشهوات •

بيد أن هناك تحفظا يفرضه الواقع أحيانا لابد من رعايته فى تطبيق هذه القواعد ، ذلك أن الناس فى هذا العصر تفاوتوا فى درجة الابتعاد عن التعاون والحب والتواصل وسائر الخصال الحميدة التى أجمعت كل الاديان الصحيحة على وجوب التعامل بها بين الناس دون تفريق بسبب اختلاف العقيدة أو اللون أو الجنس ، بل وكثيرا ما حلت الأحقاد والأضغان محل الاخاء والتعاون بسبب اختلاف الدين ، بل وصلت درجة المخالفة للدين أن يصل العدوان الى حد القتل الجماعى والفردى على الهوية فى أكثر من مكان فى آسيا وأوربا وأفريقيا خصوصا بعض بلدان حوض البحر المتوسط ومن أشد دواعى الأسى والأسف أنه وجد فى هذه الظروف والمناطق قيادات دينية عليا فى أوربا تشجع هذا التدمير البشع للأسرة الانسانية بل وتعتبر ذلك جهادا مقدسا وتتخذ من القرارات الصريحة ما يحرم على القتلة والسفاكين التراجع عن هذه الجرائم •

والتحفظ الذى لابد منه ازاء هذه الحالات المنكرة فى الشذوذ حدده المنهاج الاسلامى وأدناه تجميد التعاون مع هؤلاء — لابسبب اختلاف العقيدة — ولكن بسبب الاخلال بالفطرة وقوانينها حين يطلب التعاون ممن يسفك الدم الحرام ، فهو أولا لن يستجيب ، واذا استجاب فهى استجابة الغادرين والماكرين ، ويستوى أمام هذا التحفظ المسلم وغير المسلم اذ لو صدر مثل ذلك من طائفة مسلمة ضد طائفة مسلمة مثلها لعوملت بنفس التحفظ فلا دخل للدين هنا ولكن السبب الأول والأخير هو العدوان والاجرام والقتل وسفك الدماء على هذا النحو الذى يبرأ منه كل دين •

ومن البدهى أن من واجبات المسلمين عرض حقيقة أنفسهم ودينهم وحرصه وحرصهم على السلام والتعايش الايجابى على مستوى الاسرة الانسانية كلها عسى أن يفيق الضالون ويفىء المعتدون •

المـوقف الثـامن

فى التهيئـة المبـدئيـة
الخـبرة الإقتصاديـة ومَهـارة الإتصـال

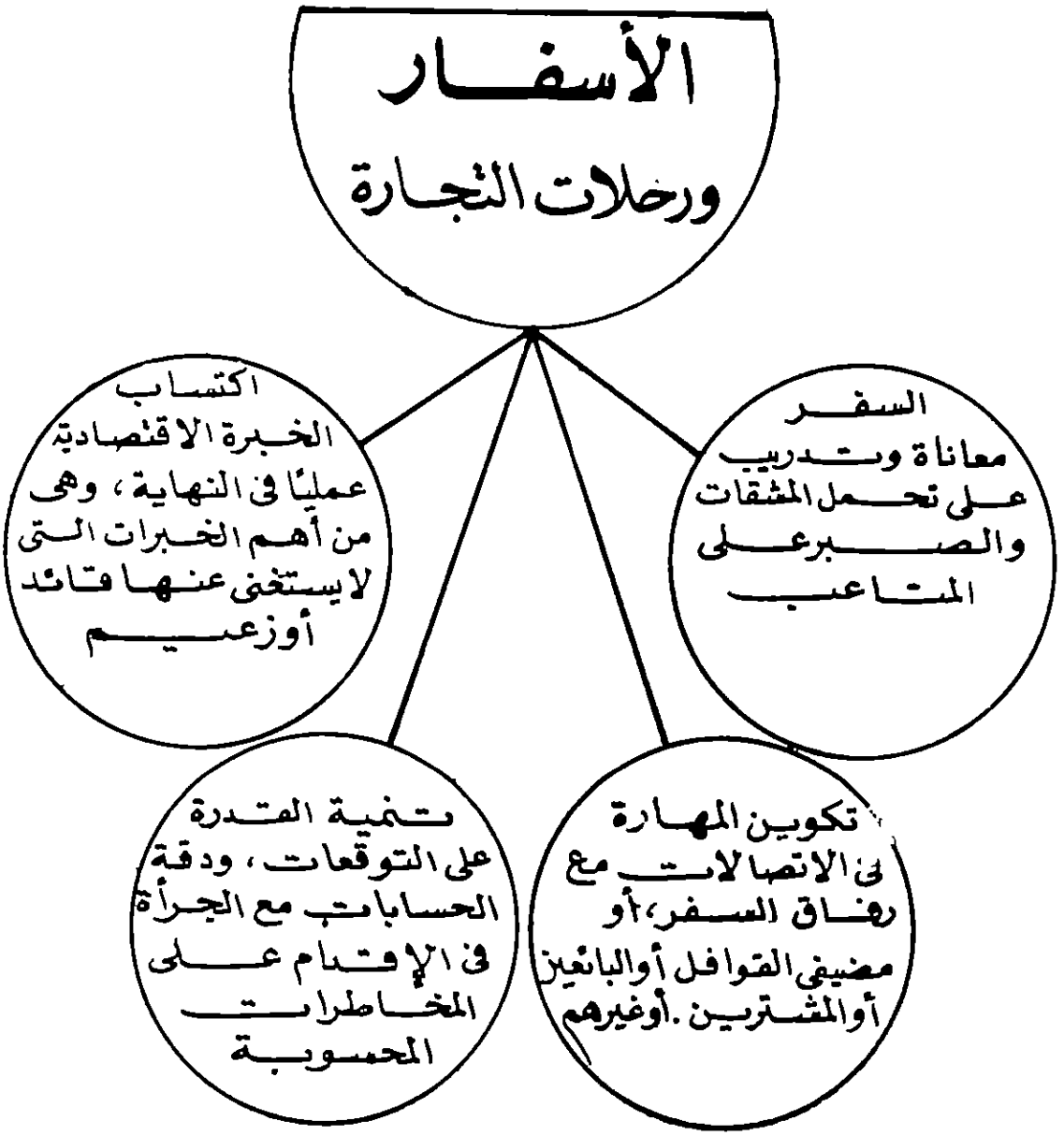

التجارة والاسفار عند قريش

المورد الاقتصادى لقريش :

لم تكن مكة بلـدا زراعيا ، كمـا أنهـا لم تكن بلـدا صـناعيا ، وانمـا كانت مثابة للناس وأمنا ، لأن الله سبحانه وتعالى فضلها على سائر البلاد بالبيت الحرام .

قال تعالى « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » (١) .

فكان الحجاج يأتون الى بيت الله الحرام بمكة ، يأتون اليه من كل فج عميق ، « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .. » (٢) .

فكان نتيجة لذلك أن أقيمت الأسواق فى مكة للتجارة واشتغل كثير من قريش بالتجارة ،

ثم كانت لهم تجارات أخرى خارج مكة أشار اليها القرآن الكريم فى قوله تعالى .

«لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خـوف » (٣) .

ففى الصيف يذهبون الى الشام لجلب الحاصلات الزراعيـة الى بلادهم المحـرومة منها وفى الشتاء يذهبون الى اليمن لجلب الأعطار التى تأتى من بلاد الهند والخليج الفارسى الى تلك البـلاد فكانت التجارة الخارجية سبيل الثروة عند كبار قريش وسادتها،أما الطبقة المتوسطة فكانوا يعملون فى التجارة الداخليـة وأما فقـراء قريش فكان مرتزقهم من النعم والا بل والبقر والغنم وقد كان العرب يحترمونهم فى أسفارهم لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة فيذهبـون آمنين سالمين لا يمسهم أحد بسوء .

فكان احترام البيت ضربا من القوة المعنوية التى تحتمى بها قريش فى الأسفار ولهذا ألفتهـا نفوسهم وتعلقت بالرحيل استدرارا للرزق » (٤)

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٥ .
(٢) سورة الحج : آية ٢٧ .
(٣) سورة قريش : الآية ١ — ٤ .
(٤) راجع تفسير المراغى ج ٣٠ ص ٢٤٦ ، وخاتم النبيين لأبى زهرة ج ١ ص ١٨٠ .

الاعداد بالأسفار والتجارات لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة حتى هيأ الله له سبيلا الى الأسفار والتجارات، وليس كالأسفار والتجارة شيء يكسب المهارات والخبرات فى مجال الاتصالات والتعود على المشقات وحسن الجوار .

فهذا الاتجاه فى هذا السن المبكر تهيئة مبدئية فى أعلى مستويات التدريب لما يستقبل الرسول صلى الله عليه وسلم فى مستقبل أيامه من واجبات الاتصال بالجماهير ورعاية شئونهم الاقتصادية والمعيشية ولسوف يتجلى مردود هذه الخبرة فى رعايته لأصحابه سواء فى مكة أو المدينة حين واجه بهم قريشا أو اليهود والمنافقين بالمدينة .

وفى هذا يقول ابن اسحاق : ثم ان أبا طالب خرج فى ركب تاجرا الى الشام فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير ، صب به (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما يزعمون — فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا أو كما قال : فخرج به (٢) معه فلما نزل الركب بصرى (٣) من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له ، وكان اليه علم أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط (٤) راهب اليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون ، يتوارثونه كابرا عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو فى صومعته يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى صومعته فى الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم ، قال ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه،فنظر الى الغمامة حتى أظلت الشجرة،وتهصرت (٥) أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، ثم أرسل اليهم فقال : انى قد صنعت لكم طعاما يامعشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم ، فقال له رجل منهم والله يابحيرى ان لك لشأنا اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر اليك كثيرا . فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى صدقت ! قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم فاجتمعوا اليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى فى القوم

---

(١) اى مال اليه ورغب .

(٢) وكان سن رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤهله اثنى عشرة سنة وقيل غير ذلك ، انظر الطبرى وشرح المواهب للزرقانى

(٣) بصرى : مدينة حوران فتحت صلحا لخمس بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وهى اول مدينة فتحت بالشام وقد وردها رسول الله مرتين .

(٤) اى الدهر .

(٥) تهصرت : مالت وانحنت .

لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده فقال يامعشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى قالوا له يابحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك الا غلام وهو أحدث القوم سنا فتخلف فى رحالهم فقال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم قال : فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى،ان كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام بيننائمقام اليه فاحتضنه(١) وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر الى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرى فقال له ياغلام أسألك بحق اللات والعزى الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، وانما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما ، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له لا تسألنى باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ، فقال له بحيرى فبالله الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه فقال له سلنى عما بدا لك فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده قال ابن هشام : وكان مثل أثر المحجم (٢) .

قال ابن اسحاق : فلما فرغ ، أقبل على عمه أبى طالب فقال له ماهذا الغلام منك ؟ قال ابنى ، قال له بحيرى ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا قال فانه ابن أخى قال فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك الى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به الى بلاده » (٣) .

وأيا ما كان مستوى درجة هذه الرواية ، فانها تكفى فى اعطائنا صورة لما كان يمكن أن يحدث فى مثل هذه الأسفار من الحوار والصلات والعلاقات على هذا النحو الذى تصوره لنا هذه الرواية ، وهذا وحده كاف فى الدلالة على مانريد .

وهذا ما حدا بكثير من العلماء الأجلاء أن يعالجوا هذه القصة بالدراسة والتحليل . وقد كتب الشيخ محمد أبو زهرة فى هذا الشأن ما نختار منه هذه العجالة :

نتائج هذه الرحلة :

أراد محمد صلى الله عليه وسلم من السفر أن يعرف الطريق والأسواق الخارجية للتجارة ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر لسادة قريش مكانة محمد صلى الله عليه وسلم فقد رأوا بأعينهم ماقاله بحيرى فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) احتضنه : لخذه من حضنه ، اى مع جنبه .
(٢) المحجم : الآلة التى يحجم بها يعنى الزر المحجمة القابضة على اللحم حتى يكون نائتا ، وانه كالقارورة او كبيضة الحمامة.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٨٢ .

محمد صلى الله عليه وسلم يشتغل بالتجارة :

اتجه محمد صلى الله عليه وسلم الى التجارة منذ بلغ البلوغ الطبيعى وقد ثبت فى المصادر التاريخية أنه زاول التجارة مع شريك أو شركاء ، وقد ثبت أنه كان شريكا للسائب بن أبى السائب واستراح الى شركته ، ورأى فيه ما يمازج أخلاقه ، وان لم يسم اليها ولكنه على أى حال رأى الشريك الأمين السمح فى معاملته وقد التقى به النبى صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة فرحب به ووفى له بحق الرفقة القديمة فى الاتجار ، وتلقاه مستبشرا مرحبا وقال له مذكرا بماضيه ليؤنسه فى حاضره : «مرحبا بأخى وشريكى ، كان لا يشارى ولا يمارى» (١)

الدروس المستفادة من أسفار النبى — صلى الله عليه وسلم — ورحلاته التجارية فى التهيئة المبدئية لتحصيل الخبرة الاقتصادية ومهارة الاتصال .

ويمكن اجمال هذه الدروس فى النقاط الرئيسة التالية : —

أولا : — من المعلوم أن السفر — فى كل عصر — معاناة ، وخصوصا فى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم وما سبقه من عصور ، ولا سيما فى البيئات الصحراوية ، فى ظلال نظام قبلى همجى وفى ظروف اجتماعية واقتصادية قاسية . ولقد أفاد هذا السفر الشاق على متون الابل وفى بحار الصحراء الواسعة ، فى تهيئة النبى — صلى الله عليه وسلم — على تحمل المشقات والصبر على المتاعب ، ولذلك كان يقول : « السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه فاذا قضى أحدكم مهمته من وجهه فليعجل الى أهله » (٢) .

ثانيا : — وعن طريق الأسفار ورحلات التجارة تكونت لديه — صلى الله عليه وسلم — منذ صغره مهارات فى كيفية اتصاله برفاقه فى السفر ، وحسن معاملتهم ، ومشاركتهم فيما يتعرضون له ، والتعرف على أخلاق التجار ، وما فى بعضهم من جشع وطمع ، وما فى بعضهم من سماحة ورفق وقناعة ورضا ، وكذلك ساعدت فى تكوين المهارات الهامة فى كيفية اتصاله بمضيفى القوافل التجارية كبحيرى الراهب الذى استضاف رفاق النبى وعمه أبا طالب فى أول رحلة رحلها النبى صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب ، ثم سأل عمن تخلف عن ضيافته ، فأحضره القوم اليه ، فعرف فيه أوصاف النبى المنتظر ، وبشر بذلك عمه أبا طالب ، وحذره من أعدائه وشانئيه . أضف الى ذلك أن هذه الرحلات التجارية أكسبته مهارة منذ صباه فى التعرف على سلوك البائعين والمشترين وغيرهم من رواد الأسواق التجارية من السماسرة والناجشين ومتلقى الركبان ، ومحفلى الابل والبقر والشياه ، والبائعين ماليس عندهم ، وكيفية التبايع بمجرد النبذ بالحصى ، ولذلك كان يقول : «خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق » (٣) فكان من أعظم الاعداد أن يتعرف الرسول صلى الله عليه وسلم كل هذه الصور من

---

(١) خاتم النبيين لأبى زهرة ج ١ ص ١٨٨ ، ومعنى لايشارى ولايمارى انه لايجادل فى الشراء ولا يخفى الخبيث من البضائع ويظهر الطيب ممارادّ فى تجارته .

(٢) رواه الامام مسلم فى صحيحه ، باب السفر قطعة من العذاب .

(٣) رواه ابن حبان والطبرانى والحاكم ، راجع الكنز الثمين فى احاديث النبى الأمين لأبى الفضل عبد الله بن محمد بن الصديق الحسنى .

المعاملات التى عالجها التشريع الاسلامى مستقبلا كى يعلمها للناس من أدق زوايا تطبيقها •

ثالثا : — ومن الدروس المستفادة من أسفاره — صلى الله عليه وسلم — ورحلاته ، انها نمت فيه القدرة على التوقعات المنتظرة فى ارتفاع الاسعار وانخفاضها ، ودقة حساباتها عند البيع وعند الشراء ، مع الجرأة فى الاقدام على المخاطرات المحسوبة ، حيث ينبغى عليه أن يبيع بالسعر المناسب ، ويشترى بالسعر المناسب ليحقق من وراء ذلك ربحا معقولا يتساوى مع المشقات والمخاطر التى تحملها ، ولذلك فقد كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يربح الضعف ، ولم يعرف عنه أنه خسر صفقة من الصفقات ، ولقد وصف ميسرة أخلاقه فى التجارة والمعاملة للسيدة خديجة مما زادها اعجابا به •

قال ابن اسحاق : « فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا »

رابعا : كما أن هذه الأسفار والرحلات التجارية ، أفادت فى اكتساب — النبى صلى الله عليه وسلم — الخبرة الاقتصادية بطريقة عملية ، والخبرة الاقتصادية من أهم الخبرات التى لا يستغنى عنها قائد أو زعيم • ففى خلال الرحلات التجارية كان يتعلم ما يكفى عدد المشتركين فى القافلة من زاد ، وما يحتاجون اليه من طعام أو شراب ، وفى السوق يتعلم ما يفيض لدى بعض الأمم وماتحتاج اليه أمم أخرى ، وأهم ماتنتجه بلاد معينة وأهم ماتحتاج اليه ، الى غير ذلك من المهارات الاقتصادية • وقد كان لهذه الخبرات الاقتصادية مردودها التاريخى فى حياة صاحب الرسالة فيما بعد ، فقد استطاع النبى — صلى الله عليه وسلم — بمهارته أن يدرك عدد الجيش فى غزوة بدر بمجرد معرفته لعدد الجزور التى تذبح لهم (١) وكان يخرص ما على النخل من ثمار أو على الشجرة من عنب فلا يخطىء •

والى جوار هذه التهيئة التى ترتبط بنظام الأسباب والمسببات وتتجلى فيها نتائج الأسوة الحسنة اذا أحسن الناس فقهها وتقليدها ومحاكاتها • •

الى جوار هذه التهيئة المرتبطة بالاكتساب توجد تهيئة للنبى من لدن ربه بالهبة لا دخل فيها للبشر ، ومع أن هذه التهيئة فوق أن يحيط بها علم الانسان الا أنها تربطه دائما بالله ، وتذكره باللجوء اليه ، اذ لا يتم شىء صغير أو كبير الا وفق مراده وبمشيئته •

وفى الموقف التالى نورد بسرعة ما يشير الى هذه الحقيقة :

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦١٦ •

التذكير بالجانب الالهى فى عملية

التهيئة والاعداد بالحفظ

الى جانب الأخذ بالأسباب المتاحة للقدوة البشرية فى الاعداد لابد من تذكرنا دائما أن كل شىء بارادة الله ومن هنا نلتمس منه العون فى كل خطوة فى تربية الأبناء وتوجيه الشباب .

منشؤه عليه الصلاة والسلام ومرباه

وكفاية الله له ، وحياطته ، وكيف كان يتيما فآواه ، وعائلا فاغناه

قال محمد بن اسحاق : فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لمـــا يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما حتى ما اسمه فى قومه الا الأمين ، لمـــا جمع الله فيه من الأمور الصالحة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر لى — يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته أنه قال :«لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان ، كلنا قد تعرى ، وأخذ ازاره وجعله على رقبته يحمل الحجـــارة ، فانى لأقبل معهم كذلك وأدبر ، اذ لكمنى لا كم ما أراه — لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك ازارك . قال فأخذته فشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وازارى على من بين أصحابى » . وهذه القصة شبيهة بما فى الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل الحجارة هو وعمه العباس ، فان لم تكنها فهى متقدمة عليها كالتوطئة لها ، والله أعلم .

قال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرنى عمرو بن دينار :أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: لمـــا بنيت الكعبة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة . فقال العباس لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعل ازارك على عاتقك من الحجارة ففعل،فخر الى الأرض وطمحت عيناه الى السماء ، ثم قام فقال : « ازارى » فشد عليه ازاره . أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق: وأخرجاه أيضا من حديث روح بن عبادة عن زكرياء بن اسحاق عن عمرو بن دينار عن جابر نحوه .

وقال البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو سعيد بن أبى عمرو قالا : أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا محمد بن اسحاق الصاغانى ،حدثنا محمد بن الحضرمى حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله الدشتكى ، حدثنا عروه بن أبى قيس عن سماك عن عكرمة ، حدثنى ابن عباس عن أبيه: أنه كان ينقل الحجارة الى البيت حين بنت قريش البيت ، قال : وأفردت قريش رجلين : الرجـــال ينقلون الحجارة ، وكانت النساء تنقل الشيد،قال فكنت أنا وابن أخى ، وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة ، فاذا غشينا الناس ائتزرنا . فبينما أنا أمشى ومحمد أمامى — قال — فخر وانبطح

على وجهه ، فجئت أسعى وألقيت حجرى وهو ينظر الى السماء ، فقلت ما شأنك ؟ فقام وأخذ ازاره وقال : «انى نهيت أن أمشى عريانا» • قال وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون • وروى البيهقى من حديث يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق ، حدثنى محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب عن أبيه عن جده على بن أبى طالب ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يهمون به الا ليلتين ، كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما • قلت ليلة لبعض فتيان مكة — ونحن فى رعاء غنم أهلها — فقلت لصاحبى: أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى • قال فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفا بالغرابيل والمزامير فقلت ما هذا ؟ قالوا تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على ••» (١)

هذا وقد آثرنا أن نأخذ هذه النصوص من الامام ابن كثير لأنه أقرب الى التحفظ والتحقيق فى الروايات،ومع ذلك فانسياق ابن هشام لهذه الروايات قد حظىمن صاحب الروض الأنف بالتعليق والتحقيق وهذا هو نص عبارته :

حفظ الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى الصغر : وذكر ما كان الله سبحانه وتعالى يحفظه به أنه كان صغيرا يلعب مع الغلمان ، فتعرى فلكمه لاكم • الحديث • وهذه القصة انما وردت فى الحديث الصحيح فى حين بنيان الكعبة ،وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ينقل الحجارة مع قومه اليها ، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — يحملها على عاتقه ، وازاره مشدود عليه ، فقال له العباس رضى الله عنه : يابن أخى ! لو جعلت ازارك على عاتقك ، ففعل فسقط مغشيا عليه ، ثم قال : ازارى ازارى ! فشد عليه ازاره ، وقام يحمل الحجارة ، وفى حديث آخر : أنه لما سقط ، ضمه العباس الى نفسه ، وسأله عن شأنه ، فأخبره أنه نودى من السماء : أن اشدد عليك ازارك يامحمد • قال : وانه أول ما نودى • وحديث ابن اسحاق ، ان صح أنه كان ذلك فى صغره ، اذ كان يلعب مع الغلمان : فحمله على أن هذا الأمر كان مرتين : مرة فى حال صغره ، ومرة فى أول اكتهاله عند بنيان الكعبة • (٢)•

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٢) الروض الأنف للسهيلى ج ١ ص ٢٠٩ .

في التهيئة المبدئية
الخبرة العسكرية وماتستلزمه من كفاءات مدنية

الاعداد والتدريب على المهارات العسكرية

حرب الفجار

قال ابن هشام : فلما بلغ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أربع عشرة سنة ، أو خمس عشرة سنة ــ فيما حدثنى أبو عبيدة النحوى ، عن أبى عمرو بن العلاء ــ هاجت حرب الفجار بين قريش ، ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان .

سببها: وكان الذى هاجها أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة بن معاوية بن هوازن ، أجار لطيمة ــ أى تجارة ــ للنعمان بن المنذر ، فقال له البراض بن قيس ، أحد بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة : أتجيرها على كنانة ؟ قال : نعم ، وعلى الخلق ، فخرج فيها عروة الرحال ، وخرج البراض يطلب غفلته حتى اذا كان بتيمن ذى طلال بالعالية ، غفل عروة ، فوثب عليه البراض ، فقتله فى الشهر الحرام ، فلذلك سمى : الفجار (١) .

ويقول الامام السهيلى عن سبب هذه التسمية :

والفجار بكسر الفاء بمعنى : المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وذلك أنه كان قتالا فى الشهر الحرام ، ففجروا فيه جميعا ، فسمى : الفجار (٢) .

ويهمنا من ذكر هذه الحرب ما تدل عليه من استكمال جوانب الاعداد والتهيئة والتدريب الذى يراعى ما ينتظر الرسول صلى الله عليه وسلم مستقبلا من دواعى الجهاد والحرب والقتال دفاعا عن النفس والعقيدة اعلاء لكلمة الله سبحانه .

دور القيم فى انهاء هذه الحرب

على أن هناك حادثة وقعت فى العام التالى لحرب الفجار تعتبر كالخاتمة لها وقد ذكرها ابن كثير ونحن نوردها لما لها من دلالة التأثير المتبادل من البيئة ، فقد تواعد الفريقان المتحاربان على اللقاء للحرب بعد سنة ، وقد كان فى حجر أبى سفيان بن حرب بن أمية رئيس قريش وكنانة

---

(١) الروض الانف للسهيلى جـ ١ ص ٢٠٩ .

(٢) نفس المصدر وقد قال ابن اسحاق : هاجت حرب الفجار ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة .

غلام يتيم هو عتبة(١) بن ربيعة وكان يحبه ويشفق عليه من خروجه معه للحرب فى الموعد المضروب لها فى نهاية حرب الفجار ، لكن شاء الله أن تنتهى هذه الحرب بالصلح على يد هذا اليتيم .

يقول الامام ابن كثير فيما يرويه عن السهيلى : ؟

ثم تواعدوا من العام المقبل الى عكاظ ، فلما توافوا الموعد ركب عتبة بن ربيعة جمله ،ونادى : يامعشر مضر أعلام تقاتلون ؟ فقالت له هوازن : ماتدعو اليه ؟ قال الصلح ، قالوا وكيف ؟ قال ندى قتلاكم ونرهنكم رهائن عليها ، ونعفو عن دمائنا . قالوا ومن لنا بذلك ؟ قال أنا ،قالوا ومن أنت ؟ قال عتبة بن ربيعة ، فوقع الصلح على ذلك ، وبعثوا اليهم أربعين رجلا ، فيهم حكيم بن حزام،فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهائن فى أيديهم عفوا عن دمائهم ، وانقضت حرب الفجار (٢) .

ان هذه الحادثة تحتاج الى وقفة تحليلية كى نتتبع تأثيرها وتأثرها وأوجه الشـــبه فى اليتم والقيم الرفيعة والرغبة فى السلام والخير والاصلاح بين الناس . والخلاصـــة أن بعض عـــوامل البيئة التى هيأها الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانت مجالا خصبا للتدريب على مختلف المهمات والواجبات التى لابد أن تكون فى مستقبل الدعوة التى يهيأ لها هذا النبى الكريم .

واذا كان هذا الشاب اليتيم (عتبة بن ربيعة) قد استوقفنا بأخلاقه وقيمه فى الصـــلح بين الناس وانهائه لحرب الفجار على النحو الذى سلف ذكره . فان عالمـــا واسعا وشـــاملا من مكارم الأخلاق والقيم الرفيعة نراه فى حلف الفضول الذى شهده رسول الله صـــــلى الله عليه وســـلم حقيقة مشرقة فى البيئة التى عاشها ، وظل يعتز به بعد الاسلام ويثنى عليه وقد تناول الامام ابن كثير حكاية قصة الحلف فى الفصل التالى .

يقول المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه « خاتم النبيين » عند ذكره عمر النبى صلى الله عليه وسلم (٣) .

وهنا نسأل ماذا كانت سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الحرب ؟ وماذا كان عمله فيها ؟ وما الذى حمله على الذهاب اليها ؟

---

(١) عتبة بن ربيعة بن شمس ، أبو الوليد ، كبير قريش ، واحد سادتها فى الجاهلية ، كان موصـــــوفا بالرأى والحـــــلم والفضل ، خطيبا ، نافذ القول تشا يتيما فى حجر حرب بن امية ، واول من عرف عنه توسيطه للصلح فى حرب الفجار (بين هوازن وكنانة) وقد رضى الفريقان بحكمه وانقضت الحرب على يده ، وكان يقال لم يسد فى قريش مثله (غير) الا عتبـــة وابو طالب ، فانهما سادا بغير مال .

ادرك الاسلام ، وطفى ، فشهد بدرا مع المشركين ، وكان ضخم الجثة عظيم الهامة ، طلب خوذة يلبسها يوم بدر فلم يجـــد ما يسع هامته فاعتجر على رأسه بثوب له وقاتل قتالا شديدا فاحاط به على بن ابى طالب والحمـــــزة وعبيدة بن الحارث فقتلوه الاعلام للزركلى ج ٤ ص ٣٥٩ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٣) ج ١ ص ١٩٢ .

أما من ناحية سنه فيقول : ان ابن هشام يقول فى سيرته أن سنه كانت بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، ويقول ابن اسحاق انه كان فى العشرين من عمره الكريم .

ولا تجد لاحدى الروايتين ترجيحا على الأخرى الا أن يكون سند ابن اسحاق قويا ، فلقد قال الشافعى رضى الله عنه « الناس فى السيرة عيال على ابن اسحاق » ولعله يكون مما يقوى خبر ابن هشام عن السيرة أن أعمام النبى صلى الله عليه وسلم أخذوه فى هذا اليوم فهذا يدل على أنه لا يزال حدثا ، ومن بلغ العشرين يكون رجلا ومهما يكن ، فاننا نرى أنه كان ابن عشرين ، كما يدل على ذلك ما يجىء فى حلف الفضول .

ومع أنه بلغ العشرين لم يقدم على القتال ، لأنها ليست حربا عادلة وفطرة محمد السليمة ما كانت لتسمح له بأن يقاتل فى حرب فاجرة انتهكت فيها الحرمات من الجانبين فكلاهما آثم ، فكيف يشترك الطاهر المطهر الذى رباه الله تعالى على عينه ، فى حرب خالطها الاثم فى سببها وفى زمانها وفى وقائعها ؟ لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحرب الا أنه شهدها بعد أن حمى وطيسها ، وكان ذلك بسبب أعمامه الذين اشتركوا فيها ولعله كان يود مشاهدتها ، لأن له قلبا طاهرا لا يسكن والناس فى كرب ، فكان يشاهد ، وان لم يقم بعمل فيه حرب ولقد قال عليه السلام فى عمله الدافع للأذى وليس فيه أحداث : « كنت أنبل على أعمامى » أى أمنع النبل عن أعمامى فهو كان درعا واقية لأعمامه فلم يغمس يده فى حرب الا أن يكون واقيا لذوى رحمه الذين رعوه حق الرعاية .

الدروس المستفادة من مشاهدة النبى — صلى الله عليه وسلم — حرب الفجار ، ودور ذلك فى التهيئة المبدئية للخبرة العسكرية ، وما تستلزمه من كفاءات مدنية خاصة

وأهم هذه الدروس ما يلى :

أولا : فى المشاهدة لهذه الحرب ما يفيد تهيئة النبى — صلى الله عليه وسلم وتدريبه على ما سوف ينتظره مستقبلا من دواعى الجهاد والحرب والقتال دفاعا عن النفس والعقيدة اعلاء لكلمة الله ، وما يستتبع ذلك من الدفاع عن العرض والمال والوطن ، لأن المؤمن ينبغى أن يكون قويا ، لأن الأعزل ضعيف قد يهزمه الباطل القوى ، بينما القوة أساس ضرورى لحماية الحق والزود عنه ، وبها يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق . ومن الكلمات المأثورة للنبى — صلى الله عليه وسلم — فى هذا المجال قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير » (١) .

ثانيا : الكفاءة فى الدفاع عن النفس والعقيدة والمال والعرض والوطن ، تستلزم بالضرورة تحصيل أسبابها المختلفة ، ومن أهم أسبابها القوة الاقتصادية التى يكون بها الاعداد ، وشراء

(١) الحديث رواه مسلم فى باب الأمر بالقوة ج ٢ ص ٤٦١ طبعة الحلبى .

تستلزمات الجهاد ، اذ بغير القوة الاقتصادية يكون قصور الدفاع . ومن أوضح النماذج على ذلك ما حدث فى مستقبل الرسالة ، حين كان الرجل من فقراء المسلمين يأتى الى النبى — صلى الله عليه وسلم راغبا فى الجهاد والتضحية فى سبيل الله ، فيعتذر اليه النبى صلى الله عليه وسلم بأنه لايجد ما يحمله عليه الى ميدان المعركة ، فيرجع المؤمن باكيـا حزينا لأنه لا يملك ما يعينه على المشاركة فى الجهـاد . ؟

وقد سجل القرآن ذلك ليكون درسا مستفادا فى اعداد العدة لملاقاة أعداء الله قال الله تعالى — « ليس على الضـعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقـون حرج اذا نصـحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقـون . انمـا السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » (١) .

وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجـاءته جماعة من أصحابه : فقالوا : يارسول الله احملنا فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملا (٢) الأمـر الذى يدل على أهمية القوة الاقتصادية بجانب قوة العقيدة ، والخبرة القتالية فى ملاقاة اعداء الله .

---

(١) التوبة ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ٣٨١ .

المـوقف العـاشر

في التهيئـة المبـدئيّـة

غرس قيم التضحية والفداء .. مصحوبة بضوابطها الأخلاقيـة

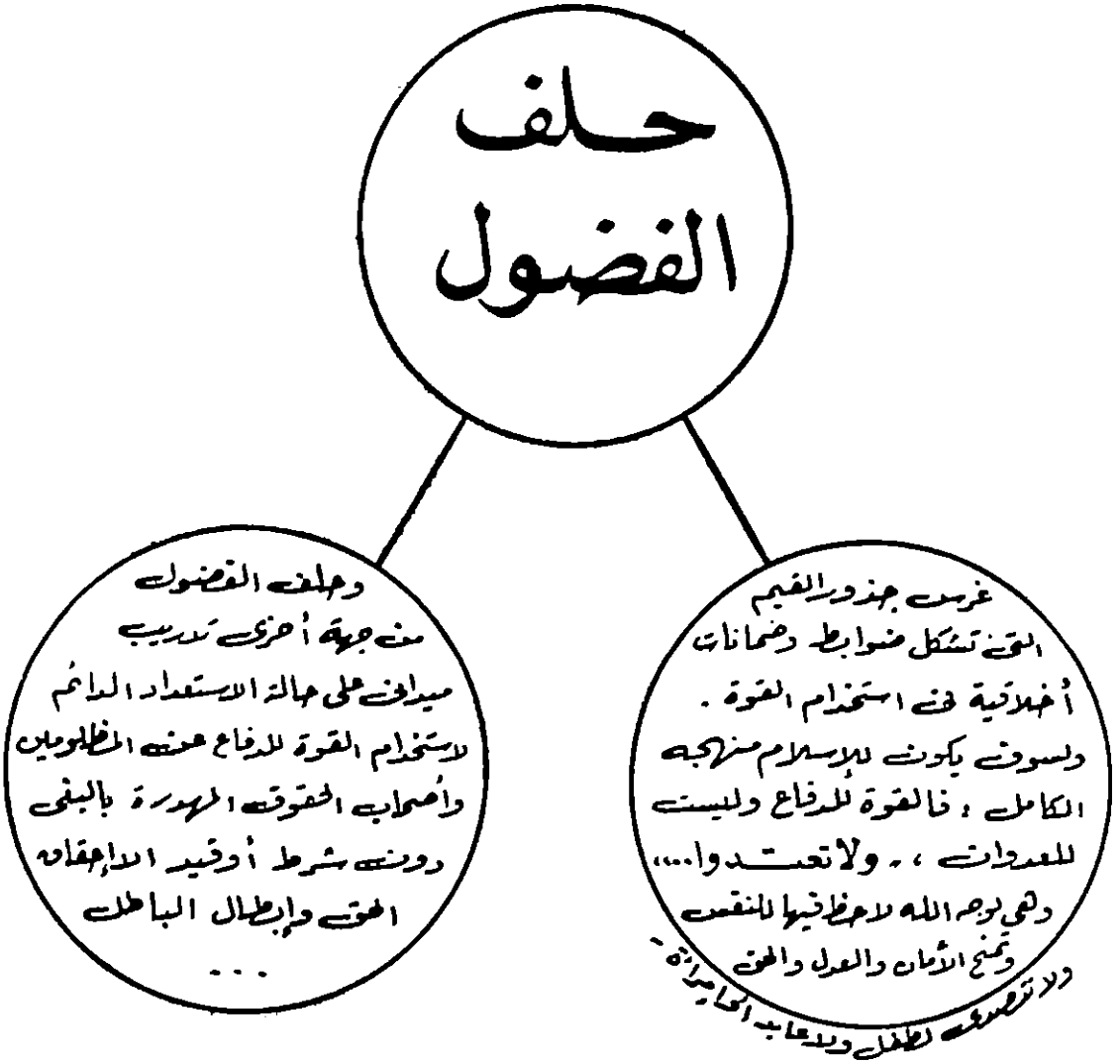

شهوده عليه الصلاة والسلام حلف الفضول (١)

قال الحافظ البيهقى : أخبرنا أبو سعد الماليني ، أنبأنا أبو أحمد بن عدى الحافظ ، حدثنا يحيى بن على بن هاشم الخفاف ، حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدى ، حدثنا اسماعيل بن علية عن عبد الرحمن بن اسحاق عن الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شهدت مع عمومتى حلف المطيبين فما أحب أن أنكثه — أو كلمة نحوها — وأن لى حمر النعم » . قال وكذلك رواه بشر بن المفضل بن عبد الرحمن ، قال : وأخبرنا أبو نصر ابن قتادة ، حدثنا أبو عمرو بن مطر ، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن داود السمناني ، حدثنا معلى بن مهدى ، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما شهدت حلفا لقريش الا حلف المطيبين ، وما أحب أن لى حمر النعم وأنى كنت نقضته » . قال : والمطيبون : هاشم ، وأمية ، وزهرة ، ومخزوم . قال البيهقى : كذا روى هذا التفسير مدرجا فى الحديث ولا أدرى قائله ، وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول ، فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يدرك حلف المطيبين .

قلت : هذا لاشك فيه ، وذلك أن قريشا تحالفوا بعد موت قصى ، وتنازعوا فى الذى كان جعله قصى لابنه عبد الدار ، من السقاية ، والرفادة ، واللواء ، والندوة ، والحجابة ، ونازعهم فيه بنو عبد مناف . وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش ، وتحالفوا على النصرة لحزبهم ، فأحضر أصحاب بنى عبد مناف جفنة فيها طيب فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا ، فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت ، فسموا المطيبين كما تقدم وكان هذا قديما ، ولكن المراد بهذا الحلف حلف الفضول ، وكان فى دار عبد الله بن جدعان ، كما رواه الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابنى أبى بكر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الاسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعز ظالم مظلوما » .

قال السهيلى :

(١) سبب هذه التسمية : وذكر ابن هشام الحلف الذى عقدته قريش بينها على نصرة كل مظلوم بمكة قال : ويسمى حلف الفضول ، ولم يذكر سبب هذه التسمية ، وذكرها ابن قتيبة ، فقال : كان قد سبق قريشا الى مثل هذا الحلف جرهم فى الزمن الأول ، فتحالف منهم ثلاثة هم ، ومن تبعهم ، لحدهم : الفضل بن فضالة ، والثانى : فضل بن وداعة ، والثالث : فضيل بن الحارث . هذا قول القتبى . وقال الزبير : الفضيل بن شراعة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن قضاعة ، فلما اشبه حلف قريش الآخر فعل هؤلاء الجرهميين سمى : حلف الفضول ، والفضول : جمع فضل ، وهى اسماء اولئك الذين تقدم ذكرهم . وهذا الذى قاله ابن قتيبة حسن .

سبب آخر : ولكن فى الحديث ما هو اقوى منه واولى . روى الحميدى عن سفيان عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابنى ابى بكر ، قالا : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الاسلام لأجبت . تحالفوا ان ترد الفضول على اهلها ، وألا يعز ظالم مظلوما » ورواه فى مسند الحارث بن عبد الله بن ابى اسامة التميمى ، فقد بين هذا الحديث : لم سمى حلف الفضول .

تاريخ هذا الحلف وحرب الفجار : وكان حلف الفضول بعد الفجار ، وذلك ان حرب الفجار كانت فى شعبان ، وكان حلف الفضول فى ذى القعدة قبل المبعث بعشرين سنة . (الروض الانف ج ١ ص ١٥٥)

قالوا : وكان حلف الفضول قبل البعث بعشرين سنة فى شهر ذى القعدة ، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر ، وذلك لأن الفجار كان فى شعبان من هذه السنة ، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه فى العرب ، وكان أول من تكلم به ودعا اليه — الزبير بن عبد المطلب • وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدى الأحلاف : عبد الدار ومخزوما وجمحا وسهما وعدى بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص ابن وائل ، وزبروه — أى انتهروه ، فلما رأى الزبيدى الشر ، أوفى على أبى قبيس عند طلوع الشمس — وقريش فى أنديتهم حول الكعبة — فنادى بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ياللرجال وبين الحجر والحجر

ان الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك ، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاما وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدى اليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، ومارسى ثبير وحراء مكانهما ، وعلى التأسى فى المعاش • فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول (١) ، وقالوا لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر • ثم مشوا الى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها اليه • وقال الزبير بن عبد المطلب فى ذلك :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وان كنا جميعا أهل دار

نسميه الفضول اذا عقدنا يعزبه الغريب لذى الجوار

ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

وقال الزبير أيضا :

ان الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

---

(١) قيل : انما سمى حلف الفضول ، لأنهم تحالفوا على ان يردوا الفضول الى اهلها .

وذكر قاسم بن ثابت — فى غريب الحديث — : أن رجلا من خثعم قدم مكة حاجا — أو معتمرا — ومعه ابنة له يقال لها القتول ، من أوضأ نساء العالمين . فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه . فقال الخثعمى : من يعدينى على هذا الرجل ؟ فقيل له عليك بحلف الفضول . فوقف عند الكعبة ونادى يا آل حلف الفضول ! فاذا هم يعنقون اليه (١) من كل جانب ، وقد انتضوا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث فمالك ؟ فقال أن نبيها (٢) ظلمنى فى بنتى وانتزعها منى قسرا فساروا معه حتى وقفوا على باب داره فخرج اليهم ، فقالوا له أخرج الجارية ويحك ، فقد علمت من نحن وما تعاقدنا عليه ، فقال أفعل ، ولكن متعونى بها الليلة ، فقالوا لا — والله ولا شخب لقحة . فأخرجها اليهم وهو يقول :

راح صحبى ولم أحيى القتولا ... لم أودعهم وداعا جميلا
اذ أجد الفضول أن يمنعوها ... قد أرانى ولا أخاف الفضولا
لاتخالى أنى عشية راح الركـ ... ـب هنتم على أن لايزولا

وذكر أبياتا أخر غير هذه . وقد قيل انما سمى هذا حلف الفضول : لأنه أشبه حلفا تحالفته جرهم على مثل هذا ، من نصر المظلوم على ظالمه . وكان الداعى اليه ثلاثة من أشرافهم ، اسم كل واحد منهم فضل وهم الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث ، هذا قول ابن قتيبة . وقال غيره : الفضل بن شراعة ، والفضل بن بضاعة(٣) ، والفضل بن قضاعة . وقد أورد السهيلى هذا رحمه الله .

وقال محمد بن اسحاق بن يسار : وتداعت قبائل من قريش الى حلف ، فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه . وكان حلفهم عنده بنو هاشم ، وبنو المطلب وبنو أسد ابن عبد العزى وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لايجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس — الا كانوا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف — حلف الفضول .

وقال محمد بن اسحاق : فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمى ، أنه سمع طلحة ابن عبد الله بن عوف الزهرى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى به فى الاسلام لأجبت » (٤) .

وحتى نزيد الأمر الذى نقصد اليه ونعنيه بهذا الباب وضوحا نذكر أن المردود التأثيرى لحلف الفضول لم يقتصر على الجيل الذى عاصر هذا الحلف فقط ولا على الجيل الذى بعده ، وانما تخطاه الى أجيال الأحفاد على أرفع مستوياتها ، حيث ظهرت آثار هذه الحادثة الفذة فى موقف من مواقف الامام الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

---

(١) اى يمشون اليه ويسرعون الى نجدته .
(٢) نبيها : اسم لذلك الرجل المغتصب .
(٣) فى بعض النسخ : والفضل بن وداعة .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٩٣ .

قال ابن اسحاق : وحدثنى يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد الليثى أن محمد بن ابراهيم ابن الحارث التيمى حدثه أنه كان بين الحسين بن على أبى طالب وبين الوليد بن عتبه بن أبى سفيان — والوليد يومئذ أمير المدينة أمره عليها عمه معاوية بن أبى سفيان — منازعة فى مال كان بينهما بذى المروة فكان الوليد تحامل على الحسين فى حقه لسلطانه ، فقال له الحسين :

أحلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعون بحلف الفضول ، قال فقال عبد الله بن الزبير .

وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال — وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفى ، ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا .

قال : وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى فقال مثل ذلك وبلغت عبد الرحمن بن عثمان ابن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك .

فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضى » (١) .

الدروس المستفادة من اشتراك النبى — صلى الله عليه وسلم — فى حلف الفضول، من أجل التهيئة المبدئية لغرس قيم التضحية والفداء ، مصحوبة بضوابطها الأخلاقية

وأهم هذه الدروس ما يلى :

أولا : — يدل حلف الفضول على الفطرة السليمة لدى بعض الفضلاء من قبائل العرب ، الذين هم قوم النبى — صلى الله عليه وسلم — ولذلك فقد شكلوا قوة للدفاع عن القيم الأخلاقية ، وهذه نبتة طيبة لما سوف يكون عليه منهج الاسلام فى مستقبل صاحب الرسالة ، بل ومنهج الاسلام ككل فى مشروعيته للقتال . فانه يلاحظ أنه بينما كانت القوة تستخدم للسطو والنهب والسلب فى الجزيرة ، وللاستعمار ، والاستيلاء على مقدرات الشعوب فى خارجها كانت هذه الفئة القليلة تمثل شعاعا من ضوء وسط هذا الظلام الحالك ، لم يلبث أن انتشر وامتد حتى بدد دياجير هذه الظلمات ، وتغلب عليها ، وأزالها عن كثير من مواقعها .

ان القوة فى الاسلام ليست للعدوان ، بل هى قوة للدفاع وصيانة الحقوق . ولذلك قال الله — تعالى — « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . (٢) وهى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٩٣ الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٦ .

(٢) البقرة ١٩٠ ، قال ابن كثير : « اى قاتلوا فى سبيل الله ، ولاتعتدوا فى ذلك ، ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى — كما قاله الحسن البصرى — من المثلة والقتول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ، ولاقتال فيهم ، والرهبان واصحاب الصوامع وغيرهم » ج ١ / ٢٢٦ .

لا تستخدم لحظ النفس أو هواها بل لوجه الله بتحقيق الحرية للناس كل الناس ، لكى يختاروا ما ينفعهم ، وهى قوة الغرض منها نشر الأمان والعدل والحق ، ولا تتصدى للضعفاء كالأطفال أو العباد فى صوامعهم أو النساء اللائى لا يرفعن سلاحا ، ولا يشاركن فى قتال (١) .

ثانيا : — وفى حلف الفضول من جهة أخرى تدريب ميدانى على حالة الاستعداد الدائم ، من أجل استخدام القوة دفاعا عن المظلومين ، وأصحاب الحقوق المهدرة ، بالبغى عليها ، أو الانتقاص منها . دون قيد أو شرط الا احقاق الحق وابطال الباطل . وهذا ما كانت عليه الحروب الاسلامية فيما بعد . فحلف الفضول فى الواقع كان البذرة الأولى التى هيأ الله بها نبيه على غرس قيم التضحية والفداء المصحوبة بالضوابط الأخلاقية ، ولذلك لم يكن النبى — صلى الله عليه وسلم — يرى ما كانت عليه مبادىء هذا الحلف الا نقطة انطلاق للأغراض السامية لحروب الاسلام ، ويرى أن الحروب الاسلامية انما هى امتداد طبيعى لهذا الحلف ، وكان يقول : «لقد شهدت فى بيت ابن جدعان حلفا لو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت » (٢) .

---

(١) ورد فى هذا حديث صحيح رواه مسلم عن بريدة ، واخرجه الامام احمد . وفى نفس المعنى فى سنن ابى داود ، وفى الصحيحين .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ / ٢٩٣ .

التهيئة المبدئية. المسئولية الزوجية عن العقيدة والزوج والأبناء والأسرة

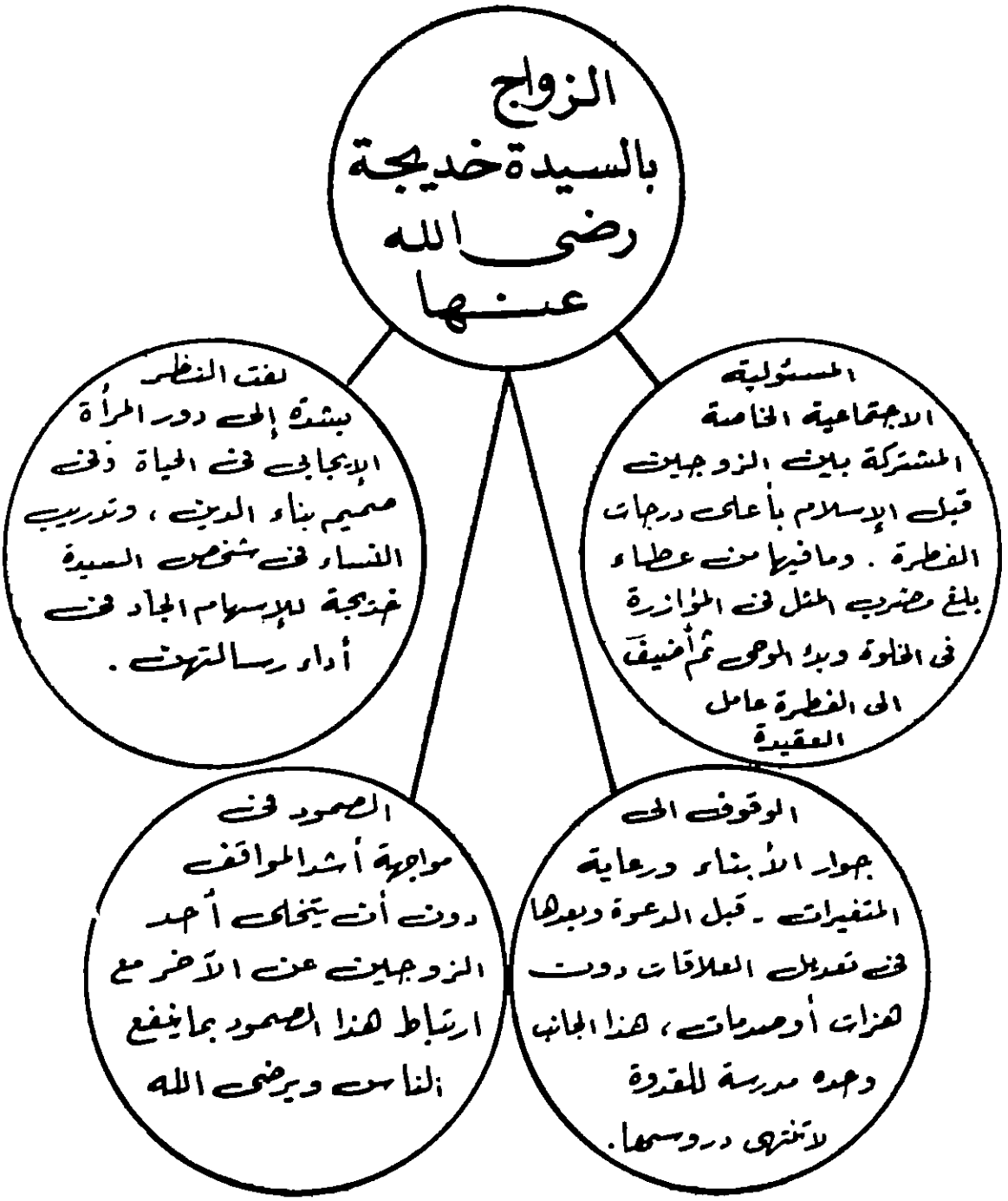

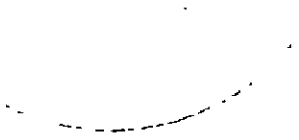

«الاعداد الاجتماعى الخاص بالزواج من السيدة خديجة رضى الله عنها»

الزواج سنة الحياة ، وأغلب الرجال يتزوجون ، فكيف نعتبر زواج الصادق الأمين — صلى الله عليه وسلم — بالسيدة خديجة — رضى الله عنها موقفا اعداديا فى مرحلة التهيئة المبدئية فى جانب المسئولية الاجتماعية الخاصة ؟

والجواب أن السبب فى اعتباره موقفا اعداديا يظهر من زوايا ثلاث : —

١ — زاوية المجتمع المكى نفسه ، الذى نظر الى الارتباط بالسيدة خديجة على أنه مطمح يتطلع اليه أقدرهم على المزايدة والتنافس ، ومع أن كل رجل منهم يتصور أنه الأكفأ والأفضل والأصلح بذل فى سبيل هذا المطمح كل ما يستطيع ، الا أنهم لم يصلوا جميعا الى تحقيق طموحهم ، ووفقا للقاعدة التى تقول : « كل ممنوع مرغوب » فقد ارتفعت وسمت فى أعينهم وتقديراتهم قيمة حيازة المسئولية عن السيدة خديجة حين تقبل أن يكون أحدهم مسئولا عنها بالزواج ، ومن هنا يكون احساسهم النفسى وادراكهم العقلى بعظمة المسئولية الاجتماعية الخاصة التى حازها الصادق الأمين ؛ محمد — صلى الله عليه وسلم — الزوج المتميز .

٢ — زاوية السيدة خديجة نفسها التى كان لها من عقلها وخلقها ومالها وجمالها ونسبها سلطة الموازنة حين يدرك المجتمع المكى كله اختيارها للصادق الأمين ، واقتناعها بأنه أفضل الرجال وأجدرهم بتحمل هذه المسئولية ، فهم يعرفون أن لرأى خديجة وزنا خاصا راجحا لايصدر الا عن روية وحكمة ، خصوصا وقد صادف هذا الرأى محله من وجهة نظرهم فلا يزال كل منهم — قبل البعثة — يعترف جهرا وبحماس شديد أن حفيد عبد المطلب هو أفضل شباب مكة على الاطلاق ، وان قلوبهم تلتف حوله ، وتقدره وتحبه .

٣ — زاوية سيدنا محمد نفسه — صلى الله عليه وسلم ، وهى أهم زاوية فى مقام التهيئة والاعداد حين يأنس هذا الاجماع على الثقة به فى أعلى درجاتها الاجتماعية الخاصة ، وما يترتب على الموقف الاجتماعى من مردود التجاوب الفطرى معه ، خصوصا مع ما عرف عنه — صلى الله عليه وسلم — من أصالة القيم ، ومكارم الخصال ، وحميد السجايا وأذن فهذا الزواج بتميزه وتفرده بهذه الخصائص ، كان من أهم مواقف التهيئة فى منهاج تحمل المسئولية .

ان زواج الرسول — صلى الله عليه وسلم — من خديجة ، كان من أعظم الأحداث التى تحمل فيها مسئولية ضنت بها خديجة على من سواه من سادات قريش وأبطالهم . لكن كان تقويمها للأمين محمد — صلى الله عليه وسلم — جد مختلف ، ومن هنا كانت تجربة رائعة أمام النفس وأمام المجتمع المكى كله أن يكون الفتى الهاشمى الأمين زوجا لخديجة بنت خويلد ، التى طالما تمناها كل من يأنس فى نفسه كمال المسئولية وتمام الشهامة والرجولة .

ومن هنا لم يكن هذا الزواج زواجا عاديا ، وانما كان نوعا خاصا من التدريب على تحمل أعلى درجة من المسئولية الأسرية الخاصة ، ومن وقائع الحياة التى عاشها الزوجان أثبتت هذه التجربة أن سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان فى ذروة التفوق والنجاح فى هذه التجربة بمالم يبلغها أحد وسوف نعرض هنا لبعض جوانب هذه التجربة ولكننا نرى أنه من المناسب قبل ذلك أن نذكر وقائع هذا الزواج كما ترويه السيرة المطهرة .

وقائع زواج النبى — من السيدة خديجة — كما ترويه كتب السيرة

فصل فى تزويجه صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى

قال ابن اسحاق : وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال على مالها مضاربة . فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مابلغها ، من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، بعثت اليه فعرضت عليه أن يخرج لها فى مال تاجرا الى الشام ، وتعطيه أفضل ما تعطى غيره من التجار — مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخرج فى مالها ذاك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى نزل الشام ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب الى ميسرة ، فقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقال ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ، فقال له الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة الا نبى . ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته — يعنى تجارته — التى خرج بها واشترى ما أراد أن يشترى . ثم أقبل قافلا الى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة — فيما يزعمون — اذا كانت الهاجرة واشتد الحر ، يرى ملكين يظلانه من الشمس ، وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ماجاء به فأضعف أو قريبا ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وعما كان يرى من اظلال الملائكة اياه ، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامتها . فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له — فيما يزعمون — يا ابن عم ! انى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك (١) فى قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، ثم عرضت نفسها عليه . وكانت أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا ، كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه ، فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها اليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام (٢) . قال ابن هشام : فأصدقها عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت (٣) .

---

(١) وسطتك : قال السهيلى : هى من الوسط ، وهو من اوصاف المدح والتفضيل .
(٢) قيل ان الذى انكح خديجة — عمها عمرو بن اسد ، والذى نهض مع رسول الله هو عمه ابو طالب .
(٣) البداية والنهاية ج ٢ ص ٣١٨ .

بعض جوانب تجربة الزواج من خديجة ، وكيفية تهيئتها النبى — صلى الله عليه وسلم — للدعوة

ونخص بالذكر هنا ثلاثة من هذه الجوانب رأينا لها أعظم الأثر فى هذا الاعداد لتحمل أعباء الرسالة .

أولا : — كان الاحترام والتعاون المتبادلين بين شريكى الحياة (النبى وزوجه خديجة) قبل النبوة وبعدها على أتم الصور وأجلها ، وبخاصة المؤازرة والمساندة فى اللحظات الحاسمة ، من بداية الوحى ، وهى مؤازرة نابعة من اقتناع كامل من جانب الزوجة بزوجها ، فان الزوجة من أدرى الناس وأعلمهم بطباع زوجها وميوله وأخلاقه ويدلنا على ذلك عدة أمور :

١ — كانت تعرف ميل النبى — صلى الله عليه وسلم — الى العزلة بعيدا عن الناس شهرا كل عام ، فكانت تشجعه على ذلك . بل ان بعض روايات السيرة تثبت أنها كانت أحيانا تذهب معه (١) . فهل كانت تذهب معه لتؤنسه وتذهب عنه ماقد يعتريه من وحشة ؟ أم كانت تذهب معه حباله ، واشفاقا عليه ، ورحمة به ؟ أم كانت تذهب معه لتعد له ماقد يحتاج اليه من طعام وشراب ؟

٢ — وتثبت كتب السيرة كذلك أنها أرسلت رسلها للبحث عنه عندما تأخر عن موعد رجوعه من خلوته . (٢) وهذا يدل على أنها كانت — تقدره وتحوطه بكل ما يمكنها من رعايةو محبة .

٣ — وعندما أخبرها بما رأى من أمر ربه ، لم تتردد فى تبشيره بأنه نبى هذه الأمة ، وأعلنت ايمانها به فى الحال ، وأخذته الى أحد أبناء عمومتها ممن لديهم شىء من علم الكتاب لتؤكد له صدق ايمانها به — كما ستتعرض لذلك قريبا بشىء من التحليل ، عند تناولنا للدروس المستفادة من تجربة الخلوة — وبنت هذا الاستنتاج على مقدمات يقينية عرفتها بالتجربة المباشرة من معاشرتها له — صلى الله عليه وسلم — قالت له : « والله لايخزيك الله أبدا ،انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (٣) .

وهذه اللاحظة البكر فى حياة الرسالة المحمدية تدل على مدى العناية الالهية فى الاختيار الربانى الموفق للسيدة خديجة بالذات ، فربما لو كانت امرأة مثل زوجة نوح أو زوجة لوط لتغير الموقف كله . لكن خديجة المؤمنة بالله ، المؤمنة فى نفس الوقت بجدارة زوجها بأن يكون نبى هذه الأمة ، لأنه أفضلها جميعا عن اقتناع وادراك لا عن عاطفة ورغبة موقوتة ، بموقفها هذا أعطت النبى — صلى الله عليه وسلم — زادا كبيرا من الثقة والقدرة على تحمل أعباء ما سوف يوكل اليه من مهام خطيرة وعظيمة لافى حياته أو حياة أسرته ، بل فى حياة الناس أجمعين . ومن لدن بعثته — صلوات الله وسلامه عليه — الى أن يحشر الناس لرب العالمين .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ / ٢٣٦ طبعة الحلبى الثانية ١٩٥٥ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ / ٢٣٧ طبعة الحلبى الثانية ١٩٥٥ م .
(٣) صحيح البخارى . كتاب بدء الوحى .

ثانيا : — انجابها الأولاد له ، وقيامها على رعايتهم ، واعدادهم أحسن اعداد . فقد أنجبت له جميع أولاده ، ماعدا ابراهيم الذى ولدته له مارية القبطية المصرية . وكان أول من ولد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمكة قبل النبوة القاسم وكان به يكنى فيقال له أبو القاسم ثم ولدت له زينب ، ثم رقية ، أم كلثوم ثم فاطمة ثم ولد له فى الاسلام عبد الله فسمى الطيب ، والطاهر ، وكان أول من مات من ولده القاسم ، ثم عبد الله ماتا بمكة . وكانت تسترضع لبنيها لينشأن فى صحة جيدة . وبالرغم من أن الذكور من أولادهما ماتوا جميعا قبل أن يدركوا الاسلام لصغرهم ، فان البنات جميعا ادركن الاسلام وأسلمن وهاجرن (١) .

وقد كان للسيدة خديجة — رضوان الله عليها — تأثير قوى فى غرس العقيدة فى نفوس بناتها، ويظهر ذلك بوضوح فى المواقف التالية :

١ — كانت رقية وأم كلثوم قد تزوجتا ولدين لأبى لهب . تزوج عتبه بن أبى لهب رقية . وتزوج عتيبة بن أبى لهب أختها أم كلثوم . فلما أنزل الله — تعالى — قوله : « تبت يدا أبى لهب وتب » (٢) . قال لهما أبوهما أبو لهب وامهما أم جميل بنت حرب بن أمية ، حمالة الحطب فارقا ابنتى محمد . وقال أبو لهب : رأسى من رأسيكما حرام ان لم تفارقا ابنتى محمد . ففارقاهما » (٣) .

ولا شك ان هذا الموقف من آل أبى لهب كان الغرض الأساسى منه ايذاء النبى — صلى الله عليه وسلم — فى أهله بتطليق ابنتيه فى وقت واحد ، ولكن السيدة خديجة واستهما وواست رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى تخطى الجميع هذه المحنة ابتغاء وجه الله .

٢ — ومن آثار هذه التربية الحسنة فى اعداد النشىء ، أن عثمان بن عفان رضى الله عنه عندما تزوج السيدة رقية بعد فراق عتبة لها — هاجر بها الى أرض الحبشة ، وولدت له ، وتحملت مع زوجها المسلم مضار الغربة ، وألم مفارقة الأهل والوطن .

٣ — كما يبدو هذا الأثر أكثر ما يكون وضوحا فى ابنتها الكبرى زينب بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد ربتها أحسن تربية فى بيت النبوة ، ثم سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، أن يزوجها أبا العاص بن الربيع ابن اختها هالة بنت خويلد ، وكانت السيدة خديجة تعتبره ولدها ، فزوجه الرسول ، وكان أبو العاص بن الربيع عند حسن ظن خالته خديجة به، وقد أثنى عليه النبى — صلى الله عليه وسلم — بعد ذلك ، عندما طلبت منه قريش أن يطلق زينب فرفض ، فأصيب فى الأسارى يوم بدر ، فكان بالمدينة عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم

---

(١) الارب للنويرى جـ ١٨ / ٢٠٨ طبعة مصورة من طبعة دار الكتب وسيرة ابن هشام جـ ١ / ١٩٠ — ١٩١ .
(٢) سورة المسد الآية الأولى .
(٣) نهاية الأرب جـ ١٨ / ٢١٢ . وسيرة ابن هشام جـ ٢ / ٦٥٢ .

قال ابن اسحاق : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عباد ، عن عائشة قالت : « لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم ، بعثت زينب بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى عليها . فلما رآها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رق لها رقة شديدة ، وقال : ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها ، فافعلوا فقالوا : نعم يارسول الله ، فأطلقوه ، وردوا عليها الذى لها » (١) .

ان هذا الوفاء للزوج ، وهذه الرقة من النبى — وهذه السماحة من أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — كلها أمور تستحق الوقوف معها بالدروس والتحليل ، ولكننا نركز كلامنا هنا على تأثير السيدة خديجة فى التهيئة الاجتماعية لسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيكفينا منها هذه النماذج الرائعة التى تشهد للسيدة خديجة بدورها العظيم فى هذا الاعداد .

ونمضى فى بيان هذا التأثير على زينب وأثره فى أبى العاص بن الربيع ، فان ابن اسحاق يروى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — فرق بين زينب وزوجها بسبب استمراره على دين قومه وأنه خرج يوما بتجارة لقريش مضاربا . وفى عودته هاجمته احدى سرايا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخذوا ما معه ، وفر هاربا ، ودخل على زينب فى جنح الليل ، فاستجار بها ، فأجارته . وفى صلاة الصبح أعلنت على المسلمين اجارتها اياه يقول ابن اسحاق : « فدخل — أى النبى — على ابنته فقال : أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلصن اليك ، فانك لا تحلين له . » ويمضى ابن اسحاق فى حديثه ليخبرنا أن النبى — صلى الله عليه وسلم — توسط له عند المسلمين لكى يردوا عليه ماله ان شاءوا فاستجاب المسلمون لرجاء الرسول وشفاعته ، وجمعوا له ماله . فلما عاد به الى مكة ، وسلم المال الى أصحابه أعلن اسلامه وقدم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فرد اليه زينب ، بنكاح جديد ، أو على النكاح الأول على خلاف فى ذلك بين المحدثين والفقهاء .

ثالثا — الجانب الثالث الذى نحب أن نشير اليه فى هذا المقام من جوانب تأثير زواج النبى — صلى الله عليه وسلم — من السيدة خديجة فى كيفية تحمله للمسئولية الاجتماعية الخاصة ونعنى بها جانب الارتباط بالعقيدة والقيم بين كل من الزوجين ، وبخاصة فى أوقات الشدائد والمحن ، التى تعرض لها النبى — صلى الله عليه وسلم — .

يذكر ابن هشام عن بعض أهل العلم أن أشد ما آذى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من قريش ، أنه خرج يوما ، فلم يلقه أحد من الناس الا كذبه وآذاه ، لاحر ولا عبد ، فرجع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى منزله فتدثر من شدة ما أصابه » (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ / ٦٥٣ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٢٩١ . وانظر جـ ١ / ٤٠٠ م .

ان النبى — صلى الله عليه وسلم — كان يجد فى مثل اللحظات القاسية من السيدة خديجة المواساة وكان يتذكر هذا منها : « آمنت بى اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها اذ حرمنى أولاد النساء » (١) وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى — صلى الله عليه وسلم — بشر خديجة ببيت من قصب (٢) ، لاصخب فيه ولا نصب » . (٣) ويذكر العلماء السبب فى أن بيتها فى الجنة على هذه الصفة ، بأن النبى — صلى الله عليه وسلم — لما دعاها الى الاسلام أجابت طوعا فلم تحوجه الى رفع صوت ولا منازعة ، ولا تعب فى ذلك ، بل أزالت عنه كل نصب ، آنسته من كل وحشة ، وهونت عليه كل عسير فناسب أن يكون منزلها الذى بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها (٤) .

ومن الأزمات الطاحنة التى واست خديجة فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأقاربه ما واستهم به أثناء حصار الرسول وأهله بنى المطلب وبنى هاشم فى شعب أبى طالب . فقد كان ابن أخيها حكيم بن حزام يحمل اليهم فى الشعب الطعام من مال خديجة ، حتى لقى فى سبيل ذلك شيئا من عنت أبى جهل . وقد كان هذا الطعام قمحا (٥) وتثبت كتب السيرة أن السيدة خديجة كانت مع النبى فى هذا الحصار تعانى ما يعانى ، وتحاول التخفيف عنه بقدر ما تملك وتطيق .

ولذلك فانها عندما توفاها الله ضاعف المشركون من ايذائهم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبخاصة أنها توفيت فى نفس العام الذى مات فيه أبو طالب .

قال ابن اسحاق : « ثم ان خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المصائب بموت خديجة ، وكانت له وزير صدق على الاسلام يشكو اليها » (٦) .

وقد ظل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعرف لخديجة فضلها ، ويذكرها فيثنى عليها أبلغ الثناء وأعظمه ، حتى لتغار من ذلك ، أصغر زوجاته سنا ، وأحبهن الى قلبه ، السيدة عائشة رضى الله عنها .

تقول السيدة عائشة — رضى الله عنها — : « ماغرت على أحد من نساء النبى — صلى الله عليه وسلم — ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن النبى — صلى الله عليه وسلم — يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ، ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له :كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة الا خديجة . فيقول : انها كانت وكان لى منها ولد » (٧) .

---

(١) رواه الامام احمد عن مسروق من حديث عائشة ، ولعله قال ذلك قبل ان تنجب له مارية ابراهيم .
(٢) القصب ، اى قصر منيف من اللؤلؤ .
(٣) البخارى فى كتاب بدء الخلق . باب تزويج النبى خديجة وفضلها ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة . باب فضل خديجة .
(٤) ذكر ابن حجر عن السهيلى انظر فتح البارى ج ١٤ / ٢٩٣ . وانظر سيرة ابن هشام ج ١ / ٢٤١ .
(٥) انظر هذه الرواية فى سيرة ابن هشام ج ١ / ٣٥٣ — ٣٥٤ .
(٦) سيرة ابن هشام ج ٢ / ٤١٦ .
(٧) كتاب مناقب الانصار باب تزويج النبى — صلى الله عليه وسلم — خديجة ، وفضلها — رضى الله عنها .

ومما يدل على شدة وفاء النبى — صلى الله عليه وسلم — لها أنه كان يعرف صوت استئذانها فيهش لذلك . فعن عائشة — رضى الله عنها قالت : « استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال : اللهم هالة ، قالت : فغرت فقلت : ماتذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيرا منها» . هذه رواية البخارى ،وعند أحمد والطبرانى : فغضب حتى قلت :والذى بعثك بالحق لا أذكرها الا بخير . » وفى رواية لهما : « ما أبد لنى الله خيرا منها ، آمنت بى اذ كفر الناس ... الحديث » .

وهكذا نرى فى زواج النبى — صلى الله عليه وسلم — تمرسا على تحمل المسئولية الخاصة ، تمهيدا لتحمل المسئولية العامة ، لأن الذى لا يحسن قيادة أسرته لا يحسن قيادة قومه فضلا عن قيادته للناس أجمعين . وقد كانت السيدة خديجة وزير صدق فى مشاركته — صلى الله عليه وسلم — من أجل هذه التهيئة وهذا الاعداد ، وقد كان لها فى هذا الباب ماليس لغيرها من زوجات سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « لأنها أغنته عن غيرها ، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين ، لأنه — صلى الله عليه وسلم — عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عاما انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عاما ، وهى نحو الثلثين من المجموع » (١) .

كما يبدو لنا بوضوح — من خلال هذه الأحداث — دور المرأة المسلمة ، وهو دور ايجابى فى الحياة الاسلامية ، وفى صميم الدين . فالسيدة خديجة كانت بكل ثقلها المالى والثقافى والعاطفى والعقدى وراء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تشد من أزره ، وتشير عليه وتخفف عنه ، وتهيىء له جميع وسائل النجاح بكل ما أوتيت ، ولا غرو فهكذا ينبغى أن تكون المرأة المسلمة وراء زوجها تطمئنه اذا ارتاع وتقويه اذا ضعف وتؤمنه اذا خاف وتبث فى نفسه الثقة بالله وبنفسه ، وبالحق الذى يدعو اليه ، ويسير عليه كما أن عليها أن تكون أول المؤمنين به الواثقين فيه المنفذين لمبادئه وقيمه على نفسها وأولادها ، ليكون بيت المسلم تطبيقا عمليا للمبادىء التى يعتنقها ويؤمن بها . ويدعو الناس اليها .

ان المسلم انسان عظيم ، لأنه يحمل رسالة عظيم ، غايتها اسعاد الناس جميعا ، ولكن الطريق الى ذلك شاق وعسير ، واذا كان وراء كل عظيم امرأة ، فينبغى أن يكون وراء كل مسلم امرأة مسلمة ، ان نظر اليها سرته ، وان أمرها أطاعته ، وان غاب عنها حفظته فى ماله وعرضها .

وخير مثال للمرأة المسلمة — بحق — السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ،وأول المؤمنات فينبغى لكل امرأة مسلمة أن تتخذها قدوة عليا ، لأن بيت النبوة هو البيت القدوة لغيره من بيوت المسلمين فى حدود الطاقات والقدرات البشرية .

---

(١) فتح البارى ج ١٤ / ٢٩١ طبعة الكليات الأزهرية .

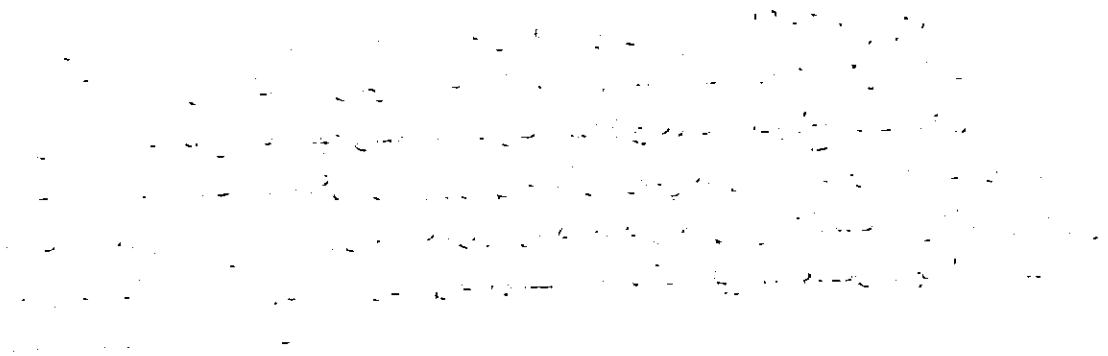

المشوقف الثانى عشر

التهيئة المبدئية فى المسئولية الاجتماعية العامة

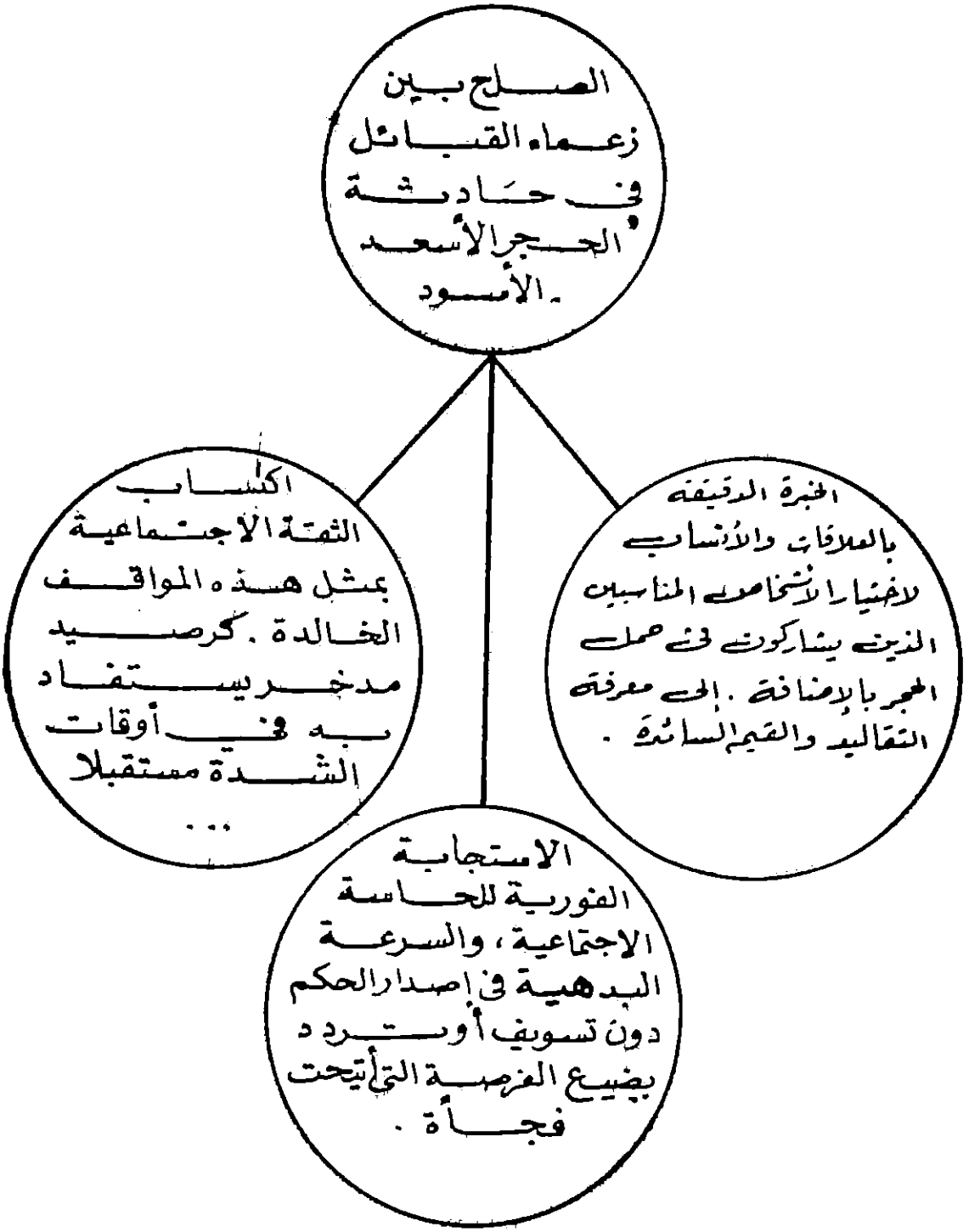

الاعداد الاجتماعى العام باصلاح النبى صلى الله عليه وسلم بين قريش فى مسألة الحجر الأسود

قال ابن اسحاق :

فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه ، فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة ، فكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أول من خرج عليهم ، فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط ثم ترفعه جميع القبائل كلهم . وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا حماد بن سلمة وقيس وسلام ــ كلهم عن سماك بن حرب ــ عن خالد بن عرعرة عن على بن أبى طالب قال : لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش ، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه ؟ فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب ، فدخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من باب بنى شيبة : فأمر بثوب فوضع الحجر فى وسطه ، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه ، وأخذه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فوضعه . قال يعقوب بن سفيان : أخبرنى أصبغ بن فرج ، أخبرنى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال : لما بلغ رسول الله ــ صلى الله وسلم ــ الحلم جمرت امرأة الكعبة ، فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت فهدموها ، حتى بنوها ، وبلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن ، أى القبائل تلى رفعه ؟ فقالوا نحكم أول من يطلع علينا ، فطلع عليهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو غلام عليه وشاح نمرة فحكموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ، ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا اليه الركن ، فكان هو يضعه . فكان لايزداد على السن الا رضى ، حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحى ، فطفقوا لا ينحرون جزورا الا التمسوه فيدعو لهم فيها . هذا سياق حسن ، وهو من سير الزهرى ، وفيه من الغرابة قوله : فلما بلغ الحلم . والمشهور أن هذا كان ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عمره خمس وثلاثون سنة ، هو الذى نص عليه محمد بن اسحاق بن يسار رحمه الله .

وقال موسى بن عقبة : كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة ، وهكذا قال مجاهد ، وعروة ، ومحمد بن جبير بن مطعم ، وغيرهم ، فالله أعلم . وقال موسى بن عقبة : كان بين الفجار وبين بناء الكعبة خمس عشرة سنة قلت : وكان الفجار وحلف الفضول فى سنة واحدة ، اذ كان عمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عشرون (١) سنة . وهذا يؤيد ماقاله محمد بن اسحاق ، والله أعلم .

---

(١) كذا والصواب عشرين ، وسيأتى ان السندى فى حاشيته ، وابن حجر ذكرا ان عمره ــ اذ ذاك خمس وعشرون سنة .

ولكن ابن اسحاق يروى بعض التفاصيل عن هذه الحادثة فيقول :

قال ابن اسحاق : ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة . ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة . فسموا « لعقة الدم » . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا . ثم انهم اجتمعوا فى المسجد ، وتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم — وكان عامئذ أسن قريش كلها — قال : يامعشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب (١) هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا . فكان أول داخل دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد . فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « هلموا الى ثوبا » ، فأتى به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده — صلى الله عليه وسلم — ، ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم — الأمين (٢) .

واذا كنا نتكلم عن الاعداد الاجتماعى بمعناه العام من واقع هذه الحادثة التى تدل على كمال الحكمة وحضور البديهة وقوة السيطرة على الثائرين فى غضبهم دون تردد أو مهلة للتفكير ، وانما يأتى الحل بلا ابطاء فى هذا الموقف المفاجىء لصالح المجتمع كله .

اذا كنا نتكلم عن ارتباط هذا الاعداد بمردوداته المستقبلية من مهارة التعامل مع المجتمع ، فاننا نود أن نقول : ان هناك مردودات من الخبرة فى مستويات أخرى ومجالات عديدة غير المجال الاجتماعى . ذلك أن هذه الحادثة نفسها وقد حضرها رسول الله فعرف حدود الكعبة وكيف تعاملت قريش معها فى اعادة بنائها كان لها أثر فى موقف سجلته الأحاديث الصحيحة .

فقد روى البخارى فى صحيحه أن عائشة رضى الله عنها قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابين ، بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس ابراهيم » (٣) .

---

(١) أول هو باب بنى شيبة ، وكان يقال له فى الجاهلية : باب بنى عبد شمس . ويقال له الآن : باب السلام .

(٢) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٩٨ .

(٣) رواه البخارى ، كتاب الحج باب فضل مكة وبنيانها ج ٢ ص ٨٠ طبعة الشعب .

فهذا النص الصحيح يدل على مشاركة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قومه فى بناء الكعبة ، وقد كان سنه اذ ذلك خمسا وعشرين سنة (١) .

ويهمنا أن نستخلص الدروس المستفادة من هذا الموقف الذى استطاع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه أن يحسم خلافا جاهليا شديدا كان يمكن أن يثمر حربا ضروسا تأكل الأخضر واليابس ، وتستمر السنين الطوال ،أياما تضاف الى أيام العرب الكثيرة التى تفصح عن عاداتهم وتقاليدهم .

وأهم هذه الدروس ما يلى : ــ

١ ــ هذا الموقف يدل على أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كانت لديه خبرة واسعة بما عليه قومه من التقاليد الموروثة التى يعتزون بها ، والقيم الدينية والأخلاقية التى سادت بينهم ، والعلاقات الاجتماعية القبلية التى تربط بينهم ، ولذلك فانه لم يفضل قبيلة على قبيلة ، لأنه يعلم أن شرف حمل الحجر الأسود ووضعه فى مكانه يطمح اليه كل منهم ليكون شرفا وسؤددا تفخر به على غيرها فى مواطن الفخار ، ومواضع المدح والثناء . ومن ثم فقد كان اختيار النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الطريقة التى اختارها ليحقق لكل منهم ما يطمح اليه دون أن يفضل بعضهم على بعض . وهذا توفيق من الله عز وجل ــ هيأ به نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليتحمل جزءا من المسئولية الاجتماعية لقومه .

٢ ــ كما أن هذا الموقف يدل على سرعة البديهة من النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى اصدار الأحكام الصائبة ، دون ما تسويف أو تضييع للفرصة السانحة ، مهما كانت المفاجأة فالرواية للحدث تذكر أنهم عندما اختلفوا أية قبيلة تحظى بشرف الحجر الأسود فى مكانه ، أشار عليهم أحد أشرافهم بأن يحكموا أول داخل عليهم من باب بنى شيبة ، فكان أول داخل عليهم هو النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ففوجىء بهم على هذه الحالة من الاختلاف وانتظار التحكيم الذى قد يصلح بينهم ، وقد يشعلها نارا لا تنطفىء فلما عرض الأمر عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يتردد بل وفقه الله ــ سبحانه وتعالى ــ الى هذا الحل الذى ليس هناك حل أفضل ولا أسلم منه . فهذا الموقف يدل على قدرة فطرية على حسن الادارة للمجتمعات فى لحظات الخطر وكفاءة نادرة على تحمل المسئوليات .

« على أن الادارة العليا انما تتجلى فى تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع ، فليست الادارة كلها نصوصا وقواعد يجرى الحاكم فى تنفيذها مجرى الآلات والموازين التى تصرف الشئون على نسق واحد ، ولكنها فى كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة اخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك » (٢) .

---

(١) حاشية السندى على صحيح البخارى ج ٢ ص ٢١٧ وفتح البارى ج ١٤ ص ٢٠٢ .

(٢) عبقرية محمد لعباس محمود العقاد ص ٩١ طبعة الهلال سلسلة كتاب الهلال رقم ١ .

٣ — وفى هذا الموقف استطاع النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يكسب ثقة قومه ، فانهم ماان طلع عليهم — كما تقول رواية ابن اسحاق — حتى قالوا « هذا الأمين رضيناه » ورضوا بتحكيمه وسعدوا به ، وسلموا له وحده دونهم جميعا أن يحمل الحجر بيده ويضعه فى مكانه بعد أن حمله شيوخ قبائلهم فى الثوب . مع أنهم لو علموا ما سوف يأتيهم به لترددوا فى التسليم له بما سلموا من أمانته وتحكيمه . وقد كان هذا الموقف زادا من الثقة ذكرهم به وبأشباهه بعد أن أعلن عليهم دعوته .

٤ — وكان من أهم نتائج هذا الموقف الذى عرف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حدود قواعد البيت معرفة عملية دقيقة مما جعله يفضى لأم المؤمنين عائشة فيما بعد ببعض آماله فى تصحيح بناء بعض جدران الكعبة على قواعدها الصحيحة فى الحديث الذى رواه البخارى وفيه يقول الرسول لعائشة « لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض ، وجعلت له بابين ، بابا شرقيا ، وبابا غربيا فبلغت به أساس ابراهيم ... »(١) .

---

(١) رواه البخارى ، كتاب الحج ، باب فضل مكة وبنيانها ، جـ٢ ص ٨٠ طبعة الشعب .

الموقف الثالث عشر

فى التهيئة المبدئية المراجعة الشاملة

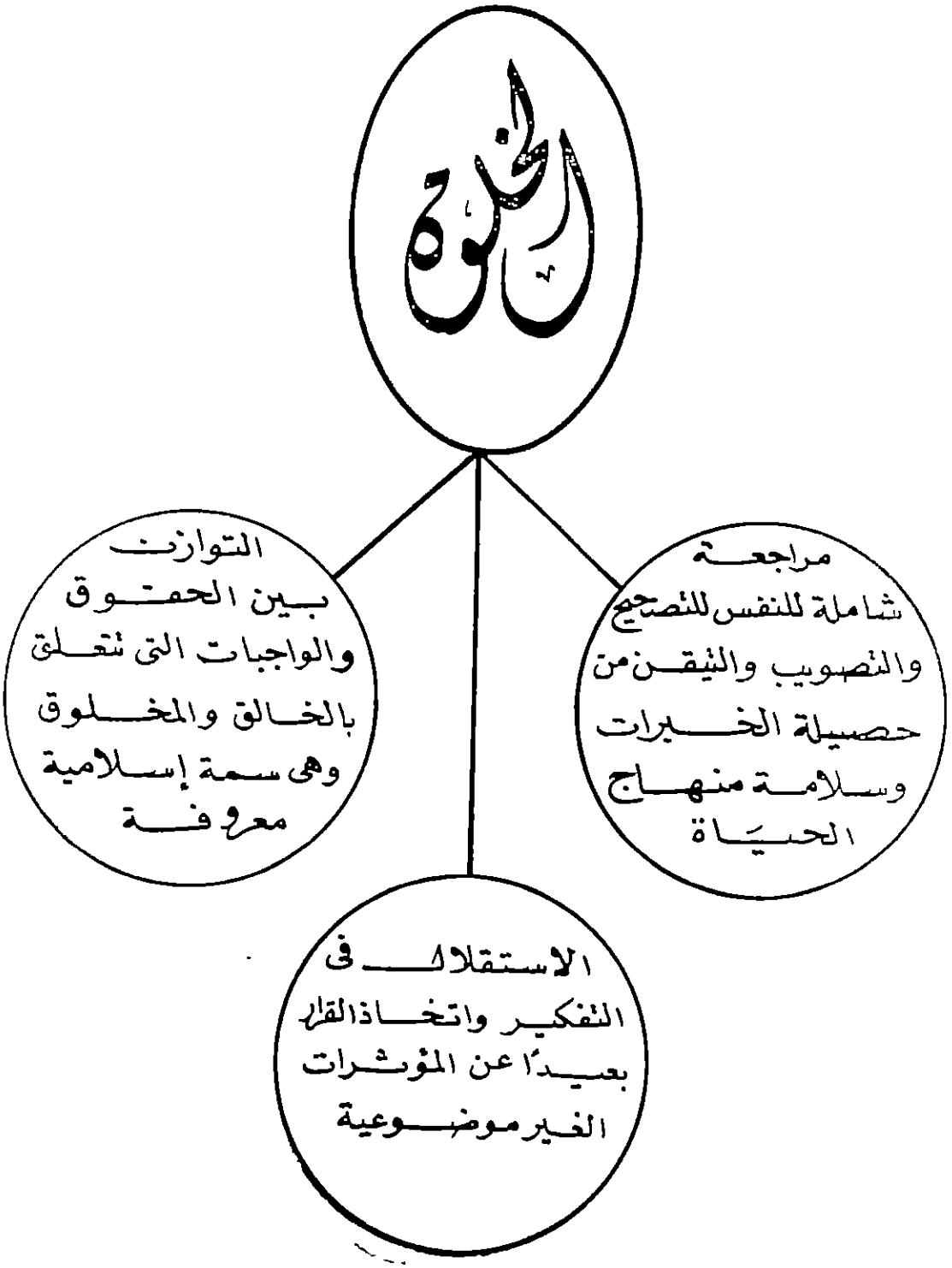

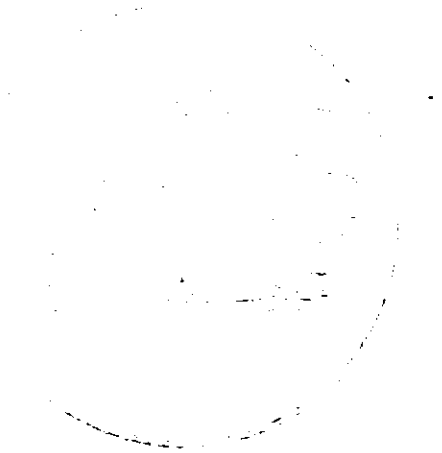

الخـــلوة

وترجع أهمية الخلوة فى هذا الاعداد الهائل الى أنها فى أبسط معانيها وقفة مع النفس لسبر غورها ، فيما أفادته من كل هذه التجارب تقويما وتصحيحا ، على ضوء الرغبة العـارمة فى معرفة السبيل الصحيح لعبادة الله .

ومن هنا فالخلوة كانت من أخطر المراحل التى خرج منها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كامل العدة تام التهيؤ لوظيفة الرسالة .

روى البخارى فى صحيحه من حديث السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيـه : ــ وهو التعبد الليالى ذوات العدد ــ قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ، ثـم يرجع الى خـديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .. » (١) .

وفى كتب السيرة ما يفيد أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يخلو بغار حراء شـــهرا فى السنة ، وكان هذا الشهر هو شهر رمضان ، وأنه استمر على ذلك فترة حتى كانت السنة التى جاءه أمر الله (٢) وفى كتب السيرة كذلك ما يفيد أن عادة الخلوة هذه بالنفس لسبر أغوارها ، كانت عادة معروفة عند القرشيين أو عند كبـار مفكريهم .

قال ابن اسحاق : « كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يجـاور فى حـراء من كـل سنة شهرا ، وكان ذلك مما تتحنث به قريش فى الجاهلية » (٣) .

ولكن حديث البخارى يفيد أمراهاما فى طريق اعداد النبى ــ صلى الله عليه وسلم : هو أن هذا الإعداد انتهى بأمرين : أولهما الرؤيا الصالحة الصادقة ، التى تثبت قلبه وتشرح صدره ، وتؤكد له أنه على طريق الحق ، لأنها تتحقق فى اليقظة كما رآها فى المنام ، وثانيهما : أنه حبب اليه الخـلاء أو الخلوة ، ليتحنث أو يتحنف ، بمعنى القـاء الاثم عن النفس ، أو التمثـل للحنيفية التى هى فى جوهرها الاخلاص والتوحيد ، وجمع القلب والجوارح لله رب العالمين .

أن الحياة بصخبها وضجيجها ، ومشاغلها كثيرا ما توزع النفس وتفرق القلب ، فلا يحسـن

---

(١) صحيح البخارى فى بداءة كتاب كيف كان بدء الوحى . وانظر فتح البارى جـ ١ / ٥٣ طبعة الكليات الأزهرية .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ / ٢٣٦ ، طبعة الحلبى الثانية ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٥ م .
(٣) السابق ص ٢٣٥ .

الانسان خلال الانغماس فى التفكر والتدبر ، وليس هناك أفضل لجمع شتات الفكر ، وحسن التدبر من اختلاء الانسان بنفسه ، ومواجهتها لسبر غورها ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى قوله — تعالى « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة » (١) .

ولكن فيم كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يفكر أثناء هذه الخلوة ؟ ، وكيف كانت هذه الخلوة قمة الاعداد لتحمل عبء الرسالة ؟ .

لاشك أن النبى — صلى الله عليه سلم — ظل فترة قبل مجىء الحق اليه حائرا ، كما يقول القرآن الكريم « ووجدك ضالا فهدى » (٢) يفكر فيما عليه قومه من الباطل ، متلمسا طريق الحق ، وكان الشهر الذى يقضيه فى غار حراء هو أمتع هذه الشهور ، وأكثرها سعادة لقلبه ، لدرجة أنه كان يشغل عن طلب الزاد بما هو فيه من زاد روحى « وكان اذا استدار العام فجاء شهر رمضان ذهب الى حراء وعاد الى تفكيره ، ينضجه شيئا فشيئا ، وتزداد نفسه به امتلاء . وبعد سنوات شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه ، صار يرى فى نومه الرؤيا الصادقة تتبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقة التى ينشد ، ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها : اذ ذاك آمن أن قومه ضلوا سبيل الهدى ، وأن حياتهم الروحية قد أفسدها الخضوع لأوهام الأصنام وما اليها من عقائد متصلة بها ليست دونها ضلالا ، وليس فيما يذكر اليهود وما يذكر النصارى ما ينقذ هؤلاء من ضلالهم ، ففيما يذكر هؤلاء وأولئك حق ، لكن فيه كذلك ألوانا من الوهم ، وصورا من الوثنية لا يمكن أن تتفق مع الحق المجرد والبسيط ، الذى لا يعرف كل هذه المضاربات الجدلية العقيمة مما يمعن فيه هؤلاء ، وأولئك من أهل الكتاب ، وهذا الحق هو أن اللهرب العالمين،هو الرحمن الرحيم هذا الحق هو أن الناس مجزيون بأعمالهم » (٣) .

اذن فقد كان التفكير الذى شغل بال النبى — صلى الله عليه وسلم — هو الحالة السيئة التى وصل اليها قومه ، وكيفية تخلصهم مما هم فيه ، والوصول بهم الى الحق .

وترجع أهمية الخلوة فى هذه المرحلة من الاعداد ، أنها تضىء للانسان التفكير الهادىء الرزين وتصقل ملكاته النفسية ، وتهيئه الى خير السبل للوصول الى بغيته . وفى هذا ما فيه الزاد الذى يمكن أن يزود به الدعاة فى كل عصر ومصر ، فانه لا يكفى أن يقتنع الداعية بفساد ما عليه قومه ، بل عليه أن يسبر أغوار نفسه (٤) وتقليب وجهات النظر أمامها ، فاذا تم لها الاقتناع فكر كيف يصل الى اقناع قومه بما هم فيه من ضلال وأوهام ثم التعرف على الحق ، وكيفية

---

(١) سبا ٤٦ .
(٢) الضحى ٧ .
(٣) حياة محمد ، محمد حسنين هيكل الطبعة السابعة — طبعة دار القلم .
(٤) واقناعها .

الاستعانة به لانقاذ قومه من ضلالهم ، وليس هناك أفضل ولا أقوى من معاونة العقل والقلب على ذلك أكثر من الخلوة الهادئة بعيدا عن المؤثرات غير الموضوعية •

ان الله — سبحانه وتعالى — ربى نبيه فأحسن تربيته ، وأدبه فأحسن تأديبه ، ليكون القدوة لكل داعية على طريقته ، ومنارة سامقة لكل مرشد على سبيله ونهجه ، وكان من أقوى وأهم وسائل اعداده أن حبب اليه الخلاء ، فعلى الدعاة والقادة لأممهم أن يتعلموا ذلك ويعملوا بمقتضاه ، لتؤتى دعوتهم ثمارها المرجوة ، ونتائجها المرتقبة •

ويمكن تلخيص أثر الخلوة فى التهيئة والاعداد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى شيئين : —

١ — من أخطر الأوجه أثرا فى موقف (الخلوة) كتهيئة واعداد ، (التدريب على تحرر العقل واستقلاله فى اتخاذ القرار والتوصل الى الأحكام)

ونقصد بالتحرر التحرر من التبعية والتقليد للآخرين الفكاك من أسر العادات والأعراف المتوارثة دون عرضها على بساط البحث المجرد الأمين ، كما نقصد بالاستقلال الاستقلال فى القرار والتوصل للأحكام ، الاستقلال الموضوعى فى البحث من حيث ان لكل انسان وجهة نظره التى قد تلتقى وقد لا تلتقى من وجهات النظر الأخرى

٢ — معرفة النفس عن طريق الخلوة ، فالذى لا يعرف من هو ولا ماذا يريد لا يعرف تحديد مركزه من غيره • فالمضمون الحقيقى لذات الانسان يجب أن لا تتناقض معطياته العقلية والعاطفية والوجدانية ، وهذا لا يتأتى الا بمواجهة النفس والتركيز على تنسيق منهاج متوازن يمثل كل هذه الجوانب فى شخصية سوية قوية رضية بوسائلها وأهدافها •

دلالات هامة :

١ — دلالة شمول المراجعة القيم فى الخلوة وصلتها ببدء الوحى

« ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه » ولما كانت وظائف الخلوة كثيرة لم يحددها النص ، وقد أفدنا من دروسها من سياق الأحداث السابقة على الخلوة ، أنها كانت مراجعة شاملة للقيم الأخلاقية والعملية وغيرها وتنظيم للعلاقات مع الله والناس ••

ومما يشهد لهذا الاتجاه أن الشراح ذكروا فى هذه الزاوية عديدا من الأوجه التى كانت موضع

التأمل فى الخلوة ونحن نراها جميعا داخلة فى وظيفة الخلوة دون حاجة الى ترجيح بعضها على بعض ، فهى كلها مقصودة فى الخلوة ، وهذا جانب مما ذكره العلماء كما يلخصه ابن حجر فيقول :

« الخلاء بالمد : الخلوة ، والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه نه » (١) .

فلو تأملنا كلمة : (فراغ القلب لما يتوجه له) لأدركنا ما فيها من عموم وشمول ، فاذا أتى الى التفاصيل رأيناه يعرض علينا اتجاهات العلماء فى عبارة سنذكرها كاملة لما فيها من فائدة حديثية فى مصطلحات المحدثين فيما يسمى بالادراج .

(قوله قال والتحنث التعبد)

هذا ظاهر فى الادراج اذ لو كان من بقية كلام عائشة لجاء فيه قالت

وهو يحتمل ان يكون من كلام عروة أو من دونه

ولم يأت التصريح بصفة تعبده لكن فى رواية عبيد بن عمير عند ابن اسحاق .

فيطعم من يرد عليه من المساكين

جاء عن بعض المشايخ انه كان يتعبد بالتفكر .

ويحتمل أن تكون عائشة أطلقت على الخلوة بمجردها تعبدا فان الانعزال عن الناس ولا سيما من كان على باطل من جملة العبادة كما وقع للخليل عليه السلام حيث قال

انى ذاهب الى ربى

وهذا يلتفت الى مسألة أصولية وهو انه صلى الله عليه وسلم هل كان قبل أن يوحى اليه متعبدا بشريعة نبى قبله

قال الجمهور لا لأنه لو كان تابعا لاستبعد أن يكون متبوعا ولانه لو كان لنقل من كان ينسب اليه وقيل نعم واختاره ابن الحاجب واختلفوا فى تعينه على ثمانية أقوال (٢) .

فوظائف الخلوة الموجودة فى هذه الآراء هى :

---

(١) الفتح لابن حجر ج ١ ص ١٦ .
(٢) الفتح لابن حجر ج ٨ ص ٦٠٥ .

(أ) اطعام المساكين .

(ب) التعبد .

(جـ) التفكر .

(د) الانعزال عن أهل الباطل .

وفى التعبد ثمانية آراء لاداعى للاسترسال فيها . ويكفينا هذا الاستعراض لآراء العلمـــاء لنؤكد من خلالها على مبدأ الشمول والعموم الذى ذهبنا اليه فى مراجعة القيم بالخلوة .

وكل ما أضفناه أننا رأيناها من منظور الأحداث الواقعية التى عايشها رســول الله قبل البعثة

انواع الوحى

صحابى يسأل والرسول صلى الله عليه وسلم يجيب والسيدة عائشة أم المؤمنين تصف الوحى :

روى الامام البخارى رضى الله عنه عن السيدة عائشة رضى الله عنها :

أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يارسول الله : كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول »

قالت عائشة (١) رضى الله عنها :

«ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا» (٢)

وروى الامام البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت :

« كان أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه ـ والتحنث التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود بمثلها ، حتى فجئه الحق (٣) ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ .

---

(١) قال الامام ابن حجر فى الفتح .

« قوله قالت عائشة » .

هو بالاسناد الذى قبله وان كان بغير حرف العطف كما يستعمل المصنف وغيره كثيرا وحيث يريد التعليق يأتى بحرف العطف .

وقد اخرجه الدارقطنى فى حديث مالك من طريق عتيق بن يعقوب عن مالك مفصولا عن الحديث الاول .

وكذا فصلها مسلم من طريق ابى اسامة عن هشام .

ونكتة هذا الاقتطاع هنا اختلاف التحمل لانها فى الاول اخبرت عن مسئلة الحارث ، وفى الثانى اخبرت عما شاهدت تأييد للظهر الاول . (فتح البارى جـ ١) .

(٢) صحيح البخارى كيف كان بدء الوحى .

(٣) فجئه : بكسر الجيم أى بغتة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم — الآيات — فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره حتى دخل على خديجه فقال : زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع قال لخديجة : أى خديجة ، لقد خشيت على نفسى فأخبرها الخبر .

قالت خديجة : كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا فوالله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت بهخديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة أخى أبيها وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربى ويكتب من الانجيل بالعربية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى فقالت خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك قال ورقة يا ابن أخى ماذا ترى فأخبره النبى صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال ورقة هذا الناموس الذى أنزل على موسى ليتنى فيها جذعا ليتنى أكون حيا ذكر حرفا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجى هم قال ورقة نعم لم يأت رجل بما جئت به الا أوذى وان يدركنى يومك حيا انصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة ان توفى وفتر الوحى فترة حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

٢ — دلالة التعبير بالمفاجأة

فى رواية الامام البخارى عن السيدة عائشة (فى أول الصحيح كتاب كيف كان بدء الوحى) أثبت النص عبارة : « حتى جاءه الحق » بينما أثبت النص الذى أورده الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب التفسير عبارة : « حتى فجئه الحق » .

وقد آثرنا الرواية الأخيرة باعتبارها مخصصة لمطلق المجىء بأنه أى الحق أو الوحى — كان مجيئا موصوفا بالمفاجأة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسبب فى ايثارنا هذه الرواية بالذكر لما فى معنى المفاجأة من أمارات الصدق ، من زاوية أنه لايتأتى مع المفاجأة احتمال التوقع فضلا عن التدبير والافتعال .

وقد أشكل على بعض العلماء اثبات المفاجأة فى هذه الرواية الصحيحة للنبى صلى الله عليه

---

(١) صحيح البخارى — كتاب التفسير — سورة اقرأ .

وسلم بالوحى مع وجود روايات صحيحة ذكرناها وغيرها لم نذكرها تثبت أن أول ما بدىء به من الوحى لم يكن سورة اقرأ المذكورة فى هذه الرواية ، فكيف تثبت المفاجأة التى هى مجىء الوحى بغتة مع مجيئه قبل ذلك ؟

وقد أشار الامام ابن حجر الى هذا الاشكال عند شرحه للرواية الأولى التى لم نذكرها فقال :

(قوله حتى جاءه الحق) أى الأمر الحق .

وفى التفسير حتى فجئه الحق بكسر الجيم أى بغتة،وان ثبت من مرسل عبيد بن عمير انه أوحى اليه بذلك فى المنام أولا قبل اليقظة أمكن أن يكون مجىء الملك فى اليقظة عقب ما تقدم فى المنام وسمى حقا لأنه وحى من الله تعالى :

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة مرفوعا لم أره يعنى جبريل على صورته التى خلق عليها الامرتين .

وبين أحمد فى حديث ابن مسعود ان الاولى كانت عند سؤاله اياه أن يريه صورته التى خلق عليها والثانية عند المعراج

والترمذى من طريق مسروق عن عائشة لم ير محمد جبريل فى صورته الامرتين مرة عند سدرة المنتهى ومرة فى أجياد وهذا يقوى رواية ابن لهيعة وتكون هذه المرة غير المرتين المذكورتين وانما لم يضمها اليهما لاحتمال أن لا يكون رآه فيها على تمام صورته والعلم عند الله تعالى .

ووقع فى السيرة التى جمعها سليمان التيمى فرواها محمد بن عبد الأعلى عن ولده معتمر بن سليمان عن أبيه ان جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فى حراء وأقرأه اقرأ باسم ربك ثم انصرف فبقى مترددا فأتاه من أمامه فى صورته فرأى أمرا عظيما (١) .

ويزول هذا الاشكال لو تمثل الذين وقعوا فيه اللحظات الشديدة التى تعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند بداية نزول القرآن الكريم فى غار حراء ، ذلك أن الشدة التى تعدد وصفها فى الأحاديث الصحيحة كانت كافية لحصر الانتباه كلية فيها ، بحيث لم يبق حاضرا فى ذهن الرسول صلى الله عليه وسلم من البشارات السابقة شىء سواء كانت من الملائكة أو غيرهم حين فوجىء باتصاله بالملأ الأعلى على هذا النحو الذى بلغ منه الجهد ما بلغ ، أو الذى ظن أنه الموت ، أو الذى كادت تختلف فيه أضلعه ، أو ليس فى كل ذلك مفاجأة دونها كل المفاجآت .

وما أعظم دلالتها على صدق الرسول الكريم فى أمر لم يكن يتوقع منه كل هذه الشدة .

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ١٨ .

٣ ــ دلالة المشـــقة

وارتجاف الأوصال والخشية على النفس

فاذا تركنا دلالة المفاجأة التى كانت نتيجة مباشرة للأمر الذى نتجه اليه وهو ما وقع للرسول صلى الله عليه وسلم من المعاناة والشدة الفائقة فسوف نجد النصوص النبوية صريحة وكثيرة فى وصف شدة هذه المعاناة .

وقد بين الامام ابن حجر ــ عند تعليقه على بعض كيفيات الوحى التى ذكرت فى متن الحديث حكما للمشقة من وجهة نظر شراح الأحاديث فقال :

(قوله وهو أشده على)

يفهم منه أن الوحى كله شديد ولكن هذه الصفة أشدها وهو واضح لأن الفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود والحكمة فيه ان العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع .

وهى هنا اما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول

واما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثانى والأول أشـــد بلا شك

وقال شيخنا شيخ الاسلام البلقينى سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به كما سيأتى فى حديث ابن عباس كان يعالج من التنزيل شدة

قال وقال بعضهم وانما كان شديدا عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعى لمـــا سمع اه

وقيل انه انما كان ينزل هكذا اذا نزلت آية وعيد أو تهديدوهذا فيه نظر والظاهر أنه لايختص بالقرآن كما سيأتى بيانه فى حديث يعلى بن أميه فى قصة لابس المتضمخ بالطيب فى الحج فان فيه أنه رآه صلى الله عليه وسلم حال نزول الوحى عليه وانه ليغط

وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات (١) .
وقـــال أيضـــا :

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ٦٦ .

(قوله ليتفصد) بالفاء وتشديد المهملة مأخوذ من الفصد وهو قطع العرق لاسالة الدم شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة فى كثرة العرق •

وفى قولها فى اليوم الشديد البرد دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحى لما فيه من مخالفة العادة وهو كثرة العرق فى شدة البرد فانه يشعر بوجود أمر طارىء زائد على الطباع البشرية •

وقوله عرقا بالنصب على التمييز زاد ابن أبى الزناد عن هشام بهذا الاسناد عند البيهقى فى الدلائل وان كان ليوحى اليه وهو على ناقته فيضرب جرانها من ثقل ما يوحى اليه (١) •

ونضيف ان من أعظم دلالات حكاية الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه المعاناة مرة بالأوصاف العضوية التى تسببت فيها من بلوغ الجهد به صلى الله عليه وسلم هذا المبلغ أو اختلاف الأضلع أو الغط أو الموت •

ومرة بالأوصاف النفسية التى سببتها هذه الشدة ، من الخوف على النفس ونحوه •

نقول من أعظم دلالات حكاية النبى لهذه الشدائد دلالتها على الفطرة الصادقة ، فبدلا من أن يحكى عن النبوة والوحى ، يحكى عن مظاهر هذه الهزة التى ملكت عليه كل انتباهه ، واستحوذت على اهتمامه ، فلو كان فى الأمر ذرة واحدة من التكلف لاختلف الموقف تماما •

لكنه الصادق الأمين لايحكى الا الواقع الذى يحسن به •

على أن نص الحديث النبوى الذى يحكى الواقع بكل دقة ذكر عبارة أخرى يصف بها هذا الواقع كان لها أهمية كبرى فى دفع ما قد يتوهم من أن المشقة كانت سببا فى أن النبى صلى الله عليه وسلم شغل عن استيعاب الوحى نفسه ، والنص يقول فى الرواية التى أوردناها عبارتين :

أولهما : « فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال »

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ١٧ •

وثانيهما : « فأعى ما يقول »

ويعلق الامام ابن حجر على العبارتين قائلا :

(قوله فيفصم)

بفتح أوله وسكون الفاء وكسر المهملة أى يقلع ويتجلى ما يغشانى

ويروى بضم أوله من الرباعى

وفى رواية لأبى ذر بضم أوله وفتح الصاد على البناء للمجهول .

وأصل الفصم القطع

ومنه قوله تعالى : « لا انفصام لها » .

وقيل الفصم بالفاء القطع بلا ابانة وبالقاف القطع بابانة فذكر بالفصم اشارة الى أن الملك فارقه ليعود والجامع بينهما بقاء العلقة .

(قوله وقد وعيت عنه ما قال)

أى القول الذى جاء به وفيه اسناد الوحى الى قول الملك ولا معارضة بينه وبين قوله تعالى حكاية عمن قال من الكفار (ان هذا الا قول البشر) لانهم كانوا ينكرون الوحى وينكرون مجىء الملك به

(قوله فأعى ما يقول)

زاد أبو عوانة فى صحيحه وهو أهونه على

وقد وقع التغاير فى الحالتين حيث قال فى الأول وقد وعيت بلفظ الماضى وهنا فأعى بلفظ الاستقبال لأن الوعى حصل فى الأول قبل الفصم وفى الثانى حصل حال المكالمة أو أنه كان فى الأول قد تلبس بالصفات الملكية فاذا عاد الى حالته الجبلية كان حافظا لما قيل له فعبر عنه بالماضى بخلاف الثانى فانه على حالته المعهودة (١) .

---

(١) الفتح لابن حجر ج ١ ص ١٦ .

٤ ــ دلالة موقف خديجة وورقة رضى الله عنهما

بالاضافة الى ما يفيده هذان الموقفان من الدور الهام الذى يمكن للمرأة أن تقوم به ، أو يمكن للصادقين من رجال العلوم الدينية أن يتعاونوا على أساسه باعتبارهم طلاب حق وهداة للناس .

بالاضافة الى ذلك فان عبارات خديجة التى توجت بها شكوى النبى صلى الله عليه وسلم من الخوف أو الخشية على نفسه كانت بمثابة تلخيص لكل القيم التى كان يتخذ منها زوجها صلى الله عليه وسلم دستورا يتعامل مع الناس من خلاله ، فعبارتها تقول : « كلا أبشر فوالله لايخزيك الله أبدا ، فوالله انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

« قوله فقالت له خديجة كلا » .

قال ابن حجر :

معناه النفى والابعاد ويحزنك بفتح أوله والحاء المهملة والزاى المضمومة والنون من الحزن ولغير أبى ذر بضم أوله والخاء المعجمة والزاى المكسورة ثم الياء الساكنة من الخزى .

ثم استدلت على ما أقسمت عليه من نفى ذلك أبدا بأمر استقرائى ووصفته بأصول مكارم الأخلاق لأن الاحسان اما الى الاقارب أو الى الاجانب واما بالبدن أو بالمال واما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل وذلك كله مجموع فيما وصفته به والكل بفتح الكاف هو من لا يستقل بأمره كما قال الله تعالى .

وهو كل على مولاه .

وقولها وتكسب المعدوم فى رواية الكشميهنى وتكسب بضم أوله وعليها قال الخطابى الصواب المعدم بلا واو أى الفقير لأن المعدوم لا يكسب .

(قلت) ولا يمتنع أن يطلق على المعدم المعدوم لكونه كالمعدوم الميت الذى لاتصرف له والكسب هو الاستفادة فكأنها قالت اذا رغب غيرك أن يستفيد مالا موجودا رغبت أنت أن تستفيد رجلا عاجزا فتعاونه .

وقال قاسم بن ثابت فى الدلائل قوله يكسب معناه ما يعدمه غيره ويعجز عنه يصيبه هو ويكسبه .

قال أعرابى يمدح انسانا .

كان أكسبهم لمعدوم وأعطاهم لمحروم وأنشد فى وصف ذئب .

* كسوب كذا المعدوم من كسب واحد * أى مما يكسبه وحده انتهى .

ولغير الكشميهنى وتكسب بفتح أوله .

قال عياض وهذه الرواية أصح .

(قلت) قد وجهنا الأولى وهذه الراجحة ومعناها تعطى الناس مالا يجدونه عند غيرك فحذف احدى المفعولين .

ويقال كسبت الرجل مالا وأكسبته بمعنى .

وقيل معناه تكسب المال المعدوم وتصيب منه مالا يصيب غيرك وكانت العرب تتمادح بكسب المال لاسيما قريش وكان النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة محظوظا فى التجارة وانما يصح هذا المعنى اذا ضم اليه ما يليق به من انه كان مع افادته للمال يجود به فى الوجوه التى ذكرت فى المكرمات .

وقولها وتعين على نوائب الحق هى كلمة جامعة لافراد ما تقدم ولما لم يتقدم .

وفى رواية المصنف فى التفسير من طريق يونس عن الزهرى من الزيادة وتصدق الحديث وهى من أشرف الخصال .

وفى رواية هشام بن عروة عن أبيه فى هذه القصة وتؤدى الأمانة (١) .

ومعروف أن كلام السيدة خديجة كان ردا منها على شكوى النبى صلى الله عليه وسلم وقد

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ١٩ .

شرح الامام ابن حجر الكلمات الدالة على المشقة والتى كانت سببا فى شكوى النبى صلى الله عليه وسلم فقال فى شرحه لبعض روايات الحديث •

(قوله فغطنى) بغين معجمة وطاء مهملة •

وفى راية الطبرى بتاء مثناة من فوق كأنه أراد ضمنى وعصرنى والغط حبس النفس ومنه غطه فى الماء أو أراد غمنى ومنه الخنق •

ولأبى داود الطيالسى فى مسنده بسند حسن فأخذ بحلقى •

(قوله حتى بلغ منى الجهد) روى بالفتح والنصب أى بلغ الغط منى غاية وسعى وروى بالضم والرفع أى بلغ منى الجهد مبلغه •

وقوله أرسلنى أى أطلقنى ولم يذكر الغط هنا فى المرة الثالثة وهو ثابت عند المؤلف فى التفسير •

(قوله فرجع بها) أى بالآيات أو بالقصة •

(قوله فزملوه) أى لفوه والروع بالفتح الفزع •

(قوله لقد خشيت على نفسى) دل هذا مع قوله يرجف فؤاده على انفعال حصل له من مجىء الملك ومن ثم قال زملونى والخشية المذكورة اختلف العلماء فى المراد بها على اثنى عشر قولا •

أولها الجنون وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة جاء مصرحا به فى عدة طرق وأبطله أبو بكر ابن العربى وحق له أن يبطل لكن حمله الاسماعيلى على ان ذلك حصل له قبل حصول العلم الضرورى له ان الذى جاءه ملك وانه من عند الله تعالى •

ثانيها الهاجس وهو باطل أيضا لانه لا يستقر وهذا استقر وحصلت بينهما المراجعة •

ثالثها الموت من شدة الرعب •

رابعها المرض وقد جزم به ابن أبى جمرة •

خامسها دوام المرض •

سادسها العجز عن أعباء النبوة •

سابعها العجز عن النظر الى الملك من الرعب •

ثامنها عدم الصبر على أذى قومه •

تاسعها أن يقتلوه •

عاشرها مفارقة الوطن •

حادى عشرها تكذيبهم اياه •

ثانى عشرها تعييرهم اياه وأولى هذه الأقوال بالصواب وأسلمها من الارتياب الثالث واللذان بعده وماعداها فهو معترض والله الموفق (١) •

٥ ــ دلالات فى موقف ورقة بن نوفل

وتأتى مؤهلات هذا الشاهد كممثل لموقف الديانات السابقة لتضيف الى خطورتها وأهميتها أبعادا كبيرة ، وقد حاول ابن حجر التعريف به من خلال التعليق على نص الحديث فى بعض الروايات فقال :

« قوله فانطلقت به » أى مضت معه فالباء للمصاحبة وورقة بفتح الراء •

وقوله ابن عم خديجة هو بنصب ابن ويكتب بالألف وهو بدل من ورقة أو صفة أو بيان ولا يجوز جره فانه يصير صفة لعبد العزى وليس كذلك ولا كتبه بغير ألف لأنه لم يقع بين علمين •

« قوله تنصر » أى صار نصرانيا وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان الى الشام وغيرها يسألون عن الدين فاما ورقة فأعجبه دين النصرانية وكان لقى من بقى من الرهبان على دين عيسى لم يبدل ولهذا أخبر بشأن النبى صلى الله عليه وسلم والبشارة به الى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل •

وأما زيدبن عمرو فقد مات قبل مبعث رسول الله بخمس سنين ، ومات على دين ابراهيم عليه السلام (٢) •

« قوله فكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية » •

---

(١) المرجع نفسه ص ١٨ ، ١٩ •

(٢) راجع فتح البارى لابن حجر ج ٧ ص ٩٨ •

وفى رواية يونس ومعمر يكتب من الانجيل بالعربية ولمسلم فكان يكتب الكتاب العربى والجميع صحيح لأن ورقة تعلم اللسان العبرانى والكتابة بالعبرانية فكان يكتب الكتاب العبرانى كما كان يكتب الكتاب العربى لتمكنه من الكتابين واللسانين (١) .

أما حقيقة شهادته فقد علق عليها ابن حجر فقال : (٢)

« قوله هذا الناموس » الذى نزل الله على موسى والكشميهنى أنزل الله .

وفى التفسير أنزل على البناء للمفعول .

وأشار بقوله هذا الى الملك الذى ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى خبره ونزله منزله القريب لقرب ذكره .

والناموس صاحب السر كما جزم المؤلف فى أحاديث الأنبياء .

زعم ابن ظفر أن الناموس صاحب سر الخير والجاسوس صاحب سر الشر والأول الصحيح الذى عليه الجمهور .

وقد سوى بينهما رؤبة بن العجاج أحد فصحاء العرب .

والمراد بالناموس هنا جبريل عليه السلام وقوله على موسى ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانيا لأن كتاب موسى عليه السلام مشتمل على أكثر الأحكام بخلاف عيسى وكذلك النبى صلى الله عليه وسلم .

ورقة يضرب المثل بموقفه كما يرجو أن يكون .

(قوله ياليتنى فيها جذع) كذا فى رواية الأصيلى .

وعند الباقين ياليتنى فيها جذعا بالنصب على أنه خبر كان المقدرة قاله الخطابى وهو مذهب الكوفيين فى قوله تعالى .

انتهوا خيرا لكم .

وقال ابن برى التقدير ياليتنى جعلت فيها جذعا .

وقيل النصب على الحال اذا جعلت فيها خبر ليت .

والعامل فى الحال ما يتعلق به الخبر من معنى الاستقرار قاله السهيلى .

وضمير فيها يعود على أيام الدعوة .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٩ .

(٢) ابن حجر فى الفتح ج ٢ ص ٢ وما بعدها .

والجذع بفتح الجيم والذال المعجمة هو الصغير من البهائم كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء الى الاسلام شابا ليكون أمكن لنصره وبهذا يتبين سر وصفه بكونه كان كبيرا أعمى •

قانون المواجهة بين الحق والباطل ودلالة ••

الصدق فى رد فعله على رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(قوله اذ يخرجك) قال ابن مالك فيه استعمال اذ فى المستقبل كاذا وهو صحيح وغفل عنه أكثر النحاة وهو كقوله تعالى •

وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الأمر •

هكذا ذكره ابن مالك وأقره عليه غير واحد •

وتعقبه شيخنا شيخ الاسلام بأن النحاة لم يغفلوه بل منعوا وروده وأولوا ما ظاهره ذلك •

وقالوا فى مثل هذا استعمل الصيغة الدالة على الماضى لتحقيق وقوعه فانزلوه منزلته ويقوى ذلك هنا ان فى رواية البخارى فى التعبير حين يخرجك قومك •

وعند التحقيق ما ادعاه ابن مالك فيه ارتكاب مجاز وماذكره غيره فيه ارتكاب مجاز ومجازهم أولى لما ينبنى عليه من ايقاع المستقبل فى صورة الماضى تحقيقا أو استحضارا للصورة الآتية فى هذه دون تلك مع وجوده فى أفصح الكلام وكأنه أراد بمنع الورود ورودا محمولا على حقيقة الحال لا على تأويل الاستقبال •

وفيه دليل على جواز تمنى المستحيل اذا كان فى فعل خير لأن ورقة تمنى أن يعود شابا وهو مستحيل عادة •

ويظهر لى أن التمنى ليس مقصودا على بابه بل المراد من هذا التنبيه على صحة ما أخبره به والتنويه بقوة تصديقه فيما يجىء به •

(قوله أو مخرجى هم) بفتح الواو وتشديد الياء وفتحها جمع مخرج فهم مبتدأ مؤخر ومخرجى خبر مقدم قاله ابن مالك •

واستبعد النبى صلى الله عليه وسلم أن يخرجوه لأنه لم يكن فيه سبب يقتضى الاخراج لما اشتمل عليه من مكارم الاخلاق التى تقدم من خديجة وصفها •

وقد استدل ابن الدغنة بمثل تلك الأوصاف على أن أبا بكر لا يخرج •

(قوله الاعودى) وفى رواية يونس فى التفسير الا أوذى فذكر ورقة ان العلة فى ذلك مجيئه لهم بالانتقال من مألوفهم ولأنه علم من الكتب أنهم لا يجيبونه الى ذلك وأنه يلزمه لذلك منابذتهم ومعاندتهم فتنشأ العداوة من ثم •

وفيه دليل على أن المجيب يقيم الدليل على ما يجيب به اذا اقتضاه المقام •

تلخيص للدروس المستفادة من مواقف التهيئة المبدئية فى البيئة

من دراستنا لهذه النماذج المباركة من معالم المنهاج التدريبى فى التهيئة المبدئية نستطيع أن نوجز ما سبق بتركيز شديد حتى لا ننسى النظرة الكلية الشمولية للموضوع بسبب الانشـــغال أو الانبهار بالجزئيات، فالرؤية الكلية أدعى دائما الى وضع الجزئيات والتفاصيل فى مركزها الصحيح، فضلا عن أنها أكثر جدوى وأعظم فائدة فى دقة التطبيق لهذه الجزئيات وربـــط حركتها بتحقيـــق أهدافها ومقاصدها .

وفيما يلى تلخيصنا لما سبق من المواقف : ــ

١ ــ لقد أخذنا من ظاهرة اليتم التى تكررت فى موت الأب قبل المولد ثم فى موت الأم فى نحو الخامسة ثم فى موت الجد فى الثامنة دروس التهيئة لتحمل أقسى الصدمات وأشدها .

٢ ــ ومن ظاهرة زهد المرضعات بسبب اليتم المفضى لقلة المـــال من جهـــة ، ويســـــبب قيم عبد المطلب الخالية من الأرهاب والجبروتمن جهة أخرى أخذنا دروس تحكم الأسباب المعتادة فى هذا الموقف كما عرفنا من الاشارة الى قلة المال وعدم خوف المرضعات من عبد المطلب أن عنصرى المـــال والأكراه ، أو عنصرى الترغيب والترهيب ليسا وحدهما السلاحين اللذين يتأسس عليهما اعتمـــاد الداعية فى بداية الدعوة ، وان كان ذلك لا ينفى الأفادة من مبدأ الترغيب والترهيب بضـــوابطهما وقيمهما المعروفة فى الاسلام .

٣ ــ ومن فراق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأمه ووطنه فى بداية طفولته المبكرة عندما أخذته السيدة حليمة السعدية الى مضارب بنى سعد ، أخذنا دروس التهيئة للاعتماد على النفس ، واستقامة اللهجة العربية الفصيحة ، والقوة البدنية .

٤ ــ ومن (رعى الغنم) أخذنا دروس التهيئة لرعاية الأمم عن طريق تكوين ملكة المسئولية الرعوية بالرحمة والخبرة فى معـــرفة احتياجات الكائنات الحية من ضرورات الطعـــام والشراب والأيواء ، بالأضافة الى تطوير هذه المعارف وتلك القيم الى واقع عملى يستجيب لهذه الحاجات ويلبى متطلبات حياتها .

٥ ــ ومن كفالة الجد وصحبة حفيده له فى مجلسه واصرار الجد على هذه الصحبة رغم تعارض ذلك مع أعراف البيئة وعاداتها عرفنا درس التهيئة للنهج القيادى فى أسلوب التعامل مع الناس من موقع المسئولية والسيادة،حيث يتشرب الطفل المبارك هذه الملكة منذ نعومة أظفاره من رؤيته المباشرة لجده فى هذه السن المبكرة ، وهو يرعى شئون قومه بوصفه سيد قريش التى تدين لها العرب .

٦ — ومن التجارب والأسفار التى بدأ القيام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى الثامنة عشرة من عمره أخذنا دروس التهيئة بأتقان خبرة الأنتقال واجادة الاتصال مع احسان المخاطرة بمعرفة الأسواق وتحسب الاحتياجات وفروق العرض والطلب ، وما يحتاجه ذلك من الصبر على المشقات واحتمالها ، والتهيؤ آخر هذا المطاف للمستقبل بخبرة اقتصادية عالية لاتستغنى عنها حياة الشعوب والأمم .

٧ — ومن كفالة عمه ووثاقة الصلة بينهما عرفنا دروس التهيئة للبر بالأرحام . وامكان التعاون فى أمور الدين والدنيا مع الناس حتى لو اختلفت عقائدهم وتباينت دياناتهم .

٨ — وفى مجال الخبرة العسكرية وفنون الحرب بالأضافة الى الألتزام بالقيم الفاضلة والقواعد العادلة الكريمة ، والضوابط الدقيقة التى تحكم خبرة القتال والحرب ذكرنا نموذجين هما : حرب الفجار وحلف الفضول وقد شاهد الأول وشارك فى الثانى ، وكان اعتزازه بحلف الفضول بعد الاسلام مؤكدا .

٩ — ثم كان الزواج من خديجة تهيئة رائعة فى قمة معالم المسئولية الاجتماعية الخاصة المتميزة، ذلك أن هذا الزواج بذاته ليس كأى زواج آخر لما اتصف به من أوصاف ، وأحاطه من ظروف كانت مكة كلها على معرفة بها ، ويكفى ان الصادق الأمين محمدا وحده دون أبرز رجالات مكة الذين كانوا يتنافسون على الاقتران بخديجة هو الذى اختير لهذه المسئولية فبلغ بها الذروة سعادة فى عش الزوجية وسكنا ومودة وطمأنينة بدت آثارها العملية فى التعاون بين أعظم زوجين على البر والخير قبل النبوة وبعدها .

١٠ — من حادثة اختلاف قريش على الحجر الأسود واحتكامهم الى السيف وتحكيمهم أول داخل عليهم فيما بينهم على غير موعد ، وحكم الرسول الذى كان سببا فى انهاء الخلاف وارضاء الجميع . أخذنا درس التهيئة للمسئولية الاجتماعية العامة بما تستلزمه من العدل والتحرر وسرعة التصرف والحسم .

١١ — وأخيرا كان موقف (الخلوة) فى دروس التهيئة المبدئية ، وأخذنا منه تنمية القدرة على الاستقلال باتخاذ القرار بعد التأمل المستقل المجرد ، والبعد عن المؤثرات والمعوقات عن طريق المراجعة الشاملة والدقيقة لمحصلات القيم والخبرات والمعارف والمواءمة بينهما وتوحيد اتجاهها نحو عبادة الله سبحانه والنظرة العجلى لهذه المواقف فى التهيئة المبدئية تلحظ بسهولة تنوع الخبرات وتكاملها فى الزوايا الاجتماعية والاقتصادية والحربية وهى نفسها ما تحتاجه أمة فى مستقبلها . حتى جاءت لحظة الوحى وتكاملت فى الصادق الأمين كل معالم الاعداد والاستعداد التى جعلت منه بفضل الله أكمل وأصلح انسان لتحمل الدعوة .

ـ ملاحظات ـ

وتبقى ملاحظات سريعة لابد من تذكرها قبل محاولة تطبيق هذه الدروس على واقعنا الاجتماعى اليوم وتتلخص هذه الملاحظات فيما يلى :

١ ـ التطور بالأعداد والتدريب سنة فطرية من سنن الوجود لاتستغنى عنها الحياة فى تقدمها فى أى وقت من الأوقات ، فهى اذن ليست خاصة بالفترة السابقة على النبوة ، بيد أننا خصصناها بهذه الفترة لأنها كانت بيت القصيد باعتبارها المرحلة التربوية المبكرة من جهة ، ولعدم وجود واجبات أخرى تزاحمها حيث لم تبدأ مهمات النبوة ،وعلى أية حال فالتقسيم اعتبارى أواصطلاحى لامشاحة فيه .

٢ ـ مواقف التهيئة الخاصة بالوراثة وبعض مواقف البيئة قد تبدو فى ظاهرها ليست محلا للقدوة لكن حقيقة الأمر فى هذه المواقف جد مختلف ، فهى متاحة للقدوة والتأسى كما سبق بيانه عند الحديث على هذه المواقف .

٣ ـ لما كان مجال القدوة مرتبطا بالأسباب والمسببات المتاحة للبشر لزم التذكير بأن وقوع الأحداث . التربوية والمواقف التدريبية داخل هذا الاطار لا يعنى من قريب أو بعيد تعارضها أو تنافيها مع اعجاز المشيئة الربانية فى تهيئة النبى صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن أسباب التهيئة التى سخرها الله تحت قدرتنا ، والأسباب التى لا تطولها قدرتنا ، والنتائج المرادة لمشيئة الله سواء ارتبطت بالأسباب أو لم ترتبط بها كلية ، كل ذلك هو من مشيئة الله سبحانه ، ومن اعجاز قدرته فى خلقه ، فليس هناك سبب ولا مسبب الا بقدر الله وارادته ، وبين يدى هذه الحقيقة يستوى كل شىء ندركه أو لا ندركه فالارتباط بين الأسباب والمسببات فى مواقف التهيئة والاعداد على هذا النحو لايخرج عن هذه القاعدة فهو من مشيئة الله . والوراثة والبيئة كغيرهما من جنود الله ،« وما يعلم جنود ربك الا هو » (١) .

---

(١) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

الباب الثاني

"ب"

وَالَّذِينَ مَعَهُ

صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه

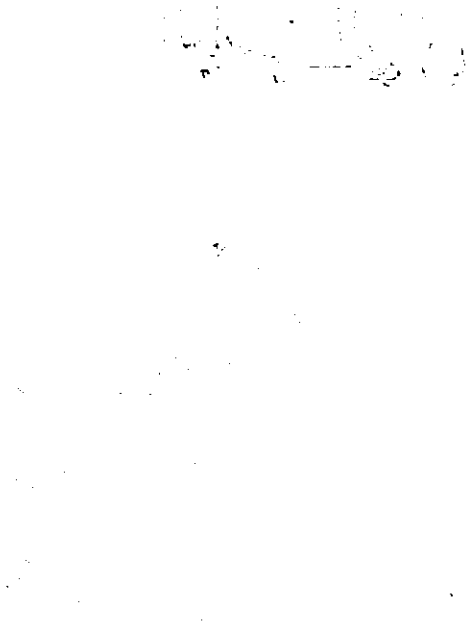

بسم الله الرحمن الرحيم

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ
تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ
فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ
بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

سورة الفتح ٢٩

صدق الله العظيم

عبادة الاعداد والتهيئة

هى الشاغل الأول للرسول صلى الله عليه وسلم

من الميسور أن يلاحظ المتأمل فى مواقف السيرة أن سيدنا رسول اللهصلى الله عليه وسلمتولى اعداد أصحابه وتهيئتهم وتدريبهم منذ الحظات الأولى لبداية الوحى ، وقد بلغت درجة العناية بالتهيئة والاعداد فى الاسلام أنها قدمت على تتابع نزول الوحى ، وسبقت عبادة الجهر بالدعوة ، والصدع بأمر الله ، ذلك أن الوقت الذى أعقب مباشرة نزول الآيات الأولى من القرآن الكريم من سورة العلق :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ... » هذا الوقت الذى توقف فيه نزول القرآن وفتر ، كانت عبادة الاعداد ، والتهيئة للقلة التى دخلت الاسلام هى الشغل الشاغل لسيدنا رسول اللهصلى اللهعليه وسلم ، ومعنى ذلك أن مواقف السيرة التى قدمنا نماذج منها منذ ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بعثته ، والتى عرفنا من خلالها أن الله سبحانه قد تولى برحمته اعداد خاتم النبيين ما ينبغى أن تكون قاصرة على الأنبياء . ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه قد أعده الله ، وهيأه ليكون أقدر البشر على التهيئة ، والاعداد لأصحابه ، وقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى الاعداد ، والتهيئة ، والتدريب لأصحابه قمة فى الاعجاز ، والتفوق تنقطع دون التطلع اليها اليها أطراف العيون ، وتعجز بسموها مد البصر اللهم الا فى اطار قدوة متاحة ميسرة برحمة الله ، أو متابعة جادة متجردة تلتمس العون من الله .

واذن فالاعداد والتهيئة ايمان وطاعة واتباع ، واهمال الاعداد والتهيئة نقص فى الايمان ومعصية وابتداع ، ويترتب على الأخذ بهذه العبادة أن تكون أمة المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، كما يترتب على اهمالها ضياع الدين والدنيا ، وانهيار المجتمعات حتى تكون الأمة غثاء كغثاء السيل .

وتبين من ذلك كله أننا حين نطالب بضرورة التهيئة والاعداد لأجيالنا ، فاننا نطالب بالعودة الحقيقية للاسلام فى نمط عملى يرتفع ويعلو فوق الشعارات الحالمة ، والتصورات العقيمة التى لاتقدم حلولا جذرية لما نعانيه بقدر ماتقدم مخدرا يحجب وضوح الرؤية بمعسول أحلام اليقظة ، حتى ينتبه ويستيقظ فى نهاية المرحلة أو الخطة أكثر الناس اخلاصا وأشدهم رغبة فى الاصلاح على نتائج سلبية تصيبهم بالاحباط ، واليأس والحيرة . ذلك أن الانسان كعنصر أساسى فى مواجهة المشاكل وحلها ، هو الأداة الحقيقية المفتقدة فى جميع الخطط المعدة للاصلاح ، ولايمكن أن يتوفر عنصر الانسان الا بالتهيئة والاعداد .

القرآن الكريم والتهيئة المبدئية

لا يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها ، لذا حرص القرآن الكريم نفسه على أن يحفظ للمسلمين قيم الاعداد والتهيئة وموقعها من بناء الأمة الاسلامية ، وسوف نفسح المجال الأكبر لنصوص القرآن وتفسيره مع الاقلال قدر الامكان من التعليقات ، أو التدخل كى تترك النصوص أثرها بشكل مباشر ، وهى تكشف لنا أبعاد التهيئة وآثارها الايجابية كضرورة للعنصر الانسانى فى دينه ، ودنياه ، وعقيدته ، وسلوكه .

وبداهة لن يتسع المقام للاسترسال فى ذكر النصوص التى تتعلق بالاعداد والتهيئة ، وانما سنذكر بعض هذه النصوص التى نأخذ منها ما نريد ، ولعل المثل الذى ساقه القرآن الكريم لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو صلى الله عليه وسلم يصنع منهم اللبنات الأولى لبناء الأمة من أجمع النصوص دلالة ، وأوضحها دلالة على نمو الصحابة شيئا فشيئا تحت رعاية الرسول لهم بالتهيئة ، والاعداد ، والتدريب ، وقد اختار الله سبحانه مثلا لمحمد بالزرع الذى ينبت رقيقا ضعيفا ، ثم يشتد بالتدريج حتى يستغلظ ويقوى ويستوى على سوقه .

قال تعالى :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » (١) .

وشاهدنا من هذه الآية الكريمة ، هو قوله تعالى فى وصف تطور القوة فى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم :

« كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » .

يقول الامام القرطبى فى تفسير هذا المثل :

(كزرع أخرج شطأه) على معنى وهم كزرع .

و « شطأه » يعنى فراخه وأولاده ، قاله ابن زيد وغيره .

وقال مقاتل :

هو نبت واحد ، فاذا خرج ما بعده فقد شطأه .

---

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

قال الجوهـــرى :

شطء الزرع والنبات فراخه ، والجمع أشطاء . وقد أشطأ الزرع خرج شطؤه . قال الأخفش فى قوله « أخرج شطأه » .

أى طـــرفه .

وحكاه الثعلبى عن الكسائى .

وقال الفـــراء :

أشـــطأ الزرع فهو مشطىء اذا خرج .

قال الشاعر : أخرج الشطء على وجه الثرى ومن الأشجار أفنان الثمر .

الزجاج : أخرج شطأه أى نباته .

وقيل : ان الشطء شوك السنبل ، والعرب أيضا تسميه : السفا ، وهو شوك البهمى (١) ، قاله قطـــرب .

وقيل : انه السنبل ، فيخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان ، قاله الفراء ، حكاه الماوردى .

وقرأ ابن كثير وابن ذكوان «شطأه» بفتح الطاء ، وأسكن الباقون .

وقرأ أنس ونصر بن عاصم وابن وثاب «شطأه» مثل عصاه .

وقرأ الحجدرى وابن أبى اسحاق «شطه» بغير همز ، وكلها لغات فيها .

وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، يعنى أنهم يكونون قليلا ، ثم يزدادون ويكثرون، فكـــان النبى صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء الى دينه ضعيفا ، فيقوى حالا بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه . فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان .

وقال قتـــادة :

مثل أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الانجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

(فآزره) أى قواه وأعانه وشده ، أى قوى الشطء الزرع . وقيل بالعكس ، أى قوى الزرع الشـــطء .

وقراءة العامة «آزره» بالمـــد .

وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة وحميد بن قيس «فأزره» مقصورة ، مثل فعله . والمعروف المد .

---

(١) البهمى : نبت تجد به الغنم وجدا شديدا — اى تحبه حبا شديدا — يدوم الخضر .

(فاستوى على سوقه) على عوده الذى يقوم عليه فيكون ساقا له .

والسوق : جمع الســـاق .

(يعجب الزراع) أى يعجب هذا الزرع زراعه .

وهو مثل كما بينا فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم ، والشطء أصحابه ، كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقووا ، قاله الضحاك وغيره .

(ليغيظ بهم الكفار) اللام متعلقة بمحذوف ، أى فعل الله هذا لمحمد صلى الله عليه وســلم وأصحابه ليغيظ بهم الكفــار .

روى أبو عروة الزبيرى من ولد الزبير : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ مالك هذه الآية «محمد رسول الله والذين معه» حتى بلغ .

«يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفــار» .

فقـــال مالك :

من أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ، ذكره الخطيب أبو بكر .

قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصـــاب تأويله . فمن نقص واحدا منهم ، أو طعن عليه فى روايته ، فقد رد على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ، قال الله تعالى : «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار» . الآية .

وقال : «لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة (١) الى غير ذلك من الآى التى تضمنت الثناء عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح قال تعالى :

«رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه» (٢) .

---

(١) سورة الفتح : ١٨ .
(٢) سور الاحزاب : ٢٣ .

وقال : «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ، وأموالهم يبتغون فضـــلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون» (١) .

ثم قال عز من قائل : «والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم ـــ الى قوله ـــ فأولئك هـــم المفلحون» (٢) . وهذا كله مع علمه ـــ تبارك وتعالى ـــ بحالهم ومآل أمرهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » (٣) .

وقال : «لاتسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبـــا ماأدرك مد أحدهم ولا نصيفه» (٤) .

وفى حديث آخر :

«فلو أن أحدكم أنفق مافى الأرض لم يدرك مـــد أحدهم ولا نصيفه»(٥) . قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مـــد أحدهم اذا تصدق به ولا نصف المـــد ، فالنصيف هو النصف هنا،وكذلك يقال للعشر عشير، وللخمس خميس ، وللتسع تسيع ،وللثمن ثمين ، وللسبع سبيع ، وللسدس سديس ، وللربع ربيع . ولم تقل العرب للثلث ثليث . . . .

قلت : فالصحابة كلهم عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله .

هذا مذهب أهل السنة ، والذى عليه الجماعة من أئمة هذه هذه الأمة (٦) .

ماذا يعنى هـــذا المثـــل الرائـــع ؟

هذا المثل يعنى بوضوح كامل أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فى نمو قوتهم فى حيازة هذه الفضائل فى عقيدتهم ، وعددهم ، وعدتهم مضت عليهم سنة الله فى خلقه التى تقضى بالتدرج فى الاعداد والتهيئة . فمثلهم كمثل النبات ، أو الزرع الذى ينبت فى أرق حالات الضعف، ثم ينمو ، ويكبر ، ويقوى فى المراحل التى ذكرتها الآيات ، وهى تشبه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بالزرع .

---

(١) سورة الحشر : ٨ .
(٢) سورة الحشر : ٩ .
(٣) أخرجه البخارى ، باب فضائل اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ج ٥ ص ٢ ، طبعة الشعب .
(٤) اخرجه مسلم ، باب تحريم سب الصحابة رضى الله عنهم ، ج ٧ ص ١٨٨ ، طبعة الشعب .
(٥) المد : بضم الميم . مكيال وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ورطلان عند اهل العراق . ا هـ مختار الصحاح
(٦) تفسير القرطبى ج ١٦ من ص ٢٩٤ — ٢٩٩ .

بل أن هذه السنة مضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وكثير من أقوال المفسرين• والنقول تفيد بأن هذا المثل مضروب للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ويكفى أن تكون بداية الآية الكريمة شاملة للرسول وأصحابه وذلك قوله تعالى :

«محمد رسول الله والذين معه • • • •»

على أن هنا أمرا ينبغى الالتفات اليه فى هذا المثل ، وهو ان الزرع اطرد التمثيل به فى القرآن للانسان عند الحديث عن أعرق الحقائق ، وجوهر المعارف الأصيلة الكبرى فى الفقه ، والاعتقاد ، والتطبيق مثل خلق الانسان ، أو بعثه ، والايمان بالله ، والساعة ، كقوله تعالى :

«يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب • • • •— الى قوله تعالى — وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبـــور» (١) • •

واذن حين يتخذ (الزرع) مثالا للاعداد ، والتهيئة لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان ذلك يدل على مركز الاعداد ، والتهيئة بين عبادات الاسلام ، ويقطع بأن هذه العبادة من الأصول الأساسية ، وليست من الفروع التى يمكن الترخص فى اهمالهـــا •

واذا كان هذا (المثل) قد صور مكانة هذه العبادة تصويرا عاما،فقد حرص القرآن فى نفس الوقت على عرض نماذج كثيرة لعمليات الاعداد ، والتهيئة التى أكسب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه القيم ، والفضائل ، والصفات ، التى منحتهم الصلاحية لرضوان الله ، واسعاد خلقه ، واعمار الحياة ، وهذه بعض النماذج الموجزة التى أورد القرآن الكريم الكثير منهـــا •

فسورة الفتح التى ورد فى نهايتها تمثيل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (بالزرع) كانت موضوعات لأشد وأعنف مراحل التدريب ، والاعداد لأصحاب النبـــى •

روى محمد بن اسحاق عن الزهرى عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، قالا :

نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها الى آخرها •

وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت « انا فتحنا لك فتحا مبينـــا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما — الى قوله — فوزا عظيما» مرجعه من الحديبية ، وهم يخالطهم الحزن ، والكآبة ، وقد نحر الهدى بالحديبية فقال :

---

(١) سورة الحج : ٥ — ٧ .

«لقد أنزلت على آية هى أحب الى من الدنيا جميعا» .

وفى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه .

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره ، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر بن الخطاب :

ثكلت أم عمر ، نزرت (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاث مرات كل ذلك لم يجبك ، فقال عمر :

فحركت بعيرى ، ثم تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فما نشبت (٢) أن سمعت صارخا يصرخ بى فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ففجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه ، فقال : « لقد أنزلت على الليلة سورة لهى أحب الى مما طلعت عليه الشمس — ثم قرأ — « انا فتحنا لك فتحا مبينا » . (٣) .

وقال الترمذى : حديث حسن غريب صحيح .

ومن أبرز برامج التدريب شدة وقسوة على الصحابة فى الحديبية أن العناصر المتضاربة فى علاقاتها الايجابية ، والسلبية تضافرت كلها على الاحاطة العنيفة المفاجئة بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

(أ) فالحبيب الصادق والمصدق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلفت فى ظاهر الأمر — نبوءاته ، وبشرياته ، وأخباره ، فقد وعدهم بدخول مكة والمسجد الحرام الى درجة أنهم ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرموا ، وساقوا الهدى أمامهم .

وفوجىء الصحابة بصد قريش لهم ، واستجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لرغبة قريش ، وأمر أصحابه بأن يتحللوا من احرامهم ، وأسقط فى أيديهم فلم يحدث أن تخلف خبر النبى قبل ذلك أبدا . وكان موقفا تدريبيا من أحرج المواقف ، وأشدها هولا .

بيد أن نتيجة التهيئة ، والاعداد الدائمين فيما مضى أثمرت على جناح السرعة ، فاستردوا طبيعتهم ، وفاءوا لطاعة الله ورسوله فهم كما ذكرت الآية الختامية لسورة الفتح ، قد استووا كما يستوى الزرع على سوقه ، ولذلك كانوا بعد اجتياز هذه الصدمة أنقى فطرة ، وأكثر ثقة وطاعة ، وأعظم ايمانا وتفويضا .

---

(١) اى الححت عليه وبالغت السؤال .

(٢) اى ماليثت .

(٣) اخرجه البخارى ج ٦ ص ١٠٤ باب فضل سورة الفتح ، القاهرة دار الفكر .

قال تعالى :

« هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » (١) .

و « والسكينة » السكون والطمأنينة .

قال ابن عباس :

كل سكينة فى القرآن هى الطمأنينة الا التى فى « البقرة » (٢) . وتقدم معنى زيادة الايمان فى « آل عمران » (٣) .

وقال ابن عباس :

بعث النبى صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا اله الا الله . فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة فلما صدقوه زادهم الزكاة ، فلما صدقوه زادهم الصيام ، فلما صدقوه زادهم الحج ، ثم أكمل لهم دينهم ، فذلك قوله (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) أى تصديقا بشرائع الايمان مع تصديقهم بالايمان .

وقال الربيع بن أنس :

خشية مع خشيتهم .

وقال الضحاك :

يقينا مع يقينهم .

(ولله جنود السموات والأرض) .

قال ابن عباس يريد الملائكة ، والجن ، والشياطين ، والانس (وكان الله عليما) بأحوال خلقه (حكيما) فيما يريده .

ثم بشرهم فوق ذلك بدخول الجنة ، والفوز العظيم عند الله .

قال تعالى : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » (٤) .

---

(١) سورة الفتح : ٤ .

(٢) قال ابن عباس فى قوله تعالى « فيه سكينة من ربكم » السكينة : طست من ذهب فى الجنة كان يغسل فيه قلوب الانبياء، وقلله السدى » تفسير القرطبى المجلد الثانى ص ١٠٥٦ ، طبعة الشعب .

(٣) قال الامام القرطبى فى تفسير قوله تعالى « فزادهم ايمانا » اى فزادهم قول الناس ايمانا ، اى تصديقا ويقينا فى دينهم واقامة على نصرتهم ، وقوة وجراءة واستعدادا فزيادة الايمان على هذا هى فى الاعمال » تفسير القرطبى ، المجلد الثانى ص١٥٢٣ طبعة الشعب .

(٤) سورة الفتح : ٥ .

أى أنزل السكينة ليزدادوا ايمانا . ثم تلك الزيادة بسبب ادخالهم الجنة .

وقيل : اللام فى « ليدخل » يتعلق بما يتعلق به اللام فى قوله :

« ليغفر لك الله » (وكان ذلك) أى ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب . (عند الله فوزا عظيما) أى نجاة من كل غم ، وظفرا بكل مطلوب . وقيل لما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

قالوا : هنيئا لك يارسول الله ، فماذا لنا ؟؟

فنزل « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات » .

ولما قرأ « ويتم نعمته عليك » .

قالوا هنيئا لك ، فنزلت « وأتممت عليكم نعمتى »(١) فلما قرأ « ويهديك صراطا مستقيما » نزل فى حق الأمة .

« ويهديكم صراطا مستقيما » (٢) . ولما قال .

« وينصرك الله نصرا عزيزا » نزل .

« وكان حقا علينا نصر المؤمنين » (٣) .

وهو كقوله تعالى : « ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »(٤) .

ثم قال : « هو الذى يصلى عليكم »(٥) ذكره القشيرى .

(ب) ومن داخل الجماعة الاسلامية التى كان تعدادها العام أربعمائة وألف رجل فقط جاءت الصدمة التدريبية الثانية ثقيلة الوطأة قاسية الشدة ذلك أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبى — وهو يومئذ من المسلمين لكنه يظهر الاسلام ويبطن النفاق والكفر — :

أيظن محمد أنه اذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم ؟

فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم .

وقيل : يدخل فيه جميع المخلوقات .

---

(١) سورة المائدة : ٣ .
(٢) سورة الفتح : ٢٠ .
(٣) سورة الروم : ٤٧ .
(٤) الأحزاب : ٥٦ .
(٥) الأحزاب : ٥٣ .

وقال ابن عباس : ولله جنود السموات «الملائكة» • وجنود الأرض «المؤمنون» وأعاد لأن الذى سبق عقب ذكر المشركين من قريش ، وهذا عقيب ذكر المنافقين ، وسائر المشركين •

والمراد فى الموضعين التخويف والتهديد ، فلو أراد اهلاك المنافقين ، والمشركين لم يعجزه ذلك ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى •

وقد سبق لهؤلاء المنافقين اشاعة روح اليأس ، والهزيمة حتى أطلق عليهم القرآن الكريم :

«الظانين بالله ظن السوء» ففيهم ، وفى المشركين الذين كانوا مصدر الصدمة الثالثة نزل قوله تعالى :

«ويعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ، ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما» •

قوله تعالى :

(ويعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات) أى بايصال الهموم اليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وبأن يسلط النبى عليه السلام قتلا ، وأسرا ، واسترقاقا •(الظانين بالله ظن السوء) يعنى ظنهم أن النبى — صلى الله عليه وسلم — لايرجع الى المدينة ، ولاأحد من أصحابه حين خرج الى الحديبية ، وأن المشركين يستأصلونهم • كما قال :

«بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا » •

وقال الخليل وسيبويه : «السوء» هنا الفساد •

(عليهم دائرة السوء) فى الدنيا بالقتل ، والسبى ، والأسر ، وفى الآخرة بجهنم •

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دائرة السوء» بالضم • وفتح الباقون •

قال الجوهرى : ساءه يسوءه سوءا (بالفتح) ومساءة ومساية ، نقيض سره والاسم السوء (بالضم)•

وقرىء «عليهم دائرة السوء» يعنى الهزيمة والشر • ومن فتح فهو من المساءة •

(وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما) (١) •

فهكذا نرى نهاية هذه الصدمة فى صالح المسلمين الصادقين ، حيث تولى الله سبحانه أمر المنافقين ، وكشف عن سوء نواياهم ، وأخبرهم بالمصير المظلم الذى سوف ينتهون اليه بأعمالهم ، وأقوالهم ، وارجافهم •

---

(١) سورة الفتح : ٦ ، ٧ .

(ج) أما الصدمة الثالثة فكانت من المشركين فقد احتبسوا سيدنا عثمان ، وأشيع أنه قتل ، ثم كانت شروط الصلح غاية فى الاجحاف — بالنظرة البشرية الظاهرية — وصاحبها تطبيق عملى لأقسى هذه الشروط وهى : رد من يهديه الله للاسلام من أهل مكة الى المشركين ، وبلغ التدريب أقصى غايته حين جاء أبو جندل بن سهل بن عمرو يرسف أغلاله ، ويجأر بالاستغاثة برسول الله والمسلمين ، ولكن أباه الذى كان يمثل قريشا يتمسك ، ويصر على اعادته لقريش تطبيقا لشروط الصلح ، ويفى رسول الله بشرطه ويرده •

ويصر سهيل بن عمرو على حذف باسم الله الرحمن الرحيم •

وحذف وصف محمد بأنه رسول الله •

ويستجيب الرسول صلى الله عليه وسلم فيمحوها بيده ، ويتفطر المسلمون غيظا حتى يعلو صوت عمر : ألسنا على الحق ؟ ألست برسول الله ؟ فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟ ولشدة وقع الصدمة على الصحابة لم يستجيبوا أول الأمر لطلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتحللوا من احرامهم ويخشى عليهم الرسول من غضب الله لمعصيتهم لأوامر نبيه •

عن البراء بن عازب قال :

كتب على رضى الله عنه الصلح بين النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين المشركين يوم الحديبية، فكتب :

هذا ما كاتب عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالو :

لا تكتب رسول الله ، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك • فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى :

امحه • فقال :

ما أنا بالذى أمحاه (١) ، فمحاه النبى صلى الله عليه وسلم بيده •

وكان فيما اشترطوا :

أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثا •

ولا يدخلها بسلاح الا جلبان السلاح • (قلت لأبى اسحاق : وماجلبان السلاح ؟ قال (٢) :

القراب وما فيه •

وعن أنس : أن قريشا صالحوا النبى — صلى الله عليه وسلم — وفيهم سهيل بن عمرو فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى :

---

(١) امحاه : لغة فى امحوه •

(٢) زيادة عن مسلم •

«اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو .

أما باسم الله (١) ، فما تدرى مابسم الله الرحمن الرحيم ! ولكن اكتب مانعرف: باسمك اللهم .

فقال :

«اكتب من محمد رسول الله» قالوا: لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك ! ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

«اكتب من محمد بن عبد الله» فاشترطوا على النبى صلى الله عليه وسلم .

أن من جاء منكم لم نرده عليكم ، ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا :

يارسول الله ، أنكتب هذا ! قال :

«نعم انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا»(٢).

وعن أبى وائل قال :

قام سهل بن حنيف يوم صفين فقال .

يأيها الناس ، اتهموا أنفسكم لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا ، وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين . فجاء عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يارسول الله ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال «بلى» قال :

أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار قال «بلى» قال :

ففيم نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال :

«يابن الخطاب انى رسول الله ، ولن يضيعنى الله أبدا» قال :

فانطلق عمر ، فلم يصبر متغيظا فأتى أبا بكر فقال :

ياأبابكر ، ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال بلى ، قال :

أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال بلى . قال :

ففلام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال :

يابن الخطاب ، انه رسول الله ، ولن يضيعه الله أبدا . قال :

فنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفتح .

---

(١) قوله : « اما باسم الله ... » اى فنحن ندريه . واما البسملة التى تذكرها بتمامها فما ندريها .

(٢) صحيح مسلم ، باب صلح الحديبية فى الحديبية ص ٩٩ ، القاهرة ، طبعة عيسى الحلبى .

فأرسل الى عمر فأقرأه اياه ، فقال :

ياسول الله أو فتح هو ؟ قال «نعم» • فطابت نفسه ورجع (١) •

وقد رأينا رغم شدة الصحمة كيف سادت قيم الطاعة ، والثقة فى الله ورسوله فقد تسابقوا عن الطوق ، وخضعوا لعوامل التهيئة الجادة ، والاعداد المتواصل حتى نضجت على الحق وبالحق عقولهم وقلوبهم •

والى ذلك يشير قوله تعالى :

(لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما» (٢) •

قال تعالى :

(لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة)هذه بيعة الرضوان، وكانت بالحديبية•

وقوله تعالى : (فعلم ما فى قلوبهم) من الصدق والوفاء ، قاله الفراء •

وقال ابن جريج وقتادة :

من الرضا بأمر البيعة على ألا يفروا • وقال مقاتل :

من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت •

(فأنزل السكينة عليهم) حتى بايعوا • وقيل :

«فعلم مافى قلوبهم » من الكآبة بصد المشركين اياهم وتخلف رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم عنهم ، اذا رأى أنه يدخل الكعبة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم •

« انما ذلك رؤيا منام » • وقال الصديق :

لم يكن فيها الدخول فى هذا العام •

والسكينة : الطمأنينة ، وسكون النفس الى صدق الوعد • وقيل الصبر • (وأثابهم فتحا قريبا) قال قتادة وابن أبى ليلى :

فتح خيبر • وقيل

فتح مكة • وقرىء « وآتاهم » •

---

(١) اخرجه مسلم ، باب صلح الحديبية فى الحديبية ج ٢ ص ٩٨ ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابى الحلبى

(٢) سورة الفتح : ١٨ ، ١٩ •

(ومغانم كثيرة يأخذونها) يعنى أموال خيبر ، وكانت خيبر ذات عقار وأموال ، وكانت بين الحديبية ومكة . فـ « مغانم » على هذا بدل من « فتحا قريبا » والواو مقحمة . وقيل :

« ومغانم » فارس والروم . والى ذلك يشير قوله تعالى :

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » (١) .

وقوله تعالى :

« ولتكون آية للمؤمنين » فى طلب المتابعة والقدوة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه فى عبادة اعداد النفس وتهيئتها ، وتدريبها لاكتساب القيم ، والصفات ، والمهارات ، التى تؤهلهم لاحتمال تبعة هداية النفس ، والأهل ، والناس لرسالة الاسلام عقيدة ، وسلوكا ، وحراسة أركانه ، وحماية مبادئه ، وغاياته .

* * *

والخلاصة أن سورة الفتح التى ختمت بتمثيل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعه أصحابه بالزرع الذى استكمل نموه ، وقوته ، واستوى على سوقه تضمنت فى ثناياها من أولها لآخرها كيف استطاع هؤلاء الصادقون من الرجال الأقوياء بايمانهم اجتياز هذه التدريبات بصدماتها القاسية فى نجاح واقتدار سواء على مستوى صلتهم بالرسول الذى لم يتحقق — فى ظاهر الأمر — نبؤه وخبره أو على مستوى التخريب الداخلى بفعل المنافقين ، أو على مستوى استثارة المشركين واستفزازهم بالاستبداد ، والتنطع فى فرض شروطهم المجحفة .

فعلى مستوى الرسول صلى الله عليه وسلم تشير الآيات الى الترابط الوثيق ، والتكامل بين الرسول وأصحابه فى اطار الحب ، والوقار ، والطاعة ، والايمان ، وأعلى درجات الارتباط بين المجتمع وقيادته .

قال تعالى :

« انا أرسلناك شاهدا ، ومبشرا ، ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه ، وتوقروه ، وتسبحوه بكرة وأصيلا » (١) .

(لتؤمنوا بالله ورسوله)

قرأ ابن كثير وابن محيص وأبو عمرو « ليؤمنوا » بالياء .

---

(١) سورة الفتح : ٢٠ .
(٢) سورة الفتح : ٨ ، ٩ .

وكذلك « يعزروه ويوقروه ويسبحوه » كله بالياء على الخبر .. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ، فأما قبله فقوله :

« ان الذين يبايعونك » .

الباقون بالتاء على الخطاب ، واختاره أبو حاتم .

(وتعزروه) أى تعظموه وتفخموه ، قاله الحسن والكلبى .

والتعزير : التعظيم والتوقير . وقال قتاده :

تنصروه وتمنعوه منه . ومنه التعزير فى الحد ، لأنه مانع . قال القطامى :

ألا بكرت مى بغير سفاهة تعاتب والموجود ينفعه العزر

وقال ابن عباس وعكرمة :

تقاتلون معه بالسيف . وقال بعض أهل اللغة :

تطيعوه (وتوقروه) أى تسودوه ، قاله السدى .

وقيل تعظموه .

والتوقير : التعظيم والتزيين أيضا والهاء فيهما للنبى صلى الله عليه وسلم وهنا وقف تام ثم تبتدىء « وتسبحوه » أى تسبحوا الله (بكرة وأصيلا) أى عشيا . وقيل :

الضمائر كلها لله تعالى ، فعلى هذا يكون تأويل « تعزروه وتوقروه » أى تثبتوا له صحة الربوبية ، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك ، واختار هذا القول القشيرى . والأول قول الضحاك ،

وعليه يكون بعض الكلام راجعا الى الله سبحانه وتعالى وهو « وتسبحوه » من غير خلاف ، وبعضه راجع الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو «وتعزروه وتوقروه» أى تدعوه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكنية .

وفى « تسبحوه » وجهان :

أحدهما .

تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح .

والثانى .

هو فعل الصلاة التى فيها التسبيح . « بكرة وأصيلا » أى غدوة وعشيا .

بل واتصلت صلة الصحابة بالنبى صلى الله عليه وسلم بصلتهم بالله فكانت موثقا مع الله وعهدا .

قال تعالى :

«ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » (١) .

قوله تعالى :

(ان الذين يبايعونك) بالحديبية يامحمد . (انما يبايعون الله) بين أن بيعتهم لنبيه صلى الله عليه وسلم انما هى بيعة الله ، كما قال تعالى :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٢) .

وهذه المبايعة هى بيعة الرضوان ، (يد الله فوق أيديهم) قيل :

يده فى الثواب فوق أيديهم فى الوفاء ، ويده فى المنة عليهم بالهداية فوق أيديهم فى الطاعة .

وقال الكلبى :

معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة . وقال ابن كيسان :

قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم .

(فمن نكث) بعد البيعة . (فانما ينكث على نفسه) أى يرجع ضرر النكث عليه ، لأنه حرم نفسه الثواب ، وألزمها العقاب .

(ومن أوفى بما عاهد عليه الله) قيل فى البيعة .

وقيل فى ايمانه . (فسيؤتيه أجرا عظيما) يعنى فى الجنة .

وقرأ حفص والزهرى « عليه » بضم الهاء . وجرها الباقون .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر .
« فسنؤتيه » بالنون .

واختاره الفراء وأبو معاذ .

وقرأ الباقون بالياء . وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم ، لقرب اسم الله منه .

أما على مستوى بلاء المنافقين ، وارجافهم ، فيكفى أن تسجل آيات سورة الفتح أن الله سبحانه أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، فازدادوا ايمانا ، ولاشك أن زيادة الايمان تدل بالقطع — الى جانب ماذكره المفسرون من معان — على انتصار المسلمين على مقاصد المنافقين فى ارجافهم ، وزلزلة قلوب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، واثارة الشك فى نفوسهم .

---

(١) سورة الفتح : ١٠ .
(٢) سورة النساء : ٨٠ .

قال تعالى :

« ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السـوء عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ، ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ، ولله جنـود السمـوات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما » (١) .

قوله تعالى :

(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى بايصال الهموم اليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وبأن يسلط النبى عليه السلام قتلا وأسرا واسترقاقا .

(الظانين بالله ظن السوء) يعنى ظنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم لايرجع الى المـدينة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج الى الحديبية ، وأن المشركين يستأصلونهم . كما قال :

« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا » .

وقال الخليل وسيبويه :

« السوء » هنا الفساد .

(عليهم دائرة السوء) فى الدنيا بالقتل والسبى والأسر ، وفى الآخرة بجهنم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « دائرة السوء » بالضم . وفتح الباقون . قال الجوهري : ساءه يسوءه سوءا (بالفتح) ومساءة ومسائية ، نقيض سره والاسم السوء (بالضم) . وقرىء « عليهم دائرة السـوء » يعنى الهزيمة والشر ، ومن فتح فهو من المساءة .

(وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عزيزا حكيما) .

وقال تعالى :

« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا » (٢) .

قوله تعالى :

(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا) وذلك أنهم قالوا :

ان محمد وأصحابه أكلة (٣) رأس لا يرجعون .

---

(١) سورة الفتح : ٦ ، ٧ .
(٢) سورة الفتح : ١٢ .
(٣) اى هم لقلة يشبعهم رأس واحد .

(وزين ذلك) أى النفاق . (فى قلوبكم) وهذا التزين من الشيطان ، أو يخلق الله ذلك فى قلوبهم .

(وظننتم ظن السوء) أن الله لا ينصر رسوله .

(وكنتم قوما بورا) أى هلكى ، قاله مجاهد . وقال قتادة :

فاسدين لا يصلحون لشىء من الخير . قال الجوهرى :

البور : الرجل الفاسد الهالك الذى لاخير فيه . قال عبد الله بن الزبعرى السهمى :

يارسول المليك ان لسانى * راتق مافتقت اذ أنا بور

وامرأة بور أيضا ، حكاه أبو عبيد . وقوم بور هلكى . قال تعالى :

« وكنتم قوما بورا » وهو جمع بائر ، مثل حائل وحول . وقد بار فلان اى هلك وأباره الله اى أهلكه . وقيل : « بورا » أشرارا ، قاله ابن بحر . وقال حسان بن ثابت :

لاينفع الطول من نوك الرجال وقد * يهدى الاله سبيل المعشر البور (١) أى الهالك .

وقال تعالى :

« ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيرا » (٢) .

وعيد لهم ، وبيان أنهم كفروا بالنفاق .

وقال تعالى :

« ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما » (٣) .

أى هو غنى عن عباده ، وانما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى .

أما جبهة المشركين فقد حددت الآيات الكريمة من السورة نفسها — سورة الفتح — سماتها بكلمات محددة واضحة تبين شرف تفوق الصحابة فى مواجهة الحماقات القرشية الجاهلية المثيرة ، والتى كانت كافية لاستفزاز أعظم الناس حلما وصبرا ، كذلك حددت الآيات الى جوار ذلك بكلمات محددة محكمة دوافع المشركين الخالية من الموضوعية ، والبعيدة عن المعرفة ، والحضارة الانسانية

قال تعالى :

« اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما » (٤) .

---

(١) ورد هذا البيت فى الاصول محرفا .
(٢) سورة الفتح : ١٣ .
(٣) سورة الفتح : ١٤ .
(٤) سورة الفتح : ٢٦ .

وغنى عن البيان هذا النص القرآنى الكريم الذى يكفى أن ننظر الى عدد من كلماته فى جانب المشركين مثل :

« الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » •

وفى جانب الصحابة :

« فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين،والزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها »•

هذا هو موقف المؤمنين الذين استووا على سوقهم استواء فطريا كما يستوى الزرع على عوده • تفوق وشرف فى الدافع والمنهج والأسلوب ، والغاية ، وفق تصوير القرآن الكريم •

اذن فان السياق العام لسورة الفتح يقرر لأبناء الاسلام فى كل مكان وعصر ، أن أسلافهم من الغر الميامين ، وصلوا الى هذا المستوى الرفيع فى مواجهة الأعاصير الهوجاء ، وتغلبوا وانتصروا عليها نتيجة ما أخضعوا له أنفسهم من تهيئة دائمة ، واعداد جاد مستمر ،يشبه فى مراحله تطور الزرع والنبت منذ منبته الى أن يستوى على سوقه •

والنتيجة الحتمية التى يجب أن نضعها دائما نصب أعيننا أنه بغير تهيئة أو اعداد يظل الكائن الانسانى عاجزا مقهورا لا يعرف كيف تتجه خطواته ، ولا يدرك ما هى أبسط واجباته ، وذلك سبب من أهم الأسباب فى ضياع المسلمين ، وضعفهم ، وعجزهم ، فاذا أردنا الخير لأنفسنا ، وأمتنا فليس أمامنا الا طريق الاعداد ، والتهيئة والتدريب بنفس المنهاج الاسلامى الذى طبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم •

الخاتمة

تصورات واقتراحات عامة
لإبراز تطبيق عبادة التهيئة والإعداد
في شكل عملي معاصر

مواجهة للنفس على ضوء هذه المواقف

اذا كان الله سبحانه قد هيأ خاتم أنبيائه بالوراثة وأسبابها فاصطفى من بين ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا،واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم ، وهو القادر على تهيئته بغير سبب من أسبابها •

واذا كان الله سبحانه قد هيأ خاتم أنبيائه بخير عوامل البيئة تأثيرا وهو القادر على تهيئته بغير سبب من أسبابها • فهل يجوز لنا ونحن عباد الله الذين خلقهم مقيدين بالأسباب أن نتخطى سنة الله فينا فنتجاوز أسباب الوراثة والبيئة فى تكييف شخصياتنا ، ونتجاهل تأثيرها فى أبنائنا وأجيالنا ؟

أليس هذا التخطى وذلك التجاوز خروجا على طاعة الله ورسوله ، خصوصا وقد جاءت نصوص الوحى بعد النبوة مؤكدة لمعطيات دروس التهيئة المبدئية قبل النبوة من مثلقوله صلى الله عليه وسلم فى تأثير الوراثة :

« تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا اليهم » (١) •

ومثل قوله صلى الله عليه وسلم فى تأثير البيئة •

« مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما أن يحذيك (٢) واما أن تبتاع منه واما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك واما أن تجد ريحا خبيثة » (٣) •

وقد أيد القرآن الكريم هذا الاتجاه النبوى ، بل هو منبعه وأساسه فالقرآن والسنة من مشكاة واحدة •

« ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » (٤) • ؟

واشارته لتأثير عوامل البيئة بالآية الكريمة •

---

(١) ومعنى تخيروا لنطفكم كما ذكره المناوى : اى لا تضعوا الا لكم الاكفاء لهم ، والحديث اخرجه ابن ماجه والحاكم والبيهقى فى السنن الكبرى عن عائشة رضى الله عنها ، السراج المنير للعزيزى شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٦ .

(٢) يحذيك : اى يعطيك .

(٣) رواه مسلم ، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء .

(٤) سورة آل عمران : آية ٣٤ .

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » (١) .

وقوله تعالى « فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » (٢) .

وقوله تعالى « ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » (٣) .

وغير ذلك من نصوص الوحى كثيرة لايتسع لذكرها مقام الأيجـــاز والتلخيص فاذا أردنا أن نواجه أنفسنا بصراحة على ضوء توجيهات ديننا المحكمة فى الموضوع الذى نتحدث فيه،وهو ضرورة العناية باعداد الأجيال القادمة وتهيئتها للمستقبل،فان الحد الأدنى من الصدق مع الله والنفس يحتم علينا أن نعترف دون تردد بأننا متورطون فى عصيان توجيهات الاسلام والخروج على هديه ،والبرهان على ذلك مناهج التربية والتعليم والتثقيف بدءا من المنزل والمدرسة والجامعة حتى المجتمع بكل مافيه من روافد ، وليس من الضرورى أن نسرد التفاصيل،بل ولسنا فى حاجة الى ذلك لأن كل أب أوأم وكل معلم أو ولى أمر لديه من الشواهد ما يكفيه ومع حرصنا على عـدم الافراط فى الحـديث دون داع فلسوف نسوق من واقع الحياة ما يعيننا على مواجهة أنفسنا بصراحة وصـدق . من هـذا الواقع مانسمعه عن أساليب غير المسلمين فى تهيئة أبنائهم واعداد ناشئتهم للمجالات التى ترتقى بالجانب المادى للحياة .

فاليابان والصين مثلا وهما تسابقان الزمن لتعويض مافاتهما لهما من التجـارب فى التهيئـة والاعداد مناهج تبدأ مع الطفل منذ المراحل المبكرة جدا . ونحن هنا لانتعرض لصلاحية هذه المناهج فى مجتمعاتها أو غيرها ، وانما نسجل أخذ هاتين الأمتين وغيرهما من الأمم بمبدأ التهيئة والاعـداد ، فالمسألة من حيث المبدأ أصبحت شيئا مسلما به عند الأمم التى تهتم بمستقبلها وتعرف واجبـاتها . وليس من قبيل الاسترسال أن أذكر اننى كنت فى رحلة علاج قصيرة الى لندن فرأيت على الشاشـة الصغيرة صباح ذات يوم أطفالا من الانجليز فى مرحلة الحضانة يلعبون فى حقـل تدريبى وفى يد كل طفل اناء زجاجى وفى يده الأخرى قدوم صغير وقامت المشرفة على الأطفال بتخصيص مكان لكل طفل وما لبث الأطفال حتى حفر كل منهم حفرة تكفى لاستيعاب الاناء الزجاجى بحيث تكـون حـافته منخفضة عن مستوى سطح الارض بقدر يسير ، وظل الأطفال يراقبون هذه الآنية فى بهجة وسـعادة وتساقطت بعض الحشرات فى بعض الآنية فاستخرجها الاطفـال فرحين ، والتفوا حـولها ومعهم المشرفة تشرح لهم نوعية كل حشرة من هذه الحشرات ،مع أننا لانوافق على الانبهار التقليدى بما فى الشرق والغرب ، الا أننا أردنا تذكير المسلمين بأن غير المسلمين انما يحرزون ما يحرزونه من تقدم حتى فى الجانب المادى — لأنهم فى تناولهم للحياة أقرب منا الى تطبيق توجيهات الأسلام ولا يعنينا هنا أنهم يصدرون فى تطبيقهم عن التجارب الانسانية المحضة دون أى علاقة أو معرفة بتوجيهـات

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٨ .
(٢) سورة الانعام : آية ٦٨ .
(٣) سورة الانعام : آية ٥٢ .

الاسلام ، فهذه الزاوية تخصنا نحن دون غيرنا والعيب الخطير فيها هو عيبنا ، هم أخذوا التطبيق وفاتتهم النية ،أما نحن فلا تطبيق ولانية ويضاعف من خطورة عيوبنا فى هذه المقارنة،انهم لايعرفون ما فى الاسلام من كنوز ، لأن دعوة الأسلام بنفسها لم تبلغهم الا مصحوبة بالقرائن التى تدعـوهم للنفور والحذر ، بينما نحن نعرف جمال الأسلام ونؤمن بكماله ومع ذلك نعرض عنه وندير له ظهورنا ونهمل ما فيه من دروس .

ان هذه المواجهه الصادقة للنفس أكثر من ضرورية اذا أردنا أن نبعث فى أوصالنا الحيـاة مـرة أخرى اذ لـو استمرت أحوالنا على مـا هى فيه دون تغيير فلسوف تكـون النتيجة أسـوأ مما يرد على خاطر أى انسان وذلك اننا الآن فى حالة احتضار دون أدنى مبالغة أو تشاؤم (١) والخوف علينا نحن وليس على دين الله وصدق الله العظيم .

« وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »(٢) .

(المخرج العملى السـهل من هـذا المأزق المهلك)

المخرج العملى اليسير الذى ليس له بديل هو فى دراسة مواقف السيرة النبوية وفهمها ثـم محاكاتها من منطلق مبدأ القدوة والأسوة والتبعية للرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم طاعة لقوله تعالى : —

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (٣)

وطاعة لقوله تعالى : —

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليـوم الآخر وذكر الله كثيرا (٤)

ولا زالت بحمد الله فى القلوب عاطفة غامرة تربطنا بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تيسر علينا الأقتداء به وبدروس سيرته العطرة .

---

(١) راجع مقال (فلسطين النذير الاخير) وهو وثيقة تاريخية كتبها بكل الموضوعية والتجرد د . حسين مؤنس ونشرتها مجلة اكتوبر العدد ٣٢٤ الصادر بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩٨٣ م .

(٢) آخر سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٣١ .

(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٢١ .

(القــدوة والتــدريب)

وفى عمليات التهيئة والاعداد والتدريب تشير النصوص السابقة الى مبدأين أساسيين تجب رعايتهما بدقة فى مجال القدوة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أولهما : الأصـــالة .

وثانيهما : المرونة .

أما الأصالة فأخذ النفس على مستوى الأمة بمبدأ التهيئة والأعداد والتدريب دون ترخص على أساس أنه جزء لايتجزأ من عقيدة التوحيد والأيمان بالله والتصديق برسالة خاتم النبيـــين محمد صلى الله عليه وسلم .

أما المرونة فأخذ المتغيرات فى الاعتبار ، والتجرد من الجمود الذى يرفضه الاســـلام تماما ، فمثلا كانت مواقف التهيئة بالوراثة والبيئة واقعة فى سياق الأحداث بأسلوب التداعى والأسترسال بينما عمليات التهيئة والتدريب اليوم تطورت وتشعبت وتخصص لها الخبراء والعلماء يقضـــون أعمارهم فى دراستها فلابد من الملاحظة لهذه المتغيرات للافادة منها ، ذلك أن هذه الأســـاليب فى المناهج المتطورة من حيث موقفها كوسائل متاحة للتدريب فى عصر ما تستوى تماما مع حرب الفجار أو حلف الفضول أو غيرهما من وسائل التدريب فى العصر الذى سبق النبوة فتلك المواقف القديمة المسترسلة وهذه المواقف الحديثة المنهجة جميعها (هذه وتلك) أدوات لتطبيق أحكام لا أكثر ، فما كان أكثر منها نفعا فى مجال التدريب وجب علينا أن نأخذ به دون تردد ، والا كنا مستمرين فى تورط المعصية والمخالفة لتوجيهات الله ورسوله وبغير الأصالة فى ايماننا بمبـــدأ التهيئة والاعـــداد والتدريب المصحوبة بالمرونة فى التطبيق ستتوقف فى بدنا عجلة الحياة وسيظل حديثنا عن مشاكل الانتاج والاسكان والتنمية بصفة عامة ضربا من العبث .

ان لدينا من المشاكل المتراكمة ما يدفعنا للبدء الفورى فى تهيئة واعداد أنفسنا وأبنائنا وشبابنا لمواجهة ما يتطلبه حل هذه المشاكل من الواجبات .

(تغيير جـذرى فى مـلامـح المجتمـع)

دون دخول فى التفاصيل التى يجب أن تكون وقفا على أهل التخصص فى الأعداد والتـدريب حتى يكونوا أهلا للالتزام بتوجيهات الأسلام ، والثقة فى ادراك مقاصده ، والأمانة والتجرد فى برمجة ومنهجة ما لديهم من تخصصات وفق ما يرشد اليه الاسلام •

دون دخول فى هذه التفاصيل نرى أنه يمكن تصور اطار القدوة بمواقف التهيئـة والأعـداد من السيرة النبوية على الوجه الآتى : —

أولا : تكون هناك برامج عامة للتهيئة المبدئية تشمل جميع أبنائنا منذ ولادتهم لا فرق بين الذكور والأناث وتتناول هذه البرامج العامة اتجاهات ثلاثة : —

١ — العلاقات الشخصية والاجتماعية لبناء مفاهيم عملية محددة مشتركة عن تنظيم الصلات عمليا بين أفراد الأسرة على مستوى الأم والأب والأخوة والزوج والزوجة ثم على مستوى أفراد المجتمع والدولة •

٢ — العلاقات بين العبد وربه من حيث العقيدة والعبادة فى ضوء فروض العين •

٣ — قدر مناسب مشترك من المعارف الضرورية المختلفة التى لا يجوز لمعاصر أن يجهلها مع توضيح موقف الاسلام من هذه المعارف باعتبارها جزءا من واجبات الكفاية التى يتعين على المجتمع المسلم تخصيص بعض أفراده للتفوق فى دراستها فى مرحلة مستقبلية سنعرض لها بعـد هـذه الفقـرة •

وفى تصورنا انه يجب أن تتحول خدمة هذه الاتجـاهات الثـلاثة ، الى قوالب فنية علمية من البرامج والمختبرات (١) تغطى مراحل الأعمار المختلفة من الطفولة المبكرة •

ثانيا : ينبثق من الاتجاه الثالث فى برامج المرحلة السابقة برامج متخصصة تبدأ الى حد ما فى وقت مبكر جدا من العمر اذا قيست بما هو متبع الآن من تأخير مرحلة التخصص •

وفى تصورنا أن المختبرات الجادة فى برامج الاتجاه الثالث من التهيئة المبدئية العـامة اذا توفرت لها المتابعة الدقيقة للناشئة حال اكسابهم القدر المشترك العام من المعارف الضروريـة المختلفة سوف يكشف عن مدى استعداداتهم نحو هذه المعارف ، ويجعلنا ندرك أيها أقرب وأنسب لقدراتهم ورغباتهم وعلى ضوء هذا المقياس من جهة ، واحتياجات المجتمع كمقياس ثان من جهة

---

(١) مصطلح علمى لعملية هامة من عمليات التدريب •

أخرى تتجدد الأعداد المطلوبة للتخصصات المختلفة فى مجالات الزراعة والصناعة والتعليم والطب والهندسة وسائر المهن المطلوبة .

وهكذا تبدو الرؤية واضحة أمامنا حيث تشق عمليات التهيئة والتدريب لكل قطاع طريقها المرسوم وما دامت البداية سوف تكون من الصفر فان قدرا عظيما من الحرية سيكون متاحا للابداع فى رعاية الأمكانات المحلية المتاحة ، فمشاكل التمويل ، والنظام التقليدى لبعض الأسر ذات المستوى المستقر أو الأقرب للرفاهية قد يشكل عوائق فى طريق التجربة ، فاذا أردنا تفادى مثل هذه المشاكل ، مع ملاحظة أننا نملك قدرا من حرية الحركة أمكننا أن نركز اعتمادنا على الأسر غير المترفهة بل الأسر التى ليس لديها من متاع الدنيا ما ترتبط به ، وقد تعتبر أى تجهيزات لأقامتها أفضل حالا من الأوضاع التى تحياها بالفعل ، على أن مستوى الأسرة الفقيرة لا يعتبر نقصا فى التجربة فالطفل فى أى اسرة هو الطفل اذا كنا سنبدأ معه من أول الطريق .

ويقوم تصورنا فى اطار الحركة الحرة على ربط هذه الأسر فى تجمعات سكنية وفق تجانس رغبات أبناء هذه العائلات فى التخصصات المطلوبة فكل قطاع أفرزته برامج التهيئة المبدئية يمكن أن يكون نواة لتجمع من الأسر ، ومما تجدر الاشارة اليه من المزايا التى تيسر لهذه التجربة انطلاقها ان استثمار الأرتباط العاطفى الأسرى بين الأبناء والآباء يؤدى الى سرعة استجابة الأسرة اذا كان المدخل الى اقناعها بأنها سوف تصحب ابنها أو أبناءها فى بعثة دراسية بالأضافة الى الفوائد الأخرى التى ستحصل عليها الأسرة كامتلاك الأرض التى تصلحها والارتفاع المتوقع لمستواها ، وهناك أهداف موضوعية وحيوية بالنسبة لجوهر التجربة بشكل غير مباشر يفضى اليها هذا العمل العظيم كالاسهام فى حل مشاكل الأسكان والمواصلات والمرافق وغيرها .

الاسلوب التنفيذى المقترح للبدء .

الخطوة الأولى :

تقوم كل محافظة على مستواها المحلى بأحصاء عدد المتخصصين من أبنائها فى مجال التهيئة والتدريب والادارة ، وتختار من صفوة أبنائها من علماء الدين بعض المتخصصين ليتكون من هؤلاء جميعا الرواد الذين يدربون من تختارهم الأجهزة المتخصصة بالمحافظة من المعلمين والوعاظ والأئمة على أساليب ادارة المختبرات فى التهيئة المبدئية ، وكلما كان التدريب ميدانيا كان أجدى ، بمعنى أن يجرى المتخصصون التدريب على الأطفال مباشرة فى حضور الدارسين الكبار لأنهم المقصودون أساسا بالتدريب فى هذه المرحلة .

الخطوة الثانية :

تتكون المجموعات الأولى من الروافد الآتية :

١ ــ الأطفال الذين يقع عليهم الاختيار من دور الحضانة •

٢ ــ الأطفال الذين يقع عليهم الاختيار من مراحل التعليم الأولى •

٣ ــ الأطفال الذين يقع عليهم الاختيار الذين يقتنع أسرهم بجدية التجربة •

ويمكن تخصيص دور المدارس والمعاهد فى غير الأوقات الرسمية لتدريب مجموعات الأطفال مع الوضع فى الاعتبار أن هؤلاء الأطفال بتفرغهم لهذه التدريبات يعفــون من التزامهم بالتعليم العام باعتبارهم يؤدون فعلا التعليم الالزامى •

على أن يتم اكتشاف ميولهم واستعداداتهم على النحو الســابق بيانه • ويمكن تصــنيفهم ومعرفة اتجاههم ورغباتهم أثناء هذه المرحلة •

الخطوة الثالثة :

الانتقال بالأسرة من المدن والقرى الى أماكن التجمع الجديدة فى العمق الصحراوى للمحافظــة التى تكون قد أحسن اختيار موقعها • خلال فترة التهيئة المبدئية التى قد تستغرق سنتين أو أكثر • ومن الأمور البدهية أن كل محافظة سوف تبدأ وفق قدراتها ، ولكن المهم أن تبدأ وتستمر مهما كان حجم التجربة فى البداية متواضعا على أن يتسع مجالها شيئا فشيئا ، ومن الضرورى أن تكون أجهزة التربية والتعليم فى الصورة أولا بأول حتى تعدل وتنسق فى مناهجها بما يتفق مع اعداد أبنائنا على هذا النحو الذى يرتبط باحتياجات الوطن •

تحفظــات ضروريــة حــول هــذه التصــورات

ومن الواجب الا ينظر الى هذه التصورات،أنها صادرة من أهل الذكر المتخصصين فى مجالاتها، ان الشىء المسلم به أن مثل هذا التغيير الجذرى فى المجتمع لا يتم تصوره بهذه البساطة ، فهو أمر تتشابك فيه الخبرات وتشترك فيه المسئولية بين تخصصات عديدة •

لذا فان هذه التصورات المعروضة ، مجرد تناول عام للموضوع أردنا فقط أن نرده لأصوله وجذوره الاسلامية ، أما الزاوية المتخصصة فلابد أن يتولاها أهلها من ذوى الخبرة ، وكل ما نرجوه فى هذا الشأن ، ألا تكون دراسة هذه التجربة وانجازها من خلال الأسلوب التقليدى الذى يقتل كل أمل متجدد ، ويئد كل حماس متوقد .

ان تربية أجيالنا واعدادها للمستقبل بالتهيئة والتدريب ضرورة دينية ودنيوية وبغيرها سوف لاتكون لنا حياة ، فاذا كانت فهى حياة خير منها الموت والفناء ، وصدق الله العظيم .

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » (١) .

---

(١) سورة الرعد آية رقم ١١ .

مصـــادر الدراســـة

أولا : المراجع الأصولية :

١ ــ القرآن الكريم ٠

٢ ــ ابن حجر العسقلانى (أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى ٨٥٢ هـ)
فتح البارى ، طبعة الكليات الأزهرية ٠

٣ ــ ابن كثير (أبو الفداء ، الحافظ بن كثير الدمشقى المتوفى ٧٧٤ هـ)
تفسير القرآن العظيم ، القاهرة ، عيسى البابى الحلبى وشركاه ٠

٤ ــ ابن كثير ٠
البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٦٦ م ٠

٥ ــ ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى المصرى)
لسان العرب ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٥ ٠

٦ ــ ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام ، المتوفى ٢١٨ هـ)
السيرة النبوية ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، ١٣٧٥ هـ ٠

٧ ــ البخارى (أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخارى)
صحيح البخارى ، طبعة الشعب ٠

٨ ــ الترمذى (أبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى)
سنن الترمذى ، القاهرة دار الفكر ٠

٩ ــ الزركلى : (خير الدين الزركلى)
الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، بيروت ، ١٩٧٠ ٠

١٠ ــ السندى :
حاشية السندى على صحيح البخارى ٠

١١ — السهيلى (عبد الرحمن السهيلى) .

الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة .

١٢ — الشوكانى (محمد بن على بن محمد الشوكانى . المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ)

نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد المختار .

١٣ — العزيزى (على بن الشيخ أحمد بن الشيخ نور الدين الشهير بالعزيزى)

السراج المنير شرح الجامع الصغير . القاهرة ، المطبعة الميمنية ١٣١٢هـ .

١٤ — القارى (على بن سلطان محمد القارى) .

شرح الشفاء للقاضى عياض .

١٥ — الغزالى : (أبوحامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى)

احياء علوم الدين .

١٦ — مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى) .

صحيح مسلم . طبعة الشعب

١٧ — المنذرى (عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى)

الترغيب والترهيب من الحديث الشريف . القاهرة ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٧٣هـ

١٨ — النووى (يحيى بن شرف بن مرى حسن بن حسين بن حزام النووى)

صحيح مسلم بشرح النووى ، طبعة الشعب .

١٩ — النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى)

نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وزارة الثقافة والارشاد القومى .طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب

٢٠ — الهيثمى (على بن أبى بكر الهيثمى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ)

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، دار الكتاب ، بيروت ، لبنان .

٢١ — الواحدى (أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى)

أسباب النزول ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٩٦٨ م

ثانيا : مصادر أخرى :

١ ــ حسين مؤنس •

فلسطين النذير الأخير ، مجلة أكتوبر عدد ٣٢٤ ، ٣٠ يناير سنة ١٩٨٣ م•

٢ ــ عباس محمود العقــاد •
عبقرية محمد ، مطبعة دار الهلال •

٣ ــ عبد الله الشرقاوى •
فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى • القاهرة ، مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٥٥هـ

٤ ــ عبد الله بن محمد بن الصديق الحسنى •
الكنز الثمين فى أحاديث النبى الأمين • القاهرة ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٨٨ هـ

٥ ــ عفيف طباره :

مع الأنبياء فى القرآن الكريم ، دار العلم للمــلايين ، بيروت

٦ ــ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية •
المنتخب من الســنة •

٧ ــ محمد أبو زهرة •
خاتم النبيين • القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٣٧٢هـ

٨ ــ محمد الاختيار •
من السيرة العطرة •

٩ ــ محمد حسين هيكل •
حياة محمد ، طبعة دار العلم •

١٠ ــ محمد الصادق عرجون •
محمد صلى الله عليه وسلم من نبعته الى مبعثه ، طبعة البحوث الاسلامية •

١١ ــ محمد محمد أبو شهبة •
السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ، دار الطباعة المحمدية ، الأزهر ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠م •

١٢ ــ محمد سعيد رمضان البوطى •
فقة الســيرة • دار الفكر

١٣ ــ مناقب الأنصــار •

دليـل المحتـويـــات

	الصفحة
• كلمة الأستاذ الدكتور عميد المعهـد	٧
• مقدمـــــة	٩
• **الباب الأول : التهيئة المبدئية للرسول (صلى الله عليه وسلم)** بين عوامل البيئة ، والوراثة	١٩ : ١٨٠
الفصل الأول : عوامل الوراثة	٢٧ : ٦٠
ـ أوصاف القرآن لسيدنا ابراهيم ، وتبلورها وطموحاتها فى خاتم النبيين	٣٣
ـ الاصطفاء بالوراثة	٤١
ـ تعقـيب	٤٣
ـ حرص الخليل على انتقاء زوجة ولده اسماعيل	٤٧
ـ قيم عبد المطلب وأخـلاقه	٤٩
ـ نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده	٥٥
ـ تعقـيب	٥٧
الفصل الثانى : عوامل البيئة ومعطياتها	٦١ : ١٨٠
ـ أرقى مراتب اليتم والدروس المستفادة منها	٧٣
ـ زهد المراضع ، والقيم التى أرساها هذا الموقف	٨١
ـ رعـى الغنـم	٩٣
ـ معجزة شـق الصـدر	٩٩
ـ صحبته لجده واكتسابه للمهارات القيـادية	١٠٥
ـ تعقـيب	١٠٩
ـ كفالة أبى طالب للرسول ، والدروس المستفادة	١١١
ـ التجارة ، والأسفار ، واكتساب الخبرة الاقتصادية	١٢١
ـ التذكير بالجانب الالهى فى عملية التهيئة	١٢٦
ـ الاعداد ، والتدريب على المهارات العسكرية	١٣١
ـ غرس قيم التضحية ، والفداء بضوابطها الأخلاقية	١٣٥
ـ المسـئولية الزوجيـة	١٤٣

الصفحة

— التهيئة المبدئية فى مجال المسئولية الاجتماعية ١٥٣
— الخلوة — المراجعة الشاملة ، وأبرز دلالاتها ١٥٩
— خلاصة الدروس المستفادة من مواقف التهيئة المبدئية فى مجال العوامل البيئية ١٧٧

الباب الثانى : الاعداد والتهيئة لصحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ١٨١ : ٢٠٤
— اعداد وتهيئة الصحابة تتصدر اهتماماته (صلى الله عليه وسلم) ١٨٥
— القرآن الكريم وابراز قاعدة التهيئة المبدئية للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ١٨٦
— دلالات ما جاء بختام سورة الفتح الكريمة بهذا الشأن ١٩١

الخاتمـــة :

— تصورات واقتراحات عامة لابراز تطبيق عبادة التهيئة والاعداد فى شـــكل عملى معـــاصر ٢٠٥
● ثبت مصادر الدراسة ٢١٥
● دليل محتويات الدراسة ٢١٩